

دكتور قاسم عبده قاسم

المسلمون و أوربا

التطور التاريخى لصورة الآخر

المسلمون وأوربا

التطور التاريخى لصورة الآخر

دكتــور

قاسم عبده قاسم

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م



عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

بطاقة فهرسة	المستشارون
قاسم ، قاسم عبده	د . أحمد إبراهيم الهوارى
المسلمون وأوربا :	د . شوقى عبد القوى حبيب
التطور التاريخي لصورة الآخر /	د . قاسم عبده قاسم
قاسم عبده قاسم - ط١ - الجيزة :	المشرف العام :
دار عين للدراسات والبحوث	د. قاسم عبده قاسم
الانسانية والاجتماعية ، ٢٠٠٨	المدير التنفيذى :
٢٤٠ ص ؛ ٢٠سم	شريف قاسم
تدمك ٥ ٢٣٦ ٣٢٢ ٩٧٧	مدير الانتاج :
١- الاسلام والعلاقات الخارجية	جمال عابد
أ. العنوان ٢١٤ ، ٣٢٧	تصميم الغلاف: عمرو قاسم

الناشر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٥ شارع ترعة المريوطية - الهرم - ج.م.ع تليفون وفاكس ٣٨٧١٦٩٣

Publisher:EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5, Maryoutia St ., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693

web site: WWW.Dar -Ein.com / E-mail : dar_Ein@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

حوار الحضارات ، أم صدام الحضارات ؟ حوار أديان أم حوار ثقافات ؟

أسئلة تثور فى الأجواء السياسية والثقافية فى عالم اليوم الذى تشتعل فيه الحروب والمنازعات فى كل أركان الدنيا، تبحث عن الإجابة المناسبة وسط ضجيج الايديولوجيا الجديدة التى تحاول السيطرة على العالم من خلال رفع شعارات العولمة ، وصراع الحضارات ، ومحاربة الإرهاب الإسلامى ... وما إلى ذلك .

ولأننا نؤمن بوحدة الحضارة الإنسانية ، التى امتدت حلقاتها منذ بداية البداية فى رحلة الإنسان ، التى لم تتم بعد، عبر الزمان، فإننا نقدم هذه الدراسة الأولية ، بشقيها ، عن صورة الآخر لدى كل من الأوربيين والمسلمين فى تطورها التاريخى حتى نهاية العصور الوسطى (القرن السادس عشر الميلادى تقريبا) ومفهوم «التسامح» وتطوره التاريخى أيضا فى الفترة نفسها .

فالحضارة الإنسانية التى نحيا فى ظلها اليوم تدين بالكثير لإنجازات الحضارات السابقة زمنيًا من ناحية، كما أن جميع الحضارات كانت تدين للحضارات السابقة عليها من ناحية أخرى؛ وهو ما يعنى أن جميع البشر ينهلون من منبع واحد وإن تغيرت مواقعه الجغرافية . فالحضارات القديمة

(المصرية- وحضارة العراق القديمة- وحضارة الصين وحضارة الهند القديمة) أثرت بشكل أو بآخر فى الحضارات التى جاءت بعدها (مثل اليونانية ، والهللينستية والرومانية) التى تركت بصماتها على الحضارة العربية الإسلامية التى استفادت أيضا من موروثات الفرس والسوريان والهنود والصين؛ فضلاً عن الحضارات الأقدم عمراً . وحين بدأت أوربا تنفض عن نفسها غبار التخلف الذى عانت منه فى العصور الوسطى، اتجهت إلى الحضارة العربية الإسلامية تنهل من معينها حتى قوى عودها، وصارت الحضارة العالمية بإنجازاتها التى كفلت لها التفوق والسيادة والريادة فى عالمنا المعاصر لاسيما بعد أن تعززت بشقها الأمريكى.

خلاصة القول إن هناك وحدة حضارية حقيقية تجمع البشر ؛ وأن مصلحتهم الحقيقية تكمن فى إدراك هذه الحقيقة، ونبذ صيحات الحرب التى يطلقها الرأسماليون المتوحشون الذين يريدون السيطرة على العالم؛ موارد الطاقة ، والأسواق ، والعمالة الرخيصة ، ويمهدون لهذا بدعاوى إيديولوجية باطلة عن صدام الحضارات ، أو الأديان ، أو الثقافات . وفى ظنى أن العالم بدأ ينقسم إلى قسمين رئيسيين ؛ بغض النظر عن الحدود الجغرافية والتقسيمات السياسية واللغوية والعرقية: دعاة الحرب وقارعو طبول الصدام والصراع من أجل أطماعهم الرأسمالية الجشعة ، والبشر العاديين الذين يريدون العيش فى سلام تظلله الأخوة الإنسانية. وقد تجلى هذا واضحًا فى أثناء الحرب على العراق ، وفى مظاهر مقاومة الحرب والعولمة والتسلح ... وغيرها .

وهذه الدراسة تحاول أن تلقى أضواء كاشفة على جانب من الموضوع ؛ إذ تتناول فى شق منها موقف المسيحيين الشرقيين عامة من حركة الفتوح الإسلامية، والتعامل مع الدين الإسلامي والمسلمين. وفى هذا السياق حرصنا على أن نضع نصوصاً كاملة، أو شبه كاملة، لكى نقف على ملامح الصورة التى كانت لدى الذين كتبوا آنذاك. ومن المهم أن نلاحظ أن هذه النصوص تعبر عن آراء رجال الكنيسة ولا أظنها تعبر عن النفسية الجمعية والتصورات العامة لدى الناس العاديين الذين لانملك من المصادر والأدلة ما يرشدنا إلى موقفهم الحقيقى. وفى الشق الثانى من هذه الدراسة نتناول التطور التاريخى لصورة الآخر فى كل من أوربا والعالم المسلم. فثمة علاقة متعددة الجوانب بين العالم الإسلامى وأوربا تغيرت على مرِّ القرون حسب الظروف وتركت بصمات على صورة «الآخر» لدى كل منهما. ومن ناحية ثالثة، فإن الدراسة تحاول أن تبرز الاختلاف بين مفهوم «التسامح» فى الثقافة الغربية عموماً ، وفى الثقافة العربية الإسلامية قديماً وحديثاً ، موضحة كيف أن اختلاف مفهوم التسامح على هذا النحو قد ترك تأثيراً واضحاً على صورة الآخر فى كل من الثقافتين ، وكيف أنه ما يزال يحكم موقف كل منهما من الآخر فى أيامنا هذه أيضا .

والله الموفق والمستعان

دكتور قاسم عبده قاسم

٦ أكتوبر – مايو ٢٠٠٨م

القسم الأول

المسيحيون والفتوح الإسلامية

بيزنطة وشرق المتوسط

مقدمة

فى البداية كانوا مجموعة من الفرسان بملابسهم البسيطة ، على خيولهم النحيلة ، خرجوا من شبه الجزيرة العربية بأسلحتهم التى كان السيف أهمها ، يحدوهم إيمان قوى ، وتميزهم صلابة نادرة. ولم تكن أعدادهم كبيرة ، ولم تكن جيوشهم جرارة ؛ ولكنهم فى غضون قرن من الزمان كانوا قد هزموا القوتين العظميين فى عالمهم المعاصر، وبات الوجود السياسى لدولة المسلمين من الحقائق الكبرى فى دنيا القرن الثامن الميلادى . وفيما بين النصف الأول من القرن السابع الميلادى ومنتصف القرن الثامن الميلادى كانت حدود «دار الإسلام» تمتد من الصين شرقا حتى جبل طارق ومياه الأطلنطى غربا ، ومن مناطق الاستبس وبحر مرمرة والبحر المتوسط شمالاً حتى شبه القارة الهندية فى آسيا والصحراء الكبرى فى أفريقيا جنوبيًا .

والمدهش أن الجيوش التى أنجزت الفتوح الإسلامية لم تكن تزيد عن عشرة آلاف مقاتل فى غالب الأحيان ، ولم تصل إلى أكثر من عشرين ألفا سوى فى أحيان نادرة. والأكثر إثارة للدهشة أن معظم هذه «الفتوح» تمت «صلحا» ؛ أى بطريقة سلمية فى كثير من الأحيان. وكانن القتال محدوداً ، وحول المدن والقلاع، على الرغم من أن الفتوح الإسلامية ضمت مساحات شاسعة . وفى أماكن عديدة تولت الجيوش التى تكونت من أبناء البلاد المفتوحة مهمة «فتح» بلاد أخرى على نحو ما حدث فى المغرب والأندلس ، وما حدث فى فتوح الشرق وبلاد ما وراء النهر والسند.

ولم يحدث فى تاريخ البشرية أن تم فتح مثل هذه المناطق الشاسعة فى مثل هذه الفترة الوجيزة ، ولم يحدث أن بقيت نتائج أية فتوح على مدى القرون حتى الآن مثلما هو الحال فى نتائج حركة الفتوح الإسلامية. هذه الظاهرة التاريخية الفذة كانت وراء كثير من الأسئلة المندهشة التى طرحها المؤرخون والباحثون فى جميع العصور حول الفتوح الإسلامية.

هذا السؤال الذى يحمل طعم الدهشة طرحه على نفسه راهب نسطورى فى ديره المنعزل فى المنطقة الجبلية بشمال شرق تركيا الحالية، بالقرب من مجرى نهر دجلة سريع الجريان. لقد سأل الراهب يوحنا بارينكايى نفسه، وهو يكتب تاريخًا مختصرًا للعالم بعد خمسة عقود من بدء حركة الفتوح الإسلامية التى قضت فى غضون سنوات قليلة على الامبراطورية الساسانية وانتزعت الشواطئ الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط من الإمبراطورية البيزنطية. سأل وأجاب سأل السؤال المندهش وأجاب الإجابة المريحة : **«لايجوز لنا أن نفكر فى قدوم أبناء هاجر (المسلمين) على أنه أمر عادى، بل إنه نتيجة عمل الرب. فقد كان الرب قد أعدّهم من قبل لتكريم النصارى ... والآن عاد هؤلاء بأمر الرب، واستولوا على كلتى المملكتين (الفارسية والبيزنطية) كما هو واضح، لا بالحرب والقتال، وإنما بأسلوب بسيط، مثل استخراج جمرة من النار، ودون استخدام أسلحة قتال أو أساليب بشرية. لقد وضع الرب النصر فى أيديهم بشكل يدل على أن ما حدث منهم يمكن أن يكون أمرًا مقضيًا ... وإلاّ ، فكيف يمكن لقوم عُراة ، يمتطون خيولهم دونما درع أو ترس ، أن**

ينتصروا بدون العون الإلهى ؟ لقد دعاهم الرب من أطراف العالم لكى يتم تدميره على أيديهم...».

هكذا وجد الراهب النسطورى فى تسعينيات القرن السابع الميلادى الإجابة المريحة على دهشته التى اتخذت شكل السؤال ؛ لقد كان الأمر برمته تدبيراً من الرب. ولكن السؤال الذى طرحه منذ أربعة عشر قرناً ما يزال يُلح فى طلب الإجابة حتى الآن؛ لأسباب تتعلق بالحاضر، وتتصل بالمستقبل . فقد غيرت الفتوح الإسلامية وجه الدنيا ، مرة وإلى الأبد. وما تزال آثار ما جرى فى تلك العقود القليلة من القرن السابع والنصف الأول من القرن الثامن الميلادى توجه حياة ملايين البشر فى عالم اليوم. ولاشك فى أن رؤية مسيحيى ذلك الزمان للإسلام وحركة الفتوح الإسلامية كانت أساس الرؤية المسيحية ، الشرقية والغربية، للمسلمين على مدى القرون التالية. وربما يكون هذا ما يضفى على هذه الدراسة المشروعية العلمية الواجبة.

لقد كان السؤال / الدهشة ، والإجابة المريحة التى تنسب ما حدث إلى الإرادة الربانية، على نحو ما كتب الراهب النسطورى فى القرن السابع الميلادى ، بمثابة القاسم المشترك فى كتابات نصارى الدولة البيزنطية ومنطقة شرق المتوسط فى أعقاب حركة الفتوح الإسلامية. وكانت تلك الإجابة ترضى هؤلاء الكتاب الذين كان معظمهم مستعدين للتعامل مع المسلمين، ويرفضون التفاهم مع أتباع المذاهب المسيحية المخالفة ويرون فيهم سبباً جوهرياً من أسباب غضب الرب الذى سلط عليهم المسلمين عقاباً لهم على هرطقتهم وخطاياهم.

وقد نقل المسيحيون فى غرب أوربا الكثير من ملامح الصورة التى رسمها الكتاب البيزنطيون للإسلام والمسلمين ؛ ولكن الغربيين لأسباب تاريخية عديدة، زادوا من ملامح الصورة البشعة والرؤية الهيستيرية التى رسموها للإسلام والمسلمين. وقد تناولت هذا الموضوع فى دراسة أخرى. وفى العصور الحديثة حاول المؤرخون والباحثون الغربيون أن يتوصلوا إلى الإجابة المريحة علميًا على السؤال الذى أقلق ذلك الراهب النسطورى فى ديره الجبلى المنعزل منذ عدة قرون . بيد أن الكتابات الغربية ، فى معظمها تبدو «**بعيدة**» و«**خارجية**» وهى تتناول أى جانب من جوانب الحضارة الإسلامية، أو التاريخ الإسلامى. ذلك أن هذه الكتابات الغربية تفتقر فى معظم الأحيان إلى الفهم الداخلى للفكر والثقافة الإسلامية، وتفشل فى أحيان كثيرة فى الاعتراف بدور الدوافع غير المادية فى حركة الناس والمجتمعات داخل الإطار الإسلامى العام. ومن ناحية أخرى، فإن الكتاب الغربيين محكومون بتراثهم الفكرى والثقافى، وخبرتهم التاريخية بالمسلمين؛ وهى خبرة مستمدة من علاقات متبادلة بين المسلمين وأوربا الغربية على مدى ما يقرب من أربعة عشر قرنا من الزمان وتراوحت ما بين العداوة الصريحة ، والصراع العسكرى، والتنافس الاقتصادى، والتعاون والتفاعل المتبادل على كافة المستويات. وفضلاً عن ذلك، فإن الباحثين الغربيين ليسوا من المؤمنين بالإسلام بطبيعة الحال ، وهو ما يجعلهم غير قادرين على تصور قوة الدوافع الإيمانية فى سلوك المسلمين التاريخى ويجعل رؤيتهم للأمور وللأحداث التاريخية «**خارجية**» فى أفضل الأحوال . وليس من العدل، على أية حال، أن نطلب من الباحث الغربى أن

يخلع جلده الثقافى، ويتنازل عن تراثه المعرفى وخبرته التاريخية لكى يكتب ما يريحنا أو يرضينا .

وليس معنى هذا أن هذه الكتابات الغربية «منحازة» ، ولكن بعضها يبدو منحازاً ضد الإسلام والمسلمين على الرغم من التميز العلمى والقدرة البحثية لأصحابها . حقًا ، هناك كتابات منحازة بشكل واضح لكنها تخرج من نطاق البحث العلمى إلى مجال الدعاية السياسية والمواقف التى تحمل عداء إيديلوچيا ضد الإسلام والمسلمين .

وعلى الرغم من أن هذه الدراسة تهتم برصد مواقف المؤرخين والكتاب المسيحيين الشرقيين ورؤيتهم للإسلام والمسلمين زمن حركة الفتوح الإسلامية فقد كان من الضرورى أن نشير بسرعة إلى كتابات الباحثين الغربيين فى الموضوع نفسه من حيث الكيفية لا من الناحية الكمية . ومن ناحية أخرى فإننا هنا نحاول طرح وجهة نظر الكُتاب المسيحيين الشرقيين فى إطارها التاريخى الموضوعى. وسوف تكون النصوص التى تحمل ردود أفعال النخبة المسيحية فى العالم البيزنطى وعالم شرق المتوسط غداة الفتوح الإسلامية فى هذه المناطق وسيلتنا لمحاولة فهم الأسس التى شكلت طبيعة العلاقات بين المسلمين والنصارى فى هذا الجزء من العالم. ومن ثم، فإن النصارى من أتباع الكنائس الشرقية المختلفة هم الذين تهتم هذه الدراسة برصد مواقفهم . وهنا ستكون هناك بعض الفروق بين رؤية المسيحيين الذين دخلوا تحت الحكم الإسلامى والمسيحيين الذين بقوا فى الأراضى البيزنطية.

وإذا كان المجال الجغرافى للدراسة يشمل الحوض الشرقى للبحر المتوسط وصولاً إلى الجزيرة وأعالى العراق، إلى جانب أراضى الدولة البيزنطية، فإن المدى الزمنى سيكون محصوراً فيما بين بداية حركة الفتوح الإسلامية فى ثلاثينيات القرن السابع الميلادى ومنتصف القرن الثامن الميلادى .

وعندما ظهر الإسلام لم يكن العالم المسيحى موحداً ، وإنما كان غارقا فى نزاعات مذهبية مزقته بدرجة كبيرة. ويرجع السبب فى ذلك إلى التطورات التاريخية التى جعلت المسيحية ديانة سرية فى بادئ الأمر حتى حظيت بمبدأ حرية العقيدة على يدى قنسطنطين الكبير وشريكه فى حكم الإمبراطورية «ليكينيوس». وبعدها بدأ بحث مشكلة طبيعة السيد المسيح ، والعلاقات داخل الثالوث المقدس؛ وهو ما أدى هذا الإنقسام داخل المسيحية.

(١)

المشهد المسيحى قبيل الفتوح الإسلامية

فعندما ظهرت المسيحية للمرة الأول داخل الامبراطورية الرومانية، لم تعرها السلطات اهتمامًا كبيرًا، وربما تصور البعض أنها مذهب يهودى جديد من المذاهب المنشقة . وقد أثبت البحث التاريخى أن الأساطير اللاحقة وسير القديسين قد بالغت كثيرًا فى أعداد الشهداء المسيحيين؛ إذ كان اضطهاد المسيحيين محدودًا ، ويحدث فى نطاق محلى محدود غالبًا ، وعلى الرغم من أن الدولة الرومانية لم تعترف فى هذا الدور الباكر بالمسيحية ديانة مشروعة ؛ فإنها كانت متسامحة - بشكل عام - إزاء المسيحيين ولم تكن تتدخل فى شئونهم كثيرا . وفى هذا الدور كان رؤساء الجماعات المسيحية فى كل مكان يحاولون الحفاظ على كيان جماعاتهم ، ولم يكن الجدل حول طبيعة السيد المسيح، أو الثالوث المقدس ، قد خرج إلى العلن.

ثم تغير موقف السلطات الإمبراطورية من المسيحيين بشكل جذرى فى عهد الإمبراطور الرومانى دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٦م) الذى حاول ترميم بناء الامبراطورية المتداعى وإقامة نظام سياسى جديد، ولكنه اصطدم بالكنيسة التى رفض أتباعها مبدأ عبادة الامبراطور، ونجح الوثنيون فى بلاطه فى حمله على شن حملة اضطهادات قاسية ضد المسيحيين . وعلى مدى عشر

سنوات بذلت الحكومة الرومانية جهوداً منظمة للقضاء على المسيحية، وكان مسيحيو مصر والشام من أكثر رعايا الامبراطورية معاناة من هذه الاضطهادات . ثم اعتزل دقلديانوس عرش الإمبراطورية سنة ٣٠٦م وعلى عروشها عدد من الرجال يدعي كل منهم أنه صاحب الحق في العرش الإمبراطوري. وفي خضم الحروب الأهلية التي نجمت عن ذلك أعلن الإمبراطور قنسطنطين الكبير (إمبراطور الغرب) وشريكه ليكينيوس (امبراطور الشرق) مبدأ حرية العقيدة، وصارت المسيحية ديانة مرخصة بمقتضى ذلك الخطاب الذي أرسلاه إلى حاكم الشرق، والذي يعرف عادة باسم «مرسوم ميلانو» عام ٣١٣م . وفي سنة ٣٢٤م هزم قنسطنطين حليف الأمس ليكينيوس لينفرد بحكم الإمبراطورية.

وحين خرجت الجماعات المسيحية إلى العلن بدأ النقاش حول طبيعة الإله الذي تجسد بشراً حسب اعتقادهم، وكانت للمواريث الثقافية المختلفة للمسيحيين في الشرق والغرب تأثيراتها على صياغة المذاهب المسيحية المختلفة منذ البداية. ومنذ البداية أيضا، تلقت المسيحية مساعدات قيمة من الإمبراطور قنسطنطين الكبير. وقد تولى بنفسه رئاسة أول المجامع الكنسية، وهو مجمع نيقية الذي عقد سنة ٣٢٥م لمناقشة طبيعة المسيح والعلاقة بين أقانيم الثالوث المقدس . ومناقشة المشكلة الآريوسية . وقد كان هذا المجمع بداية الإنشقاقات التي قسمت العالم المسيحي إلى طوائف مذهبية متعددة ، كما كان بداية الإنشقاق الديني بين الشرق والغرب. فقد انقسم العالم المسيحي آنذاك ما بين الآريوسية والاثناسيوسية ، وأدان المجمع المذهب الآريوسي (الذي قال إن الإله الابن مخلوق بواسطة الإله

الأب ولذلك فإنه دونه فى المشيئة والقدرة) واعتبره نوعًا من الإيمان بتعدد الآلهة . ثم حدثت تطورات سياسية ولاهوتية كثيرة فى الشرق والغرب، كان أبرزها أن الإمبراطور البيزنطى ثيودسيوس الكبير اعتبر أن المسيحية الدين الرسمى للدولة. وعندما عُقد مجمع خلقدونية الكنسى سنة ٤٥١م أدت نتائجه إلى انفصال المزيد من الكنائس المسيحية؛ فقد تبنى هذا المجمع رؤية البابا الكاثوليكى ليو الثالث (٤٤٠-٤٦١م) للثالوث المقدس مما أثار غضب الكنيسة المصرية وكنائس الشام التى اعتنقت مذهب الطبيعة الواحدة (الإلهية) للسيد المسيح.

وقد أدى هذا الانشقاق المذهبى بين كنائس مصر والشام من جهة، وكنيسة الدولة البيزنطية من جهة ثانية ، إلى اضطهادات دموية ،واسعة النطاق عانى منها أتباع مذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزيتى) على المستوى الاجتماعى والسياسى والدينى. وعندما اعتلى الامبراطور جستنيان الأول عرش الإمبراطورية البيزنطية (٥٢٧-٥٦٥م) كانت جمهرة السكان فى مصر والشام يدينون بالمذهب المونوفيزيتى. وكان جستنيان عالمًا باللاهوت إلى جانب كونه امبراطورًا ، ولكن طموحاته الاستردادية التى كانت تهدف إلى إعادة ضم المناطق التى احتلها الجرمان إلى الكيان الامبراطورى وإعادة إحياء الامبراطورية الرومانية القديمة ، جعلته فى وضع حرج للغاية . فقد كان لابد له من استرداد إيطاليا من الأوستروقوط لأن الإمبراطورية الرومانية بدون روما ستكون بلامعنى ، ولأن روما موجودة فى إيطاليا ، ولأن البابا موجود فى روما، ولأن البابا كاثوليكى . وكان لابد من استرضاء البابا حتى لايفشل مشروع الإمبراطور الاستردادى .

وكانت النتيجة أن شن الامبراطور جستنيان حملة اضطهادات قاسية ضد أتباع مذهب الطبيعة الواحدة استمرت طوال حكمه وحكم خلفائه . ولم يكن رجال الكنيسة البيزنطية راضين عن سياسة التقارب التى اتبعها الامبراطور مع روما . وعلى الرغم من أن مشروع جستنيان الاستردادى كلف الامبراطورية ثمنًا غاليًا على المستوى السياسى والاقتصادى؛ فضلاً عن نفقاته العسكرية، فقد كانت نتيجته إخفاقًا تامًا على الصعيد الخارجي وعلى الصعيد الداخلى أيضا. بيد أن ما يهمنا هنا أن السخط ساد فى أنحاء مصر وشرق المتوسط عامة؛ وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن زاد نفور سكان هذه المناطق من السلطة والكنيسة البيزنطية على حد سواء، وباتوا يرون فى الإمبراطورية البيزنطية وحشا لايستحق الإنقاذ .

وفى الوقت نفسه كان فشل مشروع جستنيان الاستردادى قد جعل الغرب يتخلى تمامًا عن فكرة التبعية للإمبراطور القابع بعيدا فى مقره الحصين فى القسطنطينية، وكان عليه أن يبحث عن زعاماته من بين أبنائه . ولم يكن هناك من هو مؤهل لهذه الزعامة سوى الكنيسة الكاثوليكية . فبعد سقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب سنة ٤٧٦م وفشل مشروع جستنيان الاستردادى فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى، انتقلت زعامة الغرب الأوربى من الدولة الرومانية إلى البابوية فى روما على أساس ما عُرف فى تلك الفترة باسم «المذهب البطرسى» الذى يزعم أن المسيح جعل القديس بطرس نائبه على الأرض؛ ومن ثم فإن كل من يجلس على عرش القديس بطرس فى روما من بعده يكون بدوره نائبًا للرب على الأرض . أى أن بابا روما صاحب سلطة الحل والعقد على الأرض بوصفه نائب الرب.

وبطبيعة الحال، لم يلق هذا الرأى قبولاً من الكنائس الأخرى. وعندما بدأت حركة الفتوح الإسلامية فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى، كانت هناك خمس كنائس ، أو خمس طوائف مسيحية، تزعم كل منها أنها الطائفة «القويمة» : ففى شمال أفريقيا، الموطن الأصلى لأوغسطين المعلم الأول للكنيسة الكاثوليكية، كانت الكنيسة تابعة لكرسى روما. وفى القسطنطينية نفسها كانت الكنيسة الملكانية (الروم الأرثوذكس) تحاول فرض نفوذها على الكنائس الأخرى فى أراضى الامبراطورية البيزنطية، وهى الكنائس التى تدين بمذهب الطبيعة الواحدة فى مصر والشام، أما الكنيسة النسطورية التى كان مؤسسها وأتباعها قد طردوا من الأراضى البيزنطية، فقد كان أتباعها فى العراق ومنهم الراهب يوحنا باربنكايى الذى تحدثنا عنه من قبل . وكان السريان الأرثوذكس من أهم الطوائف المسيحية التى تعاملت مع المسلمين، بعد الفتوح ، بشكل مباشر . وقد حاول الإمبراطور هرقل الأول ، الذى كان عليه عبء مواجهة الجيوش الإسلامية، أن يفرض على الكنائس فى إمبراطوريته صيغة توفيقية (المونوليثية)، ولجأ إلى استخدام القوة لفرض هذه الصيغة . وكانت النتيجة، بطبيعة الحال ، أن دخل أتباع الكنائس الأخرى فى صراع مذهبى عنيف دموى ضد السلطة الإمبراطورية ومذهبها .

كانت هذه ، بشكل عام ، ملامح صورة العالم المسيحى عشية حركة الفتوح الإسلامية . فقد كان هناك ميراث ضخم من المرارة والشك المتبادل بين أتباع الكنائس المسيحية. وكانت الطوائف التى تتبع مذهب كنيسة الدولة تحظى بمساندتها بطبيعة الحال، وعلى الجانب الآخر كانت الكنائس

المخالفة تلقى الاضطهادات الدموية العنيفة، وتعانى من مصادرة أملاكها ، وقتل أتباعها (مثلما حدث لشقيق بنيامين بطريرك الأقباط فى مصر).

ومن الطبيعى أن تكون رؤية المؤرخين المسيحيين الذين كتبوا عن الإسلام والمسلمين زمن الفتوح الإسلامية ملونة بألوان صورة العالم المسيحى آنذاك. لاسيما فى الجزء الشرقى من هذا العالم. ومن المهم أن نلاحظ أيضا أنهم جميعًا كانوا من رجال الكنيسة. صحيح أن كتاباتهم كانت سلبية بتأثير خسارتهم التى تمثلت فى تحول أتباعهم إلى الدين الإسلامى بشكل متزايد خلال القرنين التاليين لظهور الإسلام: بيد أننا ينبغى أن نضع فى اعتبارنا أمرين غاية فى الأهمية: أولهما ، أن غالبية هؤلاء الكتاب الذين كانوا من رجال الكنيسة المسيحية كما أسلفنا وكانوا يخاطبون أقرانهم من رجال الكنيسة، كتبوا فى مصطلحات مسيحية لاتاريخية . وقد كانت الإنحيازات الدينية العاطفية سمة غالبة على كتاباتهم . كما أنهم فشلوا فى التعرف على حقيقة الإسلام والفكر الإسلامى، أو عزفوا عن معرفته ، وكان قصدهم تشويه صورته أمام أتباعهم وحجب الحقيقة عنهم . وثانيهما، أن معرفة هؤلاء الكتاب بالحقائق الواقعية فى عالم المسلمين الداخلى كانت محدودة وضئيلة من ناحية ، كما أن خطابهم كان دينيًا ولم يكن رصداً لحقائق تاريخية فى كثير من الأحيان.

ومع هذه التحفظات تبقى النصوص التى كتبها أولئك الكُتاب المسيحيون عن الإسلام والمسلمين تحمل أصداء الحقيقة ، وبعض ملامح الصورة التاريخية. وربما يساعدنا تحليل النصوص ومحاولة فهمها على فهم النفسية العامة للنخبة المسيحية، على الأقل، إبان الفترة التى جرت

فيها وقائع الاحتكاكات والاتصالات الأولى بين المسلمين والمسيحيين فى هذه المنطقة. ذلك أن انتصارات المسلمين السريعة المذهلة على الجبهة الساسانية وعلى الجبهة البيزنطية فى أن معًا ، والتى أدت إلى الاختفاء التاريخى لامبراطورية الساسانيين وانتزاع معظم ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية فى حوض المتوسط، وتشتيت جيوش بيزنطة ، أثارت فى عقول بعض المعاصرين تساؤلات مهمة حول مصير الإمبراطورية، والعون الربانى بل وصحة العقيدة المسيحية نفسها . ومن المناسب أن نقسم هذه النصوص تقسيما يتماشى مع وجود كاتبيها المكانى ؛ سواء فى المناطق التى كانت ما تزال خاضعة للبيزنطيين ، أو فى المناطق التى فتحها المسلمون، مع مراعاة أن نجمع ما كتبه أبناء كل طائفة مسيحية على حدة.

لقد كانت النصوص البيزنطية، أو التى كتبها المؤرخون ورجال الكنيسة البيزنطية، تختلف فى نغمتها عن تلك النصوص التى كتبها الأرثوذكس من السُريان، أو الأقباط ، وعن النصوص التى كتبها الأرمن . ولكن تلك النصوص القليلة التى حفظها الزمن منذ ثلاثينيات القرن السابع الميلادى، تكاد تتفق جميعًا على تفسير الهزائم التى حلت بالبيزنطيين أمام جيوش المسلمين على أنها عقاب من الرب بسبب خطايا أتباع المذاهب المسيحية الأخرى. بل إن عدداً كبيراً من هذه الكتابات تلقى باللوم على هرقل وسياساته الكنسية والعسكرية فى هذه الهزائم ، ولاترى فى المسلمين سوى أداة الرب فى إنزال هذا العقاب بالمسيحيين.

(٢)

البيزنطيـــون

وأقدم الكتابات البيزنطية التى وصلتنا من ثلاثينيات القرن السابع الميلادى هى تلك العظة الكنسية التى كتبها «صفرونيوس» أسقف بيت المقدس. وكان هذا الراهب من أهل دمشق حيث تعلم فى صباه الفلسفة اليونانية والبلاغة ، ثم سافر إلى الاسكندرية من سنة ٥٧٨م حتى سنة ٥٨٣م، حيث واصل دراسته فى ظل التوهج الأخير للتعليم الكلاسيكى. وبعد أن أتم دراسته عاد إلى فلسطين حيث صار راهبًا فى دير سان ثيودوسيوس بالقرب من القدس . وبعد الغزو الفارسى لفلسطين هرب «صفرونيوس» إلى روما سنة ٦١٥م، كما أمضى بعض الوقت فى شمال أفريقيا ليعود إلى القدس بعد أن استعادها الإمبراطور هرقل من الفرس، ثم تمت رسامته بطريرك على مدينة بيت المقدس منذ سنة ٦٣٣م.

وبهذه الصفة واجه «صفرونيوس» المسلمين، وتفاوض مع عمر بن الخطاب على تسليم المدينة، وشهد بنفسه من سلوك الخليفة والمسلمين ما يتناقض مع كلماته المذعورة التى كتبها فى موعظة عيد الميلاد سنة ٦٣٤م، ولكنه كان ما يزال على ثقة من أن الإمبراطور هرقل سوف يقدم لنجدة البلاد، ويتمكن من «.. **كسر غرور البرابرة جميعًا ، وخاصة السراكنة (المسلمين) الذين ظهروا الآن ضدنا على غير انتظار نتيجة خطايانا،**

فخربوا كل شئ بخطة قاسية وحشية، وفى وقاحة لاتعرف دينًا ، ولارب لهـا...» ففى عيد الميلاد لم يتمكن رجال الكنيسة فى القدس من السير. بموكبهم الدينى إلى بيت لحم حسبما جرت العادة خوفًا من المسلمين، كما يقول صفرونيوس : «... ومثلما حدث ذات مرة من قبل جيش من الفلسطينيين ، استولى جيش السراكنة الذين لايعرفون الرب على مدينة بيت لحم المقدسة، ومنعوا مرورنا إلى هناك، وهددونا بالذبح والدمار إذا ما غادرنا هذه المدينة المقدسة....» ومع هذا كله كان صفرونيوس ما يزال على تفاؤله على الرغم من أن المسلمين منعوهم من الاقتراب من بيت لحم «... فإذا تبنا ، وكفرنا عن خطايانا، فإننا سوف نضحك على زوال أعدائنا المسلمين، وفى فترة زمنية وجيزة سنشهد دمارهم وهلاكهم التام. لأن سيوفهم الدموية سوف تنغرس فى قلوبهم ، كما أن قسيّهم سوف تتكسر ، أما سهامهم فستبقى ملتصقة بهم، وسوف يفتحون الطريق أمامنا إلى بيت لحم ...».

ولكن تفاؤل صفرونيوس تخلى عن مكانه لذعر حقيقى عندما كتب موعظته سنة ٦٣٧م مشيراً إلى أن الهزائم البيزنطية كانت نتيجة غضب الرب بسبب خطايا البيزنطيين وإهمالهم : «لماذا يتم شن الحروب علينا ؟ لماذا تتضاعف حملات البرابرة ؟ لماذا تقوم جماعات العرب ضدنا ؟ لماذا يتزايد الخراب واللصوصية ؟ لماذا تسيل الدماء دونما انقطاع ؟ لماذا تلتهم جوارح السماء أجساد البشر؟ لماذا يتعرض الصليب للسخرية ؟ لماذا يهين البرابرة المسيح نفسه ، وهو الواهب لكل الأمور الحسنة ، ومانح النور لنا؟» ومثل يوحنا باربنكايى، وجد صفرونيوس لنفسه الإجابة المريحة على

أسئلته الحيرى المذعورة : «... **ما كان لهؤلاء المدنسين أن يحققوا ذلك، أو يقووا على فعل مثل هذه الأمور، أو التفوه بها، لولا أننا نحن بأنفسنا دنسنا المقدسات ، وأسأنا بذلك إلى المسيح الذى وهبنا النعم فجلبنا على أنفسنا هذه النقمة...**». ومرة أخرى كان رأى صفرونيوس مثل رأى الراهب النسطورى أن المسلمين (السراكنة) كانوا أداة الرب لعقاب النصارى جزاء خطاياهم وآثامهم «... **فقد دمروا كل شئ فى عنف واندفاع حيوانى ، بجرأة شريرة آثمة...**».

وكان هناك رجل كنيسة آخر معاصراً لصفرونيوس ، وهو صديقه مكسيموس المعترف الذى كان قد قابله فى شمال أفريقيا أثناء فترة هروبه من الغزو الفارسى لفلسطين، سنة ٦١٥م. وكانت العبارات التى وصف بها مكسيموس هذا إنتصارات المسلمين على جيوش الإمبراطورية البيزنطية عبارات مذعورة من قبيل وصفه لما حدث بأنه أمر «خطير» و«رهيب» «ومخيف» ، «ويبعث على الرثاء».

ومما يلفت النظر أن ما كتبه هذان الراهبان كان تعبيراً عن الذعر الذى انتاب كلاً منهما وهو يشهد العالم الذى ينتمى إليه يتلاشى فى غياهب المجهول على حين يتشكل عالم جديد لايعرف أى منهما شيئًا عنه . كما أن ما كتباه لم يحمل أية صورة «تاريخية» لما حدث وإنما كان رثاء «دينيا» وعاطفيًا للعالم الذى عاشا فى رحابه . لقد كان ذلك العالم المسيحى فى حوض البحر المتوسط بمذهبه الأرثوذكسى، ولغته اليونانية الطنانة، ينكسر وتتبعثر أشلاؤه تحت وطأة الفتوح الإسلامية؛ فلم يلبث صفرونيوس أن

سلم مدينة القدس بنفسه إلى الخليفة عمر بن الخطاب . ولم يكن أمامه بديل سوى التفاوض مع المسلمين، وأصر على تسليم المدينة إلى الخليفة نفسه.

ومن المهم أن نشير إلى أن فتح مدينة القدس كانت له قيمة رمزية ودينية، ولم تكن له قيمة عسكرية كبيرة؛ فضلاً عن أنه كان «**فتحا سلميًا**» ؛ فلم يكن ثمة قتال ولكن القدس فُتحت صلحًا . والقدس ذات أهمية فائقة بالنسبة للمسيحيين لارتباطها بقصة المسيح على الأرض، كما أنها ذات أهمية عظمى بالنسبة للمسلمين باعتبارها أولى القبلتين وثالث الحرمين من ناحية ، ولارتباطها بقصة الإسراء الإعجازية التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم من ناحية أخرى. كما أن قبة الصخرة التى ترتبط بقصة الإسراء والمعراج تعتبر ثالث الأماكن المقدسة بعد مكة المكرمة والمدينة المنورة فى الحجاز.

وتحكى المصادر التاريخية العربية أنه بعد أن تم الاتفاق على تسليم القدس «صلُحًا» أعطى الخليفة عمر بن الخطاب الأمان لأهل القدس، وفى هذا العهد الذى نسب للخليفة العظيم تم وضع أسس التعامل بين المسلمين والنصارى فيما يعرف باسم «العهد العمرى». وقد أورد الطبرى نص ذلك العهد على النحو التالى:

«بسم الله الرحمن الرحيم»

هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان؛ أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها وسائر

ملتها، أنه لاتُسكن كنائسهم ولاتُهدم ، ولاينتقص منها ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ، ولاشئ من أموالهم، ولايُكرهون على دينهم، ولايُضار أحد منهم، ولايسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منهم الروم واللصوت (اللصوص) فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم؛ ومن أقام منهم فهو آمن ، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصُلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصُلبهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية . ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لايؤخذ منهم شئ حتى يُحصد حصادهم، وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية . شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان وكتب وحضر سنة خمس عشرة».

وليست هناك وسيلة ، أو مصدر تاريخى ، حتى الآن يمكننا من معرفة ما إذا كان هذا هو النص الحقيقى لعهد عمر أم لا. ولكن الثابت على أية حال ، وبغض النظر عن النصوص، أن الخليفة قد أعطى عهداً بالأمان لسكان القدس من النصارى، وقد تكررت عهود الأمان التى أعطاها الفاتحون المسلمون لأهل البلاد التى فتحت صُلحًا. ولكن هذا العهد

يكتسى أهمية خاصة لأنه كان قائمًا على سلطة الخليفة العظيم عمر بن الخطاب؛ وهى سلطة لايمكن لأحد أن يشكك فيها بطبيعة الحال. وقد ظلت هذه الوثيقة ، بصياغاتها المختلفة التى اصطلح المؤرخون والفقهاء على تسميتها «الشروط العُمرية» فيما بعد ، تحكم العلاقات بين المسلمين والمسيحيين بشكل أو بآخر طوال القرون التالية.

وعلى أية حال، كان سلوك صفرونيوس بطريرك بيت المقدس تجاه الخليفة عمر بن الخطاب والمسلمين وديًا بطريقة تثير الدهشة من أفكاره التى عبرت عنها عظاته العدائية ونظرته السوداوية تجاه المسلمين؛ فقد كتب أنهم قوم بلا رب ، وتعامى عن حقيقة أنهم أصحاب دين جديد ومع ذلك تعامل معهم بمودة ربما كانت نوعًا من النفاق والمداهنة تحت وطأة الظروف العسكرية والسياسية غير المواتية.

ويبدو أن المؤرخ والراهب البيزنطى ثيوفانيس Theophanes ، الذى كتب فى مطلع القرن التاسع الميلادى/ الثالث الهجرى، كان يعرف شيئًا عن أحوال الإسلام والمسلمين . وبغض النظر عن إنكاره

لنبوة النبى محمد عليه الصلاة والسلام، وافتراءاته التى كساها ثوب التاريخ، فإنه كان يعرف الخطوط العريضة لسيرة النبى؛ فقد كتب فى مؤرخته عن سنة ٦٢٩م – ٦٣٠م : **«... فى هذه السنة مات محمد ، زعيم السراكنة، ونبيّهم المزيف، بعد أن حل محله فى الرئاسة أبوبكر. وفى بداية ظهوره ظن اليهود الضالون أنه هو المسيح الذى ينتظرونه ، لدرجة أن بعض قادتهم انضموا إليه، وقبلوا ديانته وتخلوا عن ديانة موسى الذى**

رأى الرب . وكـان الذين فـعلوا هذا عـشـرة عـدداً، وقـد بقـوا مـعـه حـتى اغتيـاله، ولكنه عندمـا رأوه يأكل لحم الجمل أدركـوا أنه ليس من حسـبوه مخلّصهم... وقد علمه أولئك الرجال الأشرار أموراً محظورة مـوجهة ضدنا نحن المسيحيين ، وظلوا معه...»

ومن الواضح تمامـا أن ثيوفانيس كان يعرف قدراً كبيراً من حـقيقة الدين الإسـلامى وسـيـرة النبى عليـه الصـلاة والسـلام، وأحـداث التـاريخ الإسـلامى ، ولكنه كـان أيضـا يستـثير عـداوة من يكتب لهم ضـد الإسـلام والمسلمين بما يطرحـه من أكاذيب وتهـم باطلة. وليس من المتصـور أن يكون هذا الراهب المتعلم جـاهلاً بحـقـيـقـة أن النبى جـاء بدين جـديد، وأن هذا الدين لم يكن سـوى ضـلالة خدعت اليهود. ولكن الراجح أن ثيوفانيس كان يتجـاهل مـا بات مـعـروفـا بالضـرورة فى زمـانه عن حـقـائق الإسلام بعد أن زادت أعداد المسلمين بحيث صـاروا أغلبية سكان شـرق المتوسط . بل إنه يقـحم اليـهـود فى الصـورة التى يرسـمـهـا بقلمـه لكى يزيد من حدة العداء للإسـلام؛ ويواصل الراهب البيزنطى كلامه:

« ... وأرى من الضـرورى أن أقـدم تقـريراً عن أصل هذا الرجل؛ فـقـد كان ينتمى إلى قبيلة كبيرة واسعة الانتشار، هى قبيلة اسمـاعيل من نسل إبراهيم، لأن نزار من نسل اسمـاعيل هو الأب الذى يعتـرفـون به أبًا لهم جـمـيعًـا ، وقـد أنجب ولدين همـا مُضـر وربيـعـة، ومن أبناء مُـضـر قـريش (كـوراسـوس) ... وسكنـوا صـحـراء مـدين حـيث كـانوا يرعـون أغنامـهم ويعيشـون فى الخيـام ... ولأن محمداً كان معدمًا ويتيمًا ، قـرر الالتحـاق بخدمـة إمـرأة ثرية اسمهـا خديجـة ليتـولى تجارتهـا فى مصـر وفلسطين

بقوافل الجمال ، ثم اتخذها زوجة واستولى على أملاكها . وكان كلما جاء إلى فلسطين يجتمع بالنصارى واليهود ويسألهم عن مسائل روحية معينة. وكان مصابًا بالصرع ، وحزنت زوجته ، واستمر يخدعها بقوله إنه يرى ملاكًا إسمه جبريل ، ويقول لها إنني لا أتحمل رؤيته فيغمى على. وكان لها صديق محروم من الكنيسة بسبب عقيدته الخاطئة ، فحكت له كل شيء وأراد أن يرضيها فقال لها إنه يقول الحق. وعندما سمعت ما قاله الراهب الزائف كانت أول من آمن بمحمد وأخبرت بقية نساء القبيلة إنه نبي. وهكذا انتشر الخبر من النساء إلى الرجال وأولهم أبوبكر الذى تركه خليفة له . وقد سادت هذه الهرطقة في إقليم إثرييوس بالحرب في نهاية المطاف: في البداية سرًا على مدى عشر سنوات، ثم بالحرب على مدى عشر سنوات أخرى، وعلنا على امتداد تسع سنوات . وقد علّم رعاياه أن من يقتل عدوًا ، أو يقتله عدو ، يذهب إلى الفردوس ؛ وقال إن هذا الفردوس يهنأ فيه المرء بالطعام والشراب ومضاجعة النساء، وبه نهر من الخمر ، ونهر من العسل، ونهر من اللبن، كما أن النساء فيه لسن مثل النساء في هذه الدنيا ولكنهن مختلفات والجماع يستمر فترة طويلة ، وذكر أمورًا أخرى كثيرة مليئة بالخلاعة والبلاهة ؛ كما قال إنه ينبغي على الرجال أيضا أن يتعاطفوا ويتراحموا فيما بينهم ، وعليهم مساعدة الذين اخطأوا».

هكذا عبر ثيوفانيس الراهب البيزنطى عن التصورات التى حكمت رجال الكنيسة البيزنطية ، كما كشف عن انحيازاتهم بعد مرور أكثر من

قرن ونصف قرن على ظهور الإسلام. فقد كان ذلك الراهب الذى عاش معضم حياته فى النصف الثانى من القرن الثامن الميلادى (مات سنة ٨١٨م) يحاول إبعاد رعايا كنيسته عن معرفة الإسلام بما كتبه عن النبى وعن الإسلام . وعلى الرغم من أن ما كتبه يشى بمعرفته الجيدة بالإسلام وبسيرة النبى، فإنه لم يتورع عن التشويه العمدى. ولكن هذا الراهب، من ناحية أخرى، يختلف بشكل واضح عن صفرونيوس أسقف بيت المقدس وصديقه مكسيموس المعترف اللذين عاشا فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى ، وحاصرا ظهور الإسلام وحركة الفتوح الإسلامية الباكرة؛ فقد كان هذان الإثنان ينعيان عالمهما الذى عاشا فى رحابه ، وكان يتلاشى أمام ناظريهما. ولكن ثيوقانس كان يعيش فى عالم مختلف كان الوجود الإسلامى أحد معالمه الأساسية على المستوى السياسى والعسكرى والاجتماعى. وكان المسلمون آنذاك (تحت حكم الدولة العباسية) جاراً قوياً غنياً ومهاباً بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية التى كان ذلك الراهب من رعاياها ؛ ومن جاءت كتابات ثيوفانيس عن الإسلام والمسلمين، على الرغم من لهجتها العدائية ، أقرب ما تكون إلى لغة الاعتراف بالأمر الواقع والتعايش معه . والدليل على هذا يتجسد فى حقيقة أن ثيوفانيس يبدأ ذكر حوادث كل سنة من سنوات مؤرخته ، بذكر إسم الإمبراطور القائم على عرش الإمبراطورية البيزنطية، ثم إسم الخليفة المسلم (زعيم العرب) يليه اسم أسقف القسطنطينية الموجود.

ومن الواضح أن ثيوفانيس اعتمد فى كتابة تاريخ الفترة السابقة على عصره على مصادر عربية أو سريانية تمت ترجمتها إلى اللغة اليونانية ،

وربما يكون قد اعتمد أيضا على التراث الشفوى المتداول عن الفترة الباكرة فى تاريخ المسلمين وحركة الفتوح الإسلامية ؛ وهو أمر يمكن أن نفهمه بشكل مريح إذا ما وضعنا فى اعتبارنا كيفية تأليف كتاب الطبرى المهم، وكتاب عبد الرحمن بن عبد الحكم عن فتوح مصر والمغرب، وغيرهما . وعلى أية حال ، كان ثيوفانيس يعكس موقف رجال الكنيسة البيزنطية الذين ساءهم انتشار الدين الإسلامى على حساب كنائسهم من ناحية، ولم يتقبلوا فكرة انهيار سلطة كنيستهم على الكنائس التى دخلت فى رحاب الدولة الإسلامية من ناحية ثانية ، فضلاً عن الإحباط الذى نالهم من جراء تقلص مساحة دولتهم من ناحية ثالثة. بيد أن كتاباته بشكل عام معتدلة نسبيًا ، ولم تكن تحمل ذلك الطابع الهيستيرى الذى نجده فى كتابات الأوربيين الغربيين عن الإسلام والمسلمين .

وتكشف كتاباته عن معرفة جيدة وإطلاع واسع على أخبار الدولة العربية الإسلامية ؛ فهو يتحدث عن خالد بن الوليد، مثلا ، بقوله : «**... كان منهم أمير اسمه خالد يسمى سيف الله...**» فى إشارة إلى اللقب الذى أطلقه الرسول عليه الصلاة والسلام على ذلك القائد الفذ. وتبدو فى رواية ثيوفانيس أصداء رواية أوردها الطبرى عن حوار جرى بين خالد بن الوليد والقائد الأرمنى المدعو «جرجة» (جوريا) قبيل معركة اليرموك مباشرة «**... قال إن الله عزّ وجلّ بعث فينا نبيه، صلى الله عليه وسلم ، فدعانا فنفرنا عنه... ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به، فتابعناه ، فقال أنت سيف من سيوف الله سلّ على المشركين ودعا لى بالنصر ؛ فسُميت سيف الله بذاك ، فأنا من أشد المسلمين على المشركين...**».

وهو يتابع أخبار المسلمين بشكل مستمر ومتواصل منذ خلافة أبى بكر الصديق الذى يسميه «أبوبخاروس» وعمر بن الخطاب الذى يسميه «أوماروس» . ويحدثنا عن تسليم بيت المقدس ولكنه يحكى أن الخليفة دخل المدينة المقدسة بثياب بسيطة من وبر الجمال ، وعندما عرض عليه صفرونيوس ثيابًا فاخرة أبى أن يلبسها ، ثم قبل أن يأخذ من صفرونيوس ثيابًا يضعها ريثما يغسل ثوبه ، وأعادها إليه ثانية بعدما ارتدى ثوبه الأصلى. ومن ناحية أخرى ربط ثيوفانيس، بأسلوب النبوءة، بين الفتوح الإسلامية وظهور علامة فى السماء على شكل سيف زعم أنها كانت تتحرك من الجنوب صوب الشمال. وربما يكون مناسبًا فى هذه النقطة أن نورد نصًا لثيوفانيس كتبه عن حوادث سنة ٨٠٦م عن الحملة التى شنها الخليفة العباسى هارون الرشيد ضد الإمبراطورية البيزنطية ردًا على خطاب مهين تلقاه من الامبراطور نقفوروس . وهذه الفقرة التى كتبها ثيوفانيس تكشف عن أنه كان يكتب بلغة التعايش مع الأمر الواقع ورصد أحداثه التاريخية ، فالنص يخلو من الأوصاف العدائية المعتادة فى كتابات المؤرخين البيزنطيين آنذاك:

«... فى هذه السنة نفسها قام آرون (هارون الرشيد) ، زعيم العرب ، بغزو البلاد الرومانية بقوات كبيرة ... وبنى بيتا لعبادته المنحرفة (مسجدًا)، واستولى على قلعة هرقليا الحصينة جدا بعد فترة من الحصار... وأرسل نقفوروس الذى تملكه الذعر أحد رجال الكنيسة إلى هارون الرشيد ... يطلب الصلح... وبعد مفاوضات كثيرة تم عقد الصلح

بشرط دفع جزية سنوية قدرها ثلاثين ألف نوميسماتا للعرب ، وضريبة رأس قدرها ثلاث نوميسمات عن كل من الإمبراطور وابنه ... ولما قُبلت هذه الشروط فرح هارون على نحو أكبر مما كان يمكن أن يحدث لو أخذ عشرة آلاف تالنت ، لأنه أخضع الإمبراطورية الرومانية...».

هنا تحدث ثيوفانيس بوصفه مؤرخًا يرتدى مسوح الرهبان ولكنه يسجل الحوادث التاريخية التى كان شاهد عيان عليها. ولكن المصادر البيزنطية التى تتحدث عن الفترة الباكرة من تاريخ العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والقوة الإسلامية البازغة ، ولاسيما فى عهد الإمبراطور هرقل (٦١٠-٦٤١م) قليلة، وأكثرها كتبت فى وقت لاحق وتلونت بلون العصر الذى كتبت فيه مثل ثيوفانيس وزانوراس الذى كتب فى القرن التاسع أيضا . وقد خلط زانوراس خلطًا كبيرًا فى رواية الأحداث التاريخية، كما أن العداء كان واضحًا فيما كتبه عن الإسلام والمسلمين. وقد زعم أن النبى عليه الصلاة والسلام قد تفاوض مع الإمبراطور هرقل لعقدة معاهدة تضمن حرية التجارة والترحال فيما بين شبه الجزيرة العربية والأراضى البيزنطية.

لقد اتسمت الكتابات البيزنطية بشكل عام ، فى تناولها للإسلام وأحداث الفتوح الإسلامية بالعاطفية والانحياز ، كما أنه لايمكن الاعتماد عليها فى المعرفة الموضوعية لما حدث تاريخيا . صحيح أنها تزودنا ببعض المعلومات عن الانطباعات لدى أبناء النخبة البيزنطية عن الإسلام، ولكنها لاتوفر لنا أى قدر من المعرفة بموقف عامة الناس من جماهير المدن أو

عامة الفلاحين ، أو حتى عامة جنود الجيوش البيزنطية ورأيهم فيما كان يجرى أمامهم. ومن المؤلم أننا لانملك وسيلة أخرى غير الاستنباط والقياس لمعرفة ما يتعلق بمواقف الناس العاديين واتجاهاتهم . فقد كانوا، كما هو الحال دائماً، الأغلبية الصامتة التى لم يهتم المؤرخون الكنسيون، أو غيرهم ، بتسجيل مواقفها . وعلى العموم، كانت الكتابات البيزنطية تحمل رنة العداء والجهل التى ميزت مواقف رجال الكنيسة الذين كتبوها . بيد أن العالم الحقيقى، الذى لم يكتب عنه الرهبان والقساوسة، كان عالماً مختلفاً تحكمه الحقائق التاريخية على أرض الواقع لا التصورات والانحيازات التى حكمت رجال الكنيسة سواء فى العظات التى ألقوها على مسامع رعاياهم ، أو فى المراثى الشعرية التى كتبوها عن مدنهم وعالمهم الذى اختفى من الوجود. ويمكن لنا أن نتأكد من إيجابية هذا الاستنباط إذا ما فكرنا فى أن الأسلمة والتعريب قد حققا نجاحاً سريعًا ومذهلاً ، وباقيًا ، فى غضون قرنين أو ثلاثة قرون. ولم تذكر المصادر التاريخية ، والمسيحية منها خاصة ، أن المسلمين قد ضغطوا على أبناء البلاد التى فتحوها لكى يعتنقوا الإسلام، أو أنهم حتى كانوا يشجعونهم على ذلك. وهو ما يعنى فى التحليل الأخير أن الناس العاديين الذين عاشوا فى العالم الحقيقى كانت لهم مواقف وآراء تختلف بالضرورة عن عالم كتابات رجال الكنيسة الذين كانوا يدافعون فى هذه الكتابات عن مصالحهم ؛ بل كانوا يدافعون عن مبرر وجودهم. وقد تجلت هذه المواقف والآراء فى إقبالهم على اعتناق الإسلام واتخاذ اللغة العربية لغة للفكر والأدب والعلم ، والحياة اليومية أيضا .

(٣)

السُـريـــان

أما المصادر السُريانية ، فكانت تحمل نغمة عداء واضحة تجاه الإسلام والمسلمين. ولاغرابة فى هذا ؛ إذ كان مؤلفوها أيضا من رجال الكنيسة ، وهى تشترك مع المصادر البيزنطية فى طابعها العاطفى المتعصب وفى رؤية ظهور الإسلام والفتوح الإسلامية على أنها عقاب أنزله الرب بالنصارى من أبناء الطوائف الأخرى بسبب خطاياهم . وعلى الرغم من أن المصادر السريانية بشكل عام تحمل قدراً وافراً من المعلومات عن العلاقات بين المسلمين والمسيحيين فى ذلك الدور الباكر من تاريخها ، وأوضاع النصارى فى المناطق التى خضعت للحكم العربى الإسلامى فإنها تحمل رؤية كنسية صارخة تشوش الكثير من ملامح الصورة. وفى رأى بعض الباحثين أن رجال الدين المسيحى من السُريان كانوا يتعمدون إخفاء حقيقة الإسلام عن رعاياهم. ولعل هذا يفسر لنا السبب فى عدم إشارة أولئك الكتاب إلى أن الدين الإسلامى كان ديناً جديداً بالفعل، واكتفائهم بوصف المسلمين باعتبارهم أدوات غضب الرب الذى أنزله على أولئك الذين خالفوه .

وفى محاولة لتبرير ظهور الإسلام على هذا النحو لجأ أحد الكتاب من رجال الكنيسة السريانية إلى صيغة «النبوءة» المتعلقة بنهاية العالم (وهى صيغة انتشرت كثيراً فى كتابات رجال الكنائس الشرقية استجابة لظهور

الإسلام وانتصار المسلمين) . وهذه النبوءة كتبها مجهول انتحل اسم «ميثوديوس» أسقف الأوليمب الذى قتل سنة ٣١٢م ، أى قبل ظهور الإسلام بثلاثة قرون تقريباً؛ ولهذا تعرف باسم «نبوءة ميثوديوس» المزيف . ومن المرجح أن يكون الراهب المجهول فى أثناء الجيلين اللذين تليا الفتوح الإسلامية، أى فى أواخر القرن السابع الميلادى. وقد كتبت النبوءة أصلاً باللغة السريانية ، ثم ترجمت فى وقت لاحق إلى اليونانية واللاتينية؛ وهو ما يدل على أن هذه «النبوءة» كانت تلقى رواجًا فى الأوساط الكنسية. وربما كان إفراطها فى التنكيل اللفظى والخيالى بالمسلمين وراء هذا الرواج.

ويدور نص هذه «النبوءة بأثر رجعى» حول أن نهاية العالم «سوف» تبدو قريبة عندما يظهر الإسماعيليون (العرب) الذين «سوف» يهزمون مملكة الروم. لقد كان مؤلف هذا النص يتحدث عما حدث فى القرن السابع الميلادى وكأنه يتنبأ بها فى المستقبل ؛ ومن ثم كان غريبًا أن يحكى ما حدث فى الماضى بلغة المستقبل. وعلى أية حال، كانت مثل هذه الكتابات التى تحمل شكل النبوءة شائعة فى الأدب الدينى المسيحى الذى كتبه الرهبان والقساوسة من أتباع الكنائس الشرقية . ولم تكن هذه الكتابات «تاريخية» بأى معنى من المعانى؛ ولكن قيمتها تتمثل فى أنها تعكس لنا وجهات نظر رجال الكنائس الشرقية ونوعية استجاباتهم تجاه ظهور الإسلام ونجاح المسلمين العسكرى والسياسى.

لقد كانت هذه النبوءة المصطنعة تصف بخيال شرير ما تصور كاتبها المذعور أنه يمكن أن ينسبه إلى المسلمين من وحشية وضراوة ؛ ولما كانت حقائق التاريخ لاتسعفه ، فقد لجأ إلى خياله السقيم:

«... سيكون طريق تقدمهم من بحر إلى بحر ، ومن الشرق إلى الغرب، ومن الشمال حتى صحراء يثرب . ستكون طريق فواجع وسيسير عليها المسنون رجالاً ونساء ، أغنياء وفقراء، على حين يقاسى الجميع من الجوع والعطش ، ويرسفون فى القيود الثقيلة إلى المنطقة التى يصلون فيها على الموتى. لأن هذه هى العقوبات التى تحدث عنها الرسول ... هذا العقاب لن يحلّ بالبشر وحدهم ؛ وإنما سيطول أيضا كافة ما هو على سطح الأرض – الرجال والنسوة والأطفال، والحيوانات والماشية والطيور . وسوف يتعذب الناس بهذا العقاب – الأزواج وزوجاتهم وأطفالهم ، النباتات والمزروعات والممتلكات ؛ العجوز والضعيف ، والمريض والقوى، والفقير والغنى لأن الرب سمي جدّهم الأعلى اسماعيل «جحش البرية الوحشى» . ولسوف تعانى الغزلان ، ومعها كل الحيوانات بالبرية، أو فى الأرض المزروعة. وسوف يطول بالناس ظلم الاضطهاد ، وستموت الحيوانات الأليفة والبرية، وسوف يحيق الدمار بأجمل نباتات الجبال، وتخرب المدن الزاهرة. وتبقى الأقاليم خاوية موحشة لايجتازها أحد : وسوف تتلوث الأرض، وتحرم من نتاجها.

«لأن هؤلاء الطغاة ليسوا رجالاً ، إنما هم أبناء الخراب، فإنهم يتجهون إلى التدمير، لأنهم مدمرون ... إنهم هم الدمار وسوف ينطلقون لتدمير كل شئ . فهم ملوثون يحبون التلوث .، وعند انطلاقهم من البرية سوف يخطفون الأطفال من أحضان أمهاتهم لكى يضربوهم فى الأحجار ، كما لو كانوا حيوانات قذرة...

«وسوف يضحون بخدام الساحة المقدسة، بل إنهم سوف يضاجعون نساءهم وسباياهم داخل الساحة المقدسة، وسوف يأخذون الأردية المقدسة لأنفسهم ولبنيهم ، وسوف يربطون ماشيتهم إلى توابيت الشهداء ، وقبور القديسين . إنهم سفاحون متغطرسون ، مخربون يسفكون الدماء : إنهم قادمون لكى يكونوا بوتقة الاختبار لكافة النصارى...» .

ثم تتحدث النبوءة المصطنعة عن الوباء القادم، والمصاعب التى «سوف» تنجم عنه، والمتاعب التى «سوف» تتسبب فيها الضرائب بحيث « ... يبيع الناس نحاسهم وحديدهم وأكفانهم...» ولكن النص يمضى ليقول إن الفرج سوف يأتى بصورة إعجازية عندما يهاجم ملك الروم الإسماعيليين، فتنقلب الاية، ويجئ دور العرب فى المعاناة. وهنا يمعن كاتب هذه النبوءة فى «التنبوء» بالمتاعب والشدائد التى سوف تحل بالعرب ، ويتلذذ وهو يتصور معاناتهم الخيالية ثم يقول إن ملك الروم سوف يترك عرشه ليعيش فى بيت المقدس بعد أن يقوم أحد ملائكة الرب بتدمير المسلمين فى لحظة واحدة. ثم يجئ المسيح لينهى وجود «ابن الهلاك» أو المسيح الدجال فى فلسطين ... ثم تنتهى النبوءة.

وإذا كنا ق عرضنا لهذه «النبوءة» المصطنعة بالتفصيل ، فإن هدفنا أن نوضح أن كاتبها ، الذى يرجح أنه كان راهبًا منعزلاً يعيش فى ديره شمال الشام ، كان يعيش عالمًا من اصطناع خياله الشرير بعيداً عن التاريخ ؛ ولم يكن بقادر على أن يكتب هذا العبث الواهى سوى فى صيغة النبوءة ليكتب ما يحلو له ، وليشتم ويسب ويفحش فى القول على هذا النحو الفج. وعلى الرغم من أن بعض الباحثين الغربيين يرى أن هذه

الكتابة ربما كانت تعكس صوت النصارى فى المناطق الخاضعة لحكم الدولة العربية الإسلامية، فإن الأدلة التاريخية المتوافرة تثبت أن صاحب هذا الخيال السقيم كان أسير دنياه الخاصة ، وعالمه الفكرى الضيق . وقد راعه ما حدث من انهيار لعالم المسيحية الشرقية بصفة عامة على المستوى العسكرى والسياسى والدينى، كما أصابه الذعر من فقدان مكانته ، واضطراره إلى دفع الضرائب مثل سائر الناس (على الرغم من أن الرهبان كانوا يعفون من دفع الجزية بشرط انقطاعهم فى أديرتهم بإجماع الفقهاء المسلمين) . ومن ناحية أخرى، ليست لدينا رواية واحدة تتحدث عن أن المسلمين فعلوا هذه الفظائع التى تحدث عنها هذا الراهب فى نبؤته ، أو شيئًا قريبًا منها . لقد كان العكس هو الصحيح باستمرار. وتجمع المصادر على أن نصارى الشرق إجمالاً رأوا فى قدوم العرب نوعًا من الخلاص من الحكم البيزنطى الكريه، والتسلط الخلقدونى المقيت ، كما سنرى فى الصفحات القادمة . لقد كان «ثيودوسيوس المزيف» هذا يعيش فى دنياه الخاصة التى كانت تختلف بالضرورة عن دنيا الناس الحقيقية .

بيد أن هذا النص، بلغته الهيستيرية ، يعتبر فى الحقيقة خروجًا على النغمة المعتدلة نسبيًا التى ميزت كتابات رجال الكنائس الشرقية عن الإسلام والمسلمين. فقد كانت المصادر السريانية ، التى كان كتابها من رجال الكنيسة كما أشرنا من قبل، تتخذ موقفًا معاديًا من الإسلام والمسلمين بطبيعة الحال، ولكنها لم تكن هيستيرة عنيفة على هذا النحو . وفى محاولة لتبرير ظهور الإسلام تحدثت بعض المصادر السُريانية عن أن نجومًا ظهرت فى السماء تنذر بأن كارثة سوف تحل على العالم، وأن الرب

عاقب النصارى بظهور الإسلام لأنهم لم يلتزموا بدينهم وسادت بينهم شريعة الغاب حسبما يقول ميخائيل السرياني مثلاً ، وهو يطلق على الفاتحين إسم «العرب» ولايسميهم «المسلمين» ؛ ربما في إشارة واضحة على عدم اعترافه هو وغيره من الكتّاب السريان بأن المسلمين أصحاب دين جديد. ويؤكد الكتاب المسيحيون السريان عامة على أن العرب جُبلوا على الغيرة وحدة الطبع ويتهمونهم بالظلم والشراسة . ومن الطبيعى أن يركزوا فى كتاباتهم على الحالات التى كان سلوك الخلفاء والولاة تجاه رعاياهم عنيفًا . وهو أمر لم يحدث سوى فى القرن الهجرى الثالث/ التاسع الميلادى فى بعض الأماكن ونتيجة ظروف سياسية معينة على أية حال.

ولكن فيما يتعلق بالفتوح الإسلامية اهتمت المصادر السريانية عموماً بتسجيل الحوادث العنيفة التى تنجم عن الحروب عادة. وقد رصِدت المعارك التى دارت بين المسلمين والبيزنطيين وعلى الرغم من العداء المذهبى مع الكنيسة البيزنطية فإن الكتابات السريانية حرصت على أن تصور البيزنطيين فى صورة المسالمين الذين يهاجمهم المسلمون ويشنون الحرب عليهم بهدف قتل النصارى، وسلب أموالهم، واسترقاقهم ، وحرق مزارعهم ... وما إلى ذلك. وكان طبيعيا ألا يحاول رجال الدين السريان فى كتاباتهم بحث العلاقة السببية الموضوعية فى الحوادث التاريخية . ولأن تقاليد الكتابة «التاريخية» المسيحية فى ذلك الحين كانت قائمة على أساس أن الرب هو كاتب قصة الخليقة ؛ ومن ثم فهو يعرف بداية القصة ونهايتها فإن أولئك «المؤرخون» حاولوا قولبة الحوادث داخل السياق الإلهى لا

الفعاليات البشرية ؛ ولذلك فسروا كل الحوادث فى ضوء فكرة الإرادة الربانية . فانتصار المسلمين وانكسار المسيحيين «مشيئة الرب». والحروب الأهلية التى نشبت بين المسلمين عقب مقتل الخليفة عثمان بن عفان عقاب من الرب أنزله عليهم جزاء ظلمهم للبشرية ، وانتهاكهم الحرمات.

بيد أن هذا الموقف الذى ميز كتابات المؤرخين السريان الذين كتبوا فى فترة زمنية متأخرة ، مثل ميخائيل السريانى، بطريرك أنطاكية (٥٦٢-٥٩٣هـ / ١١٦٦-١١٩٦م) ، يوضح أنهم تأثروا بأجواء الحروب الصليبية وعكسوا مشاعرهم على ما سجلوه عن الأحداث التى كانت قد جرت قبل خمسة قرون من زمانهم ، فإن السريان الذين عاشوا زمن الفتوح الإسلامية أو قريبًا منها كان لهم رأى آخر، وموقف آخر، بسبب عدائهم المذهبى لكنيسة الدولة البيزنطية. فهناك راهب سريانى اسمه «مار جبريل» مات سنة ٦٦٧م ، وكان مقدم الرهبان فى دير قرطمين بجبال طورابدين، جنوب شرق تركيا الحالية، قرب أعالى العراق (وما يزال هذا الدير القديم موجودًا ويحظى بتبجيل المسيحيين الشرقيين حتى يومنا هذا) . وقد كانت قرطمين أحد معاقل الأرثوذكس السريان الرافضين لمذهب الكنيسة البيزنطية التوفيقى مما عرضهم للاضطهاد والأذى . وكان «جبريل» هذا يرى أن الحكم الإسلامى فرصة بالنسبة لقومه ، وليس كارثة . ويحكى كاتب سيرته هذه الرواية:

«... فضّل مار جبريل مجئ العرب على اضطهادات الروم؛ ولذلك قدم لهم العون وساعدهم . ثم ذهب بعد ذلك للقاء أميرهم فى الجزيرة (أعالى

العراق) ، فاستقبله بفرح كبير، وأكرمه كثيراً بسبب ما فعله لصالحهم وأعطاه مرسوماً وقعه بيده يأمر بتنفيذ كل ما طلبه. وفى هذا المرسوم منح السريان الأرثوذكس جميعًا حرية ممارسة عبادتهم وشعائرهم فى كنائسهم- وطرق السمانترا (أى اللوح الخشبى الذى يُدَّق عليه فى الكنائس الشرقية لدعوة المسيحيين إلى الصلاة) ، واحتفالات المهرجان ، ومواكب الجنازة وبناء الكنائس والأديرة ، كما أعفى القساوسة والشمامسة والرهبان من الجزية ، على حين ثبّت الجزية على الآخرين عند أربعة دراهم (وهو مبلغ زهيد) . وأصدر تعليماته إلى العرب بالحفاظ تماماً على أرواح السريان الأرثوذكس...».

هنا نجد تناقضًا صارخًا مع ما كتبه الراهب صاحب «النبوءة» المزيفة؛ فقد كتب مؤلف سيرة مارجبريل عما حدث بالفعل على حين تحدثت «النبوءة» عن تصورات لم تحدث سوى في خيال مؤلفها . وربما كانت سيرة هذا الراهب السريانى دليلاً قويًا على أن السريان ساعدوا المسلمين فى فتح هذه المناطق ؛ وهو أمر ينكره بعض الباحثين الغربيين المحدثين مثلما رفض بتلر ، في كتابه عن «فتح العرب لمصر» أن يعترف بما قدمه أقباط مصر من مساعدات لجيش عمرو بن العاص ضد البيزنطيين إنطلاقًا من حماسته الغربية لتبرئتهم من هذه «الخيانة» . وهو موقف يدعو إلى الدهشة حقًا بسبب جنوحه العاطفى من ناحية ، والرغبة فى الانتقام من التاريخ بأثر رجعى من ناحية أخرى.

وعلى أية حال، فإن هذه السيرة تكشف أيضا عن أن المعاملة الطيبة التى لقيها أبناء البلاد المفتوحة من جانب الفاتحين المسلمين أفرزت نتائج

طيبة على الصعيد العملى وربما كان تأثيرها أقوى فى أوساط العلمانيين، وعامة الناس الذين لم يكونوا واقعين تحت ضغوط الوظائف الدينية مثل القساوسة والرهبان. ومن ناحية ثانية، تشابهت مواقف رجال الكنيسة النسطورية مع مواقف السريان واتجاهاتهم إزاء المسلمين بسبب حال العداء المذهبى مع كنيسة بيزنطة، وما نتج عن هذا العداء من اضطهادات ومضايقات لهم. وقد جعلهم هذا يتخذون من الإسلام والمسلمين موقفًا مشابهًا لمواقف الكنائس الشرقية التى عانت من الاضطهادات البيزنطية.

ومع مرور الزمن أخذت المصادر السريانية تهتم بالسلوك السياسى للحكام المسلمين ، ونسبت إليهم تهمًا كثيرة بمصادرة أموال الناس وضياعهم . ويلفت النظر أن الكتاب السريان تحدثوا عن عمليات الإحصاء التى قامت بها السلطات الإسلامية للنصارى وممتلكاتهم وربطت بين عمليات الإحصاء التى جرت فى أعالى العراق وجباية الجزية وغيرها من الضرائب ، وقد أكدت المصادر العربية هذا بدورها .

ومن البديهى أن الكتاب السريان الأرثوذكس لايعترفون بنبوة النبى عليه الصلاة والسلام ، أو بحقيقة الدين الإسلامى ؛ ولذلك فإنها تسمى النبى والخلفاء الراشدين «ملوك العرب» وقد تحدثت هذه المصادر عن «عهد عمر» الذى أعطاه الخليفة العظيم للنصارى من أهل القدس، كما تحدثت عن تجديد عمر بن عبد العزيز ، الخليفة الأموى، لهذه «الشروط العمرية». ومن المعلوم أن مثل هذه الشروط عادة ما تكون ذات لهجة قوية على الورق، متهافتة على مستوى التطبيق العملى فى الواقع اليومى.

وعلى مستوى الحياة الاجتماعية تشير بعض المصادر السريانية بقدر من التأكيد إلى أن المسلمين والنصارى فى منطقة الجزيرة بالعراق عاشوا بمعزل عن كل منهما الآخر وهو الأمر الذى ربما يكون قد حدث فى العقود الباكرة من الوجود الإسلامى ؛ ولكن تحول المسلمين إلى أغلبية فيما بعد يكذب الروايات التى كتبها رجال الكنيسة السُريان الذين كانوا يحرصون على عدم الاختلاط بين أتباع الديانتين . فقد كانت الكنيسة السريانية الأرثوذكسية تحرم على المرأة المسيحية الزواج من رجل مسلم وإلا وقعت تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسى، كما حرمت هذه الكنيسة على أتباعها تناول لحوم أضاحى المسلمين. بيد أن هذا المنع كان نظريا فى كثير من الأحيان، ولم يكن يطبق كثيراً على مستوى الممارسة الفعلية.

ومن ناحية أخرى ، كان الخلفاء هم الذين يعينون رؤساء الطوائف المسيحية فى البلاد الإسلامية بعد أن يتم انتخابهم على أيدى رعاياهم. فقد ذكر كل من ثيوفانيس وميخائيل السريانى وابن العبرى أن الخليفة الأموى» مروان بن عبدالملك» (١٢٧-١٣٢هـ / ٧٤٤-٧٥٠م) وافق على أن يقوم النصارى بانتخاب البطريرك الذى يريدونه ، وعندما انتخبوا إيوانيس بطريركا لنصارى الشرق (١٢٧-١٣٧هـ/ ٧٤٤- ٧٥٤م) وافق الخليفة الأموى على تعيينه، ثم كتب إلى ولاة الأمصار باحترام البطريرك الجديد وتبجيله .

وعلى الرغم من أن ميخائيل السريانى عاش زمن الحروب الصليبية، ويعتبر ما كتبه عنها من أهم مصادر دراستها ، فإنه كتب تاريخاً عاماً

بدأه منذ الخليقة حتى أحداث سنة ١١٩٣م / ٥٩٠هـ ، واعتمد على مصادر تاريخية أقدم زمنيًا. وكان من رأيه أن ظهور الإسلام كان بداية إنقاذ النصارى أتباع مذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزيتيين) من الاستبداد البيزنطي، وأن الرب عاقب البيزنطيين على خطاياهم وآثامهم بأيدى المسلمين. وكان من رأى هذا البطريرك أن التخريب والدمار الذى صاحب الفتوح الإسلامية أمر طبيعي يحدث فى كل حرب ، وبعد نهاية حروب الفتوح ، التى لم تستمر طويلاً ، عادت الأمور إلى ماجرياتها العادية بل إنه يقول إن أحوال النصارى الاقتصادية انتعشت فى ظل الحرية الكاملة التى نعموا بها فى ظل الحكم الإسلامى:

«... لما رأى الرب شرور الروم الذين لجأوا إلى القوة، فنهبوا الكنائس والأديرة التى نملكها فى كافة أراضيهم ، وأنزلوا بنا العقاب دونما رحمة أو شفقة ، أرسل أبناء إسماعيل من الجنوب ليخلصنا من قبضة الروم على أيديهم. والحق أننا إذا كنا قد تحملنا بعض الخسارة بسبب انتزاع كنائسنا وإعطائها لأهل خلقدونية ، فقد بقيت تلك الكنائس بحوزتهم . ولما استسلمت المدن للعرب خصص هؤلاء لكل طائفة الكنائس التى وجدوها فى حوزتهم... ومع ذلك فإن التخلص من قسوة الروم وأذاهم وحنقهم وحماستهم العنيفة ضدنا، بحيث نجد أنفسنا آمنين ، لم يكن مكسبًا بسيطًا .....».

وتزودنا روايات ميخائيل السريانى بصورة واضحة عن ردود أفعال أتباع مذهب الطبيعة الواحدة فى القرن السابع الميلادى تجاه الفتوح الإسلامية . كما يحكى ، مثلاً ، قصة تكشف عن شماتة المسيحيين اليعاقبة

(المونوفيزيتيين) في الروم بعد هزيمتهم ؛ ومؤداها أن أخا هرقل المدعو «ثيودور» وعد أحد الرهبان البيزنطيين بأنه سوف يلاحق اليعاقبة بعد أن يقضي على الغزاة العرب، وبعد هزيمته المخجلة على أيدى العرب سخر منه جندى بيزنطى من أتباع مذهب الطبيعة الواحدة.وقد سجل ميخائيل السرياني الكثير من جوانب العلاقة بين المسلمين والمسيحيين في منطقة شمال الشام قرب مدينة أنطاكية (فى تركيا الحالية) .

وكان هناك مؤرخ مسيحى يعقوبى آخر عاش بعد ميخائيل السريانى، هو ابن العبرى (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) الذى عاش بعد قرن من الزمان تقريبا . وقد كتب هذا الرجل معظم ما كتبه يالسريانية، ومن بينها كتاب تاريخ عالمى مطول باللغة السريانية ، وطلب بعض وجهاء العرب أن ينقل إلى اللغة العربية كتاب التاريخ الذى ألفه بالسريانية. وقد اختصره فى كتاب باللغة العربية بعنوان «تاريخ مختصر الدول»، وفيه الكثير مما لم يرد فى التاريخ السريانى المطول، كما أنه حذف منه الانتقادات التى ساقها ضد الإسلام فى الكتاب السريانى .

والاسم الكامل لهذا المؤرخ «جريجوريوس بن أهارون الملطى المعروف بابن العبرى» وقد جاءت كتابته محايدة تماماً ، وعندما كتب عن النبى عليه الصلاة والسلام حرص على تفادى إثارة غضب الوجهاء الذين طلبوا منه تأليف الكتاب، وحرص على أن يبين أن نسبه يرتقى إلى «... اسماعيل بن ابراهيم الخليل الذى ولدته له «هاجر» أمه «سارة» وزوجته ...» . وتحدث عن أنه لما كان صبيا يخرج مع قافلة الشام حدث **«... لما نزلوا بُصرى**

خرج إليهم راهب عارف اسمه بحيرا من صومعته ، وجعل يتخلل القوم حتى انتهى إليه فأخذه بيده، وقال : سيكون من هذا الصبى أمر عظيم ينتشر ذكره فى مشارق الأرض ومغاربها، فإنه حيث أقبل وعليه غمامة تظلله ...» ثم يواصل ، باختصار ، حكاية سيرة النبى صلى الله عليه وسلم حتى وفاته.

ومن الواضح أن ابن العبرى كتب ما يرضى المسلمين ولم يكتب ما يؤمن به فعلاً ، بيد أن المصادر السريانية بصفة عامة اتخذت موقفًا معتدلاً من الإسلام والمسلمين بالقياس إلى مواقف المصادر البيزنطية؛ وربما كانت حقيقة أن السريان عاشوا غالبًا تحت الحكم الإسلامى قد جعلت أمثال هؤلاء الكتاب يتحرزون لأنفسهم فى كتاباتهم ، وربما كانت هذه الحقيقة نفسها قد أتاحت لهم أن يعيشوا تجربة مباشرة مع المسلمين بعيداً عن الإنحيازات المسبقة. ومن الواضح أن السريان لم يروا بأسًا فى استبدال سيد بسيد آخر ؛ لاسيما أنهم عانوا الكثير من بطش الروم بسبب الاختلاف المذهبى، وهو الأمر الذى يهم رجال الكنيسة السريانية الأرثوذكسية أكثر من أى أمر آخر.

وعلى العموم ، تمزج المصادر السريانية ، التى كتبها رجال الكنيسة، التاريخ بالأساطير وسير القديسين (الهاجيوجرافيا) وما تحمله من خيال وانحيازات دينية. وليس فى هذا ما يثير الدهشة لأن التدوين التاريخى السريانى فى تلك الفترة جاء فى أغلبه من خلفية كنسية ؛ إذ كان معظم الكتاب من الرهبان والقساوسة الذين كانت اهتماماتهم تنصب أولا على

الدير، والعالم الذى يحيط بالدير ؛ من حيث مظاهر الطقس ، أو صعوبات الحياة فى الريف من حيث تأثيرها على الحياة فى داخل الدير، وفى الوقت نفسه اهتموا بالحروب ، وتتويج الملوك وحيلهم ، فضلاً عن اهتمامهم بالممارسات الدينية والأعياد التى يتم الاحتفال بها داخل الدير والشئون الكنسية، والمنافسات حول المناصب الكنسية ، والشرور التى يرتكبها الفاسدون، خاصة أتباع الكنائس الهرطقية.

وكانت هذه الخلفية التى تصورت منها الكتابات السريانية أن ظهور الإسلام عقاب أنزله الرب على النصارى كما كررنا من قبل؛ ولكن الكتابات السريانية لم تخل من الهجوم العنيف، أحيانا ، على الإسلام والمسلمين .

(٤)

النسطوريون

وهنا يجب أن نشير مرة أخرى إلى موقف الراهب النسطورى «يوحنا بار بنكايي» الذى أشرنا إليه فى بداية هذه الدراسة؛ فقد فسر هذا الرجل انتصارات المسلمين على أنها غضب إلهى كما أشرنا من قبل:

«لايجوز لنا أن نفكر فى قدوم أولاد هاجر على أنه أمر عادى، وإنما هو نتيجة عمل الرب. قبل دعوتهم كان قد أعدهم مسبقا لاحترام المسيحيين، وكان لديهم أمر من الرب فيما يتعلق بمركز الرهبنة، يجب عليهم أن تكون نظرتهم إليه باحترام. أما الآن وقد جاء هؤلاء القوم بأمر الرب، واستولوا على كل من المملكتين على ما هو بيِّن، لا بأى حرب ولا بأى معركة ، بل بأسلوب بسيط، على نحو ما يحدث عندما تخرج خشبة من النار، دون استعمال أسلحة حرب أو أساليب بشرية، فقد وضع الرب النصر فى أيديهم على نحو يدل على أن ما جاء عنهم يمكن أن يكون أمراً مقتضياً أى : «إن رجلاً واحداً تعقب ألفا واثنين هزما عشرة آلاف». وإلا ، فكيف يمكن قوما عراة ، يمتطون الخيول من دون سلاح أو ترس ، أن يربحوا لولا العون الإلهى، إذ دعاهم الرب من أطراف العالم لكى يُدمر على أيديهم، «مملكة شريرة» وليؤدى إلى القضاء ، على أيديهم ، على روح الفرس الرفيعة».

هذا الراهب النسطورى يرثى الامبراطورية الساسانية التى احتضنت طائفته بعد أن طردت السلطات البيزنطية الطائفة ومؤسسها نسطورس إلى العراق ؛ وهو لايتحدث عن أخطاء أبناء الطوائف والمذاهب المسيحية الأخرى، ولايذكر أن المسلمين جاءوا بدين جديد إلى البلاد التى فتحوها ؛ إنهم فى نظره مجرد أدوات يُنزل بها الرب عقابه : «... كانت جماعات اللصوص منهم تذهب سنويا إلى أماكن بعيدة وإلى الجزر ، ويعودون بأسرى من جميع الشعوب التى تغطيها السماء...» وهو لايتحدث عن أحداث حقيقية ، أو يسرد تاريخاً ، أو يرصد أحداثا ؛ إنه فقط يلقى إلينا برأيه فى المسلمين، «... يمكن أن نقص أخبار المجازر التى قاموا بها فى أرض اليونان، وفى كوش، وإسبانيا ، وسواها من المناطق القاصية ، حاملين معهم الأسرى من أبناء هؤلاء وبناتهم، وأخضعوهم للاسترقاق والعبودية . إن أولئك الذين لم يتورعوا عن مخاصمة خالقهم، أيام السلم والثراء، أرسل عليهم قوماً من البرابرة الذين لم تكن فى قلوبهم شفقة عليهم...»

ومرة أخرى يؤكد الراهب النسطورى على أنهم أدوات الرب فى الانتقام، ولكنه يزعم أنهم بلا دين ولا إله لهم «... وهكذا لما رأى الرب أنه لم يحدث أى تحسن ، وجه نحونا المملكة البربرية وأهلها الذين لاسبيل لهم لقبول أى معتقد ، والذين لايعترفون بمعاهدة أو اتفاقية ، والذين لايقبلون تملقاً أو مداهنة ، والذين ترتاح نفوسهم إلى الدم الذى يراق دون سبب، والذين يرون السرور فى السيطرة على الجميع، والذين يرغبون فى إلقاء القبض على الأسرى وفى النفى. إن الضغينة والغضب غذاؤهم ، لايرضون بما يقدم لهم...» هذه الآراء السوداء تعكس فكر راهب منعزل فى ديره بمنطقة جبلية، ولاتحمل أى معلومات تاريخية راسخة؛ وهو يكيل التهم

للمسلمين فيما يشبه الموعظة الكنسية دون أن يقيم عليها دليلاً واحداً . ومن المدهش أنه مع هذا يقول إن المسلمين كانوا أيضًا خاضعين للغضب الربانى بسبب خطاياهم التى ارتكبوها فانقسمت مملكتهم إلى مملكتين منعزلتين عقب قتل الخليفة عثمان بن عفان ، ثم مقتل على بن أبى طالب سنة ٤٠ هجرية . ويلفت النظر أن هذا الراهب يمتدح معاوية بن أبى سفيان (٦٦١–٦٨٠م) مؤسس الخلافة الأموية، فيقول عن فترة حكمه : «... انتشر الإسلام فى ربوع الدنيا. بحيث أننا لم نسمع إطلاقًا، سواء من آبائنا أو من أجدادنا ، عن مثل هذا السلام، ولم نر له مثيلاً...».

ولم تدم هذه الحال السعيدة طبعا لأن الكنيسة تحولت مرة أخرى، فى هذا الجو من السلام والازدهار، إلى الانحلال الأخلاقى والهرطقة حسبما يزعم الراهب النسطورى. ومرة ثانية استخدم الرب المسلمين لمعاقبة النصارى جزاء هذا ما اقترفوه من آثام ، فنشبت الحرب الأهلية الثانية المدمرة سنة ٦٨٣م ، بعد وفاة يزيد بن معاوية. وبهذه الأحداث أنهى يوحنا برينكايي تاريخه عن العالم. فقد مات بعد ذلك بقليل . ولم يذكر هذا الراهب الذى عاصر أحداث نصف القرن الأول بعد ظهور الإسلام شيئا عن علاقات مباشرة مع المسلمين ، ومن الواضح أنه لم تكن له أية صلة مباشرة بهم، وأنه كتب ما كتبه عنهم اعتماداً على ما سمعه وعلى التراث الشفوى الذى كان متداولاً عن أحداث الفتوح الإسلامية فى الأوساط التى ينتمى إليها . ولكن موقفه الإيجابى من الخليفة الأموى «معاوية بن أبى سفيان» (٦٦١–٦٨٠م) يثير الدهشة والحيرة معًا . وعلى أية حال ، فإن ما كتبه الراهب النسطورى الذى كتب فى تسعينيات القرن السابع الميلادى جاء متناغمًا مع الكتابات المسيحية الشرقية بوجه عام .

(٥)

الأرمــــن

وقد أسهم الأرمن بدورهم فى الكتابة عن الفتوح الإسلامية ، ولكن ما وصلنا من هذه الكتابات لم يكن ليخرج عن السياق العام لكتابات رجال الكنائس الشرقية ؛ فقد نسب المؤرخ الأرمنى سيبيوس الذى عاش فى القرن السابع الميلادى ظهور الإسلام إلى نبوءات دانيال التى وردت فى العهد القديم لتتنبأ بنهاية العالم :

«... ولكن من ذا الذى يستطيع وصف الرعب الذى سببته هجمات الإسماعيليين التى طغت على البر والبحر؟ إن دانيال السعيد وعى ذلك، وتنبأ بشرور تشبه تلك التى سوف تقع على الأرض، كانت الحيوانات الأربعة عنده رموزا للممالك الأربع التى ستظهر على سطح البسيطة . أولا الحيوان ذو الهيئة البشرية للمملكة الغربية ، التى هى مملكة اليونان [الإمبراطورية البيزنطية] . وهذا واضح من قوله : «لقد سقطت أجنحتها وأمحّت من وجه الأرض» . وهنا هو الحيوان الثانى الذى يشبه الدُب. وقد نُصب على وجهة واحدة ، الجهة الشرقية . هذا يدل على العرب . «وثمة ماله ثلاث وجهات لفمه» ؛ المقصود مملكة الفرس والميديين والبارثيين . هذا واضح لأنه يقال له فى الحقيقة : «انهض التهم بضعة أجسام» . إضافة إلى ذلك ، فإن العالم يعرف أنه التهمها على نحو بلغ من الدقة الغاية . والحيوان الثالث ، على هيئة فهد وعليه أجنحة طائر وأربعة رؤوس حيوان .

«هذا يعنى مملكة الشمال ياجوج وماجوج وزميليهما اللذين أعطيا قوة الطيران بقوة من الجهة الشمالية» . «والحيوان الرابع مرعب ، مخيف ، أسنانه من الحديد ومخالبه من البرونز؛ أكل وطحن بأسنانه، وداس ما تبقى بأقدامه». إنه يقول : «إن مملكته الرابعة التى ترتفع من الجنوب الشرقى هى مملكة اسماعيل . وكما أوضح كبير الملائكة: «إن حيوان المملكة الرابعة سيقوم، وسيكون أكبر قسوة من كل الممالك، وسيأكل العالم كله . إن قرونه العشرة تمثل الملوك العشرة الذين سيحكمون ، وبعدهم سيقوم آخر يتجاور فى شرّه كل الذين سبقوه...»

لقد جعل سيبيوس المسلمين الوحش الرابع فى نبوءة دانيال، أى المملكة التى سوف تقضى على جميع المماليك السابقة . ومن المناسب أن نشير إلى أن رؤيا دانيال، أو نبوءته ، التى تتحدث عن نهاية العالم تتحدث عن أربعة وحوش مخيفة أربعة تخرج من مياه البحر ، ولكن رابع تلك الوحوش الخرافية هو الأقوى بحيث يلتهم الثلاثة الآخرين ، ثم ينمو فى رأسه عشرة قرون، وبعدها يظهر قرن حادى عشر قضى عليها وفاقها ؛ ولكن «القديم الأيام» ، أى الرب، يأمر بتدمير هذا الوحش بالنيران فى النهاية. وقد حاول مفسرو سفر الرؤيا مماهاة الوحوش الأربعة بتلك الممالك التى عاصرها اليهود؛ ولكن سيبيوس هنا يفسر «رؤيا دانيال» تفسيراً مسيحيا يناسب الظروف التى عاصرها فى القرن السابع أثناء حركة الفتوح الإسلامية الأولى. وقد أظهر هذا الأسقف الأرمنى شماته واضحة فى سقوط البيزنطيين على اعتبار أن ذلك هو «... القضاء على الفسق الشيطانى».

ومن الواضح أننا هنا لانقرأ تاريخًا ، وإنما نستمع إلى عظة تليق بأسقف أرثوذكسي حانق على بيزنطة ، مرعوب من المسلمين. وهو يفسر الأحداث فى ضوء رؤيا دانيال على اعتبار أن ما حدث من تدبير الرب. وقد كان ذلك الأسقف الأرمني يستقى معلوماته من الجنود الأرمن الذين حاربوا فى صفوف القوات البيزنطية ثم عادوا إلى ديارهم . وهو أيضا يرى، مثل سائر رجال الكنائس الشرقية أن المسلمين هم بنو اسماعيل ، ولايفرق بين الدين والعرق. وقد وصف النبى عليه الصلاة والسلام بأنه تاجر، وذكر أنه عارف بالعهد القديم فى الكتاب المقدس وبشريعة التوراة ، ويقول إنه علم شعبه الإيمان بإله ابراهيم الواحد.

ومن ناحية أخرى ، ذكر سيبيوس أيضا رواية تقول إن المسلمين طلبوا قبل أن يبدأوا فتح فلسطين وما جاورها من الامبراطور هرقل أن يتنازل عن هذه الأرض بقولهم : «إن الله وهب هذه الأرض إلى أبينا ابراهيم ، ولنسله من بعده ، نحن أبناء ابراهيم ، لقد تملكتم بلادنا بما فيه الكفاية ، اتركوها لنا سلمًا ، ونحن لن نهاجم أرضكم . وإلاً ، فإننا سنسترد منكم ما استوليتم عليه بفائدة باهظة» . وزعم سيبيوس أن الامبراطور البيزنطى رد بقوله : «إن البلاد بلادى، وما ورثتموه فهو الصحراء ، إذهبوا بسلام إلى بلادكم».

هذه الرواية التى تحمل فى ثناياها لومًا ظاهرًا للإمبراطور هرقل لأنه تسبب فى الحرب وما سببته من مصاعب لم يرد لها ذكر فى المصادر العربية، ووربما كانت نوعًا من التحريف للرواية العربية عن الرسالة التى

أرسلها النبى عليه الصلاة والسلام لدعوة هرقل إلى الإسلام ؛ وهو الأمر الذى يبدو أكثر اتساقًا مع الأحداث التاريخية التى وقعت فى تلك الأثناء .

وربما كان ذلك الأسقف الأرمنى معبرا عن تيار عام مشترك بين رجال الكنائس الشرقية الأرثوذكسية يلوم البيزنطيين على مستويين : أولهما ، باعتبارهم من أنصار المذهب الخلقدونى الكريه بالنسبة لأتباع هذه الكنائس باعتباره هرطقة وفسادا عقيدياً ؛ مما تسبب فى غضب الرب ومعاقبتهم بالمسلمين ؛ وثانيهما ، عدم الاستجابة لمطالب المسلمين السلمية دون القدرة على قتالهم مما تسبب فى غضبهم وشن الحرب.

(٦)

الأقبـــاط

وإذا كانت المصادر البيزنطية والسريانية والنسطورية والأرمنية، قد عكست العلاقات المتوترة بين البيزنطيين وأتباع بقية الكنائس الشرقية من جهة ، وإذا كان معظم كتابها قد كتبوا عن المسلمين بلهجة معتدلة نسبيا من جهة أخرى؛ فإن الكثير منهم رأوا فى المسلمين حكاماً أفضل كثيرا من الروم . ومن المثير أن أحد رجال الكنيسة الشرقية ، ممن كتبوا باللغة العربية ؛ وهو سعيد بن البطريق المعروف باسم أوتيخا الذى عاش فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى قدم رواية متكاملة البناء عن فتح مدينة القدس على يدى الخليفة عمر بن الخطاب . وهو يحكى عن أن صفرونيوس رحب بالخليفة الذى أمّن نصارى القدس، وعندما حان وقت الصلاة اقترح عليه البطريرك أن يصلى فى كنيسة القيامة لكن الخليفة رفض قائلا إنه لو فعل هذا لاتخذها المسلمون مسجداً وسيخسرها المسيحيون . والكاتب هنا ، وهو أيضا من رجال الدين المسيحى، يرسم صورة إيجابية تماماً للمسلمين.

وربما يجدر بنا أن نتأمل ما كتبه رجل كنيسة آخر عاصر أحداث الفتح الإسلامى لمصر وكان من شهود العيان . فقد كان «يوحنا النقيوسى» أسقف مدينة نقيوس) بالقرب من مدينة بسيون فى محافظة الغربية بمصر

حاليا) ، وقد لعب هذا الرجل دورا مهماً فى شئون الكنيسة المصرية ، كما أنه عاصر عدداً من الولاة المسلمين على مصر ، وكان آخرهم عبد العزيز بن مروان (٦٥ / ٨٦هـ / ٦٨٤-٧٠٥م) وعاش حتى بداية القرن الثامن الميلادى/ الثانى الهجرى . ويرى بعض الباحثين أن يوحنا النقيوسى كان أحد أهم إثنين من أساقفة مصر آنذاك.

ولكن ما كتبه يوحنا النقيوسى يمثل أهمية خاصة فيما يتعلق بآراء المسيحيين فى مصر عن الفتح الإسلامى، وموقفهم من المسلمين . ومع تحفظنا الواجب تجاه هذا الأسقف فإن ما كتبه يبدو غامضًا حافلاً بالتناقض عند النظرة الأولى؛ فهو يدين قسوة المسلمين وغلظتهم، ويتحدث تارة أخرى عن أمانتهم واستقامة عمرو بن العاص، على حين يكيل لهم الشتائم ، دونما مبرر أحيانا . ولكن هذا الغموض والتناقض يتبدد إذ ما عرفنا أن مترجم النص الحبشى لكتاب يوحنا النقيوسى- وهو النص الوحيد الذى وصلنا - قد أباح لنفسه أن يعبث بالنص وأن يحمله مشاعره الدينية المتعصبة حسبما يرى أحد المتخصصين الذى ترجم النص الحبشى إلى العربية.

ففى أول ذكر للمسلمين فى النص نكتشف أن الجزء الخاص ببداية قدوم المسلمين مفقود ، كما أن النص مرتبك ومشوش ، ويحمل أوصافًا وتهمًا قاسية :

«... ثم أعدوا بعض الفرسان ومجموعة من الجنود وساروا لحرب المسلمين، وفى ظنهم أنهم يمنعون المسلمين، ثم سار المسلمون إلى الصحراء ، وأخذوا الكثير من الخراف والماعز من الجبل . ولم يعرف أهل

مصر هذا ... وسمع تاودسيوس الحاكم بقدوم الإسماعيليين وكان يسير من مكان لآخر ليرى ما سيكون من هؤلاء الأعداء. ثم جاء الإسماعيليون وقتلوا رئيس الجند وجميع من معه دون رحمة، وفى الحال فتحوا المدينة. وكل من جاء إليهم قتلوه، ولم يرحموا أحداً ؛ شيخًا كان أو طفلاً أو امرأة...»

وقدت كررت هذه التهم بالوحشية وعدم التفرقة بين المحاربين وغير المحاربين فى عدة مواضع أخرى من الكتاب، ولكنه ينسب ما حدث إلى سياسة هرقل ، وواليه الخلقدونى ، كيروس المكروه من المصريين:

«... وعندما رأى المسلمون متاعب الروم، والكراهية التى تحيط بهم بسبب الملك هرقل وما أحدثه من اضطهاد ونفى فى مصر كلها للعقيدة الحقة على يدى كيروس البابا الخلقدونى ، تقووا وتشددوا فى الحرب ...»، «... وكان كيروس البابا قد سلب الكثير من متاع الكنائس أيام الاضطهاد... ولكن الرب الذى يصون الحق لم يهمل العالم، وحكم على الظالمين لأنهم تجرؤوا عليه ، وردهم إلى الإسماعيليين الذين استولوا على مصر كلها . وبعد موت هرقل ، عاد كيروس (فى عهد ابنه) دون أن يتخلى عن الغضب واضطهاد شعب الرب؛ بل كان يزداد سوءًا ...».

لقد كان هرقل وكيروس هما مصدر الغضب الإلهى بسبب ما اقترفوه من اضطهاد بحق الكنيسة المصرية، ويتحمل كيروس (الذى تسميه المصادر التاريخية العربية المقوقس) دور الشرير فى القصة . فقد كان وقوع الروم فى قبضة المسلمين، الذين يسميهم «الإسماعيليين» عقابًا عادلاً من الرب . وهو يؤكد على هذا الموقف مرة أخرى:

«.... وظل عمرو رئيس جند المسلمين خارج حصن بابليون، وحاصر الجنود (الروم) الذين كانوا به ... ثم أعطاهم الأمان، على أن يتركوا كل أدوات الحرب، وهى كثيرة . ثم أمرهم بالخروج من الحصن ... وبهذا تسلم حصن بابليون فى مصر فى اليوم الثانى من عيد القيامة . وعاقبهم الرب لأنهم لم يمجدوا آلام الخلاص التى عاناها سيدنا ومخلصنا يسوع المسيح الذى وهب الحياة للمؤمنين به ... وفى يوم عيد القيامة المجيد هذا أطلق (المسلمون) سراح المسجونين الأرثوذكس ، ولم يتركوا أعداء المسيح هؤلاء دون أذى، بل أساءوا إليهم وقطعوا أيديهم ... فإنهم لوثوا الكنيسة بالعقيدة النجسة وارتكبوا إلحاد الطائفة الآريوسية وعصيانها ... وهو الرب الذى يجازى المسيح، كلاً بمثل عمله ، ويقضى بالدينونة على الظالم...»

ويمضى يوحنا النقيوسى ليتحدث عن نهاية «الانقسام الذى كان بمصر وياسكندرية فى أيام هرقل ملك الخلقدونيين...» وعن عودة بنيامين بطريرك الأقباط الظافرة بعد أن استدعاه عمرو بن العاص وأمنه فخرج من مخبئه:

«.. دخل الأنبا بنيامين بطريرك المصريين مدينة اسكندرية بعد هروبه من الروم فى السنة الثالثة عشرة، وسار إلى كنائسه وزارها كلها، وكان الناس جميعا يقولون : هذا النفى وانتصار الإسلام كان بسبب ظلم الملك هرقل، وبسبب اضطهاد الأرثوذكس على يدى البابا كيروس، وهلك الروم لهذا السبب وساد المسلمون مصر...».

هنا يتفق يوحنا النقيوسى مع بقية المصادر المسيحية الشرقية فى

تفسير انتصار المسلمين على أنه غضب من الرب نتج عن ظلم هرقل وممارسات كنيسة بيزنطة ضد الكنائس المحلية؛ ولكنه من ناحية أخرى يمتدح عمرو بن العاص :

«... وكان عمرو يقوى كل يوم فى عمله، ويأخذ الضرائب التى حددوها ولم يأخذ من أموال الكنائس شيئا ، ولم يرتكب خطأ، سلبًا أو ونهبًا ، وحافظ عليها طوال الأيام...»

ويلفت النظر هنا أن يوحنا لم يحاول الحديث عن الدين الإسلامى أو عن حياة النبى عليه الصلاة والسلام ، وربما كان ذلك فى الجزء المفقود عن الترجمة الحبشية لنص النقيوسى. وعلى الرغم من تناقض النص بسبب عيث المترجم الحبشى فيما يبدو ؛ فإنه أشار إلى تعاون القبط النصارى مع الفاتحين المسلمين، كما أنه تحدث عن «... المصريين الذين كانوا قد ارتدوا عن المسيحية واعتنقوا ديانة الوحش ...» وذكر أن الموظفين المحليين عملوا فى خدمة الحكم الإسلامى.

وهناك مصدر قبطى مسيحى آخر مهم يحدثنا عن ردود الفعل الأولى تجاه الفتح الإسلامى لمصر على الرغم من أنه كتب فى أواخر القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى؛ وهو كتاب «تاريخ بطاركة كنيسة الاسكندرية» الذى ألفه ساويرس بن المقفع ليتضمن سير عدد من آباء الكنيسة القبطية حتى زمنه . وقد أوضح المؤلف أنه اعتمد فى التراجم التى يضمها كتابه على مصادر يونانية وقبطية قديمة ؛ وربما اعتمد فى كتابه سيرة البطريرك بنيامين (٦٢٢-٦٦١م) على مصادر ترجع إلى القرن السابع الميلادى.

وسيرة بنيامين ذات أهمية خاصة بالنسبة لموضوع هذه الدراسة لأنها تتناول قصة اللقاء بين المسلمين والنصارى المصريين من وجهة نظر الكنيسة المصرية.

وكان بنيامين قد تولى منصب البطريركية فى مصر إبان الاحتلال الفارسى. وعندما صار هرقل إمبراطورا على بيزنطة، ونجح فى إخراج الفرس عين كيروس (المقوقس) واليًا . وقد أدى تعيين هذا الخلقدونى الصارم إلى هرب بنيامين بعد أن حذره ملاك الرب حسبما يقول ساويرس، ورتب أمور الكنيسة، وكتب إلى جميع الأساقفة يأمرهم بالاختباء . ثم اختبأ هو نفسه فى أحد الأديرة المجهولة فى صعيد مصر .

ويظهر كيروس باعتباره الشرير الحقيقى فى القصة ؛ لأن عدداً من الأساقفة الذين لم يعملوا بنصيحة بنيامين وقعوا فى يديه مثل السمك فى شبكة الصياد. وكان كيروس هذا من منطقة «القوقاز» (وربما يكون لهذه الحقيقة علاقة باسم المقوقس الذى أطلقه عليه العرب ، فإن اسم المنطقة التى جاء منها فى النطق اليونانى Caucasus وربما حرف العرب الإسم بقلب الكاف قافًا على عادتهم فى نسبة الأشخاص إلى بلادهم) . وقد تم تعيينه بطريرك لكنيسة الاسكندرية وواليًا مدنيًا على مصر فى الوقت نفسه. وحاول فرض المذهب التوفيقى (المونوثيليتى) الذى وضعه الامبراطور بالقوة ، وقاومه المصريون بعنف على الرغم من الاضطهادات الوحشية المنظمة التى كان أحد ضحاياها «مينا» شقيق بنيامين. وقيل إن الاضطهادات استمرت على مدى عشر سنوات . وعلى الرغم من أننا لا نعرف مقدار الحقيقة فى روايات المصادر الكنسية القبطية ، فإن رواياتها

تكشف عن مناخ من الخوف والعداوة العميقة الراسخة تجاه السلطات البيزنطية . ويقول ساويرس إن الذين عينهم هرقل لحكم مصر تصرفوا مثل الذئاب المفترسة.

ويتحدث عن المسلمين بلهجة معتدلة تكاد تكون محايدة ؛ فيقول إن محمداً صلى الله عليه وسلم أعاد من كانوا يعبدون الأصنام إلى معرفة «الله وحده» ، بل إنه قال إن محمداً رسول الله، وقال إن أمته تمارس الختان وتصلي باتجاه الجنوب صوب المكان الذى يسمونه الكعبة.

وهو مثل سائر الكتاب المسيحيين فى المناطق التى كانت خاضعة للحكم البيزنطى وتعانى من العداء المذهبى يرى أن انتصارات المسلمين كانت عقاباً من الرب بسبب فساد البيزنطيين دينيا؛ فقد تخلى الرب عن جيش الرومان بسبب فسادهم واعتناقهم لمراسيم مجمع خلقدونية.

ويتسم حديث ساويرس عن الغزو العربى بالاختصار والواقعية؛ فهو يصف المعاهدة التى وقعها المسلمون مع المصريين بأنها تتوافق مع نوع المعاهدة التى كان محمد «رئيس العرب» قد أوصاهم بعقدها، والتى تقضى بعدم المساس بأية مدينة توافق على دفع الجزية ولكن المدن التى ترفض يتم نهبها وأسر رجالها. ويقول إن المسلمين كفوا أيديهم عن البلاد وسكانها ولكنهم دمروا أمة الروم.

وأهم النتائج التى نجمت عن الفتح الإسلامى، من وجهة نظر ساويرس بن المقفع ، هى عودة بنيامين الظافرة إلى الإسكندرية . وكان أحد أعيان القبط وإسمه سانوتيوس قد جاء إلى عمرو بن العاص ، بعد فتح الإسكندرية، وأخبره بأمر بنيامن بطريرك الأقباط الهارب «... وكتب عمرو

إلى أعمال مصر كتاباً يقول فيه: «الموضع الذى يكون فيه بنيامين بطرك النصارى القبط له العهد والأمان والسلامة من الله، فليحضر آمناً مطمئنا، ويدبر حال بيعته ، وسياسة طائفته ، فلما سمع القديس بنيامين هذا عاد إلى الاسكندرية بفرح عظيم بعد غيبة ثلاثة عشر سنة منها عشرة سنين لهرقل الرومى الكافر، وثلاثة سنين قبل أن يفتحوا المسلمين الاسكندرية...».

هنا تبدو كراهية البيزنطيين واضحة صارخة فى عبارة «هرقل الرومى الكافر» ، وهى عبارة لم يستخدمها ساويرس أبداً فى وصف المسلمين. لقد كان قدوم المسلمين بالنسبة لكاتب سيرة بنيامين فجراً جديداً لبطله . والحقيقة أنه لايذكر أبداً أن ما حدث كان أمراً طيباً فى عبارات صريحة ، ولكن الواضح أن الأمور كانت بمثابة راحة عظيمة بعد نهاية حكم كيروس الذى تزعم رواية ساويرس أنه انتحر وتجرع السم من خاتمه (وهو ما لم يحدث لأن الرجل مات لأسباب طبيعية) . ومن ناحية أخرى، فإن ما كتبه ساويرس بن المقفع يشير بوضوح إلى الروابط الوثيقة بين النخبة المسلمة والنخبة القبطية من خلال تأكيده على العلاقات الطيبة التى كانت تجمع بين عمرو بن العاص ، وبنيامين، وسانوتيوس الذى لعب دور الوساطة بين الإثنين .

كانت آخر أعمال بنيامين تكريس كنيسة الأنبا مقاريوس فى الصحراء فعندما جاء جماعة من الرهبان إلى الاسكندرية لهذا الغرض ، قال : «... فمجدت السيد المسيح الذى جعلنى مستحق دفعة أخرى أن أنظر هذه البرية الجليلة وهؤلاء الآباء والأخوة القديسين وإظهار الأمانة الأرتدكسية وخلصنى من اضطهاد المخالفين...».

(٧)

خاتمــة

لقد كان من الطبيعى أن تتفاوت ردود فعل رجال الكنيسة فى المناطق التى فتحها المسلمون فى القرن السابع الميلادى على النحو الذى اتضح فى الصفحات السابقة ، وكان طبيعيا أيضا أن تكون مواقفهم نتيجة الجهل بحقيقة الدين الإسلامى، أحيانا، وبرغبتهم فى تشويه حقائقه أمام رعاياهم أحيانا أخرى، أو تتلون بحسب مواقفهم من الإمبراطورية البيزنطية أحيانًا ثالثة . ويلفت النظر أنهم جميعا رأوا فى قدوم المسلمين عقابًا من الرب جزاء خطايا أصحاب المذاهب المسيحية المخالفة . وقد كان الذين يكتبون من داخل الأراضى البيزنطية أعنف من أولئك الذين كانوا تحت الحكم الإسلامى، باستثناء يوحنا النقيوسى.

ولكن من المهم أن نشير إلى أن هذه الكتابات كانت فى التحليل الأخير تعبيرًا عن آراء رجال الكنيسة الذين عاشوا بالضرورة فى عالم فكرى ونفسى منفصل عن العالم الذى كان يعيش فيه عامة الناس. وإذا كانت المصادر التاريخية لم تحفظ لنا ما يساعدنا على فهم هذا العالم الحقيقى، فإن حقائق الأحداث التاريخية قد تشى بما حدث فعلاً . فقد استغرقت حركة الفتوح الإسلامية فى مصر والشام عقدا من الزمان ، وبعدها صارت المنطقة بأسرها مركز العالم الإسلامى على مدى ما يزيد على

أربعة عشر قرنًا . وفى غضون قرنين أو أكثر قليلاً كان المسلمون قد صاروا غالبية السكان دون أن تكون هناك سياسة لفرض الإسلام بالقوة . وهذه كلها دلائل على أن مواقف العلمانيين من عامة الناس كانت تختلف تماما عن مواقف من كتبوا المصادر التى عرضنا لها فى الصفحات السابقة.

ومن ناحية أخرى، فإن هذه الكتابات على الرغم من انحيازها قد أوضحت بعض الحقائق بطريقة غير مباشرة ؛ مثل مساعدة السكان المحليين للمسلمين ، واعتناق بعضهم الإسلام فى السنوات الأولى بعد الفتح الإسلامى بعد الفتح الرسلامى . وهناك مؤشرات على أن المسيحيين المونوفيزيتيين فى مصر وبلاد الشام كان لديهم بالتأكيد ما يجعلهم يكرهون السلطات البيزنطية وعلى أنهم ساعدوا الفاتحين المسلمين بالفعل. ومن ناحية أخرى، كانت عداوة المسيحيين فى هذه البلاد تجاه الطوائف المسيحية الأخرى أقسى وأشد وقعًا من عداوتهم تجاه المسلمين .

لقد كانت شروط الاستسلام السهلة نسبيًا ، والتى ميزت الفتوح الإسلامية السلمية من أهم أسباب نجاح حركة الفتوح الإسلامية ؛ فقد كانت تحفظ لأبناء المناطق المفتوحة أرواحهم وممتلكاتهم ، والحقوق المرتبطة بحرية العقيدة وملكية الكنائس مقابل دفع الجزية والتعهد بعدم مساعدة أعداء المسلمين على نحو ما جاء فى عهد عمر بن الخطاب لنصارى القدس. وكانت الضرائب فى الفترة الأولى بعد الفتح أقل من تلك التى كان البيزنطيون أو الساسانيون يفرضونها سابقًا على سكان البلاد نفسها .

واستقر العرب بسرعة فى المناطق التى فتحوها ؛ ولكنهم كانوا دائمًا منفصلين عن السكان المحليين بشكل يكاد يكون تامًا فى بداية الأمر. فقد تمركزوا فى ثلاث مدن جديدة فى العراق ؛ هى الكوفة والبصرة والموصل . واستقروا فى الفسطاط بمصر أولاً قبل أن ينتشروا بعد استقرار الأحوال، وتم بناء مدينة القيروان الجديدة لتكون مركزًا لهم فى شمال أفريقيا ؛ أما فى بلاد الشام فإن المسلمين لم يبنوا مدنًا جديدة ولكنهم اتجهوا للسكن فى ضواحى المدن القديمة؛ مثل قنسرين وحلب . بيد أن الوضع لم يلبث أن تغير بمضى الزمن ؛ فقد زاد عدد المتحولين إلى الإسلام من السكان المحليين كما زاد عدد العرب الذين جاءوا للاستقرار فى هذه البلاد ، وكان لابد من الاختلاط والامتزاج الذى أدى إلى التفاعل بين ما جاء به الإسلام واللغة العربية من جهة ، والموروث الثقافى لأبناء البلاد المفتوحة من جهة ثانية . ولم يمارس الفاتحون المسلمون ضغوطًا على أبناء هذه البلاد لكى يعتنقوا الإسلام . ولكن اعتناق الإسلام كان يوفر العديد من الفرص الطيبة للانضمام إلى الطبقة الحاكمة . ومن اللافت للنظر أن السلطات الإسلامية أقامت علاقات ناجحة مع رؤساء الكنائس المحلية التى باتت تحت سلطانهم .

وفى أثناء القرن الأول بعد الفتوح الإسلامية كانت أراضى الدولة الإسلامية مجتمعًا مفتوحًا بحق. وكانت النخبة فى هذا المجتمع من المسلمين ومن غير المسلمين العاملين فى الجهاز المالى والإدارى للدولة. وكانت عضوية هذه النخبة تتعزز بإعتناق الإسلام الذى هو دين لكل

البشر. ولم تكن عضوية النخبة حصرية وقاصرة على فئة معينة مثلما كانت قاصرة على أبناء الأرستقراطية البيزنطية والفارسية، ولم تكن وضعًا طبقيًا ممتازًا يدافع عنه من يتمتعون به ، وإنما كانت حقا لكل من يعتنق الإسلام ويتفوق فى مجاله، فباعتناق الدين الإسلامى كان بوسع المغلوبين من أبناء البلادالمفتوحة أن يصيروا من الفاتحين ، ومن الناحية النظرية على الأقل كانوا مساوين لغيرهم من المسلمين .

ومن ناحية أخرى ، كانت هناك عدة جوانب فى الإسلام جعلت التعامل معه ممكنًا بالنسبة للنصارى : فقد كان له نبى، وكتاب مقدس، وله أشكال راسخة فى الصلاة، والصوم، والحج ؛ كما كانت قوانين الأسرة والمواريث واضحة . وكان الإسلام يعترف بالأنبياء السابقين جميعا، ومنهم عيسى بن مريم عليه السلام ، كما كان يحترمهم جميعا ويبجل السيدة مريم العذراء . ومنذ البداية كان الإسلام باعتباره دينًا جاء لكى يكمل الديانات التوحيدية السابقة، لا لكى يدمرها . ولاشك فى أن هذا التراث المشترك قد ساعد النصارى على اعتناق الإسلام. ومن جوانب عديدة كان نجاح الحكم الإسلامى نتيجة للسياسة التى اتبعها المسلمون تجاه المغلوبين ؛ فقد كان من الأفضل دائما عقد الصلح والاستسلام بدلاً من الحرب والقتال. وهو الأمر الذى أدى إلى بناء أساس سلمى للعلاقات بين الجانبين . ولم يكن مكنًا أن تجرى عملية الأسلمة والتعريب التى حدثت على مدى القرنين أو القرون الثلاثة التالية لو لم يكن الفتح قد نجح على المستوى العسكرى والسياسى أولاً.

والحقيقة القائلة بأن الأسلمة والتعريب كانت عملية تدريجية وسلمية تماماً نتيجة أن مزيداً من الناس أرادوا الاندماج فى الكيان الحضارى الذى يعيشون فى رحابه ، كما أرادوا أن يسهموا فى الثقافة السائدة فى عصرهم ويشاركوا فيها .

ومن ناحية أخرى، فإننا ربما لانبالغ إذا قلنا إن الحكم الإسلامى هو الذى أنقذ هذه الكنائس الأرثوذكسية من الاضطهاد والعداء البيزنطى ، وضمن بقاءها حتى وقتنا الحالى؛ وهى حقيقة ربما تتناقض ظاهرياً مع حقيقة أخرى مؤداها أن عدداً كبيراً من أتباع هذه الكنائس الأرثوذكسية تخلوا عن كنائسهم واعتنقوا الإسلام لأسباب متعددة . ومن اللافت للنظر أن السلطات الإسلامية أقامت علاقات طيبة وناجحة مع الكنائس المحلية التى دخلت تحت سلطانهم. وكان الأساس الشرعى لهذه العلاقات قائماً على اعتبار أنهم من «أهل الذمة» الذين تتعهد السلطات بحمايتهم ، وحماية أموالهم وممتلكاتهم ، وضمان حرية العقيدة وأمن كنائسهم فى مقابل الجزية، والتعهد بعدم مساعدة أعداء المسلمين، أو إيذاء المسلمين .

القسم الثانى

أوربا والعالم والإسلامى

التطور التاريخى لصورة الآخر

من القرن الأول حتى العاشر الهجرى

من السابع إلى السادس عشر الميلادى

مدخـل

لم يكن الدين السـبب فى الصـراع بين البـشـر فى أى زمـان ومكان ؛ وإنما كان دائمًا المبرر والغطاء لأطماع الاقتصاد ، وطموحات السياسة ، ونيران الحرب . يصدق هذا على العلاقة بين أوربا والعالم الإسلامى على مدى أربعة عشر قرنًا من الزمان كما يصدق على العلاقات بين المجتمعات البشرية الأخرى. ومن المثير أيضًا أن هذه العوامل ذاتها تدفع أيضًا إلى التفاهم ، والتفاعل ، بل والتقارب أحيانًا . ويصدق هذا أيضًا على تاريخ العلاقة ما بين أوربا والعالم الإسلامى . إذ كانت العلاقة بين الجانبين نموذجًا للعلاقات بين الجيران حربًا وسلامًا ، ومنافسة وتعاون ، عداوة واعتماداً متبادلاً على الآخر. وهكذا شأن البشر عندما يتجاورون فى كيانات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية . ولا يكون للدين فى مثل هذه العلاقات التى تمور بالحيوية والتفاعل ، سوى دور المبرر والغطاء .

ولسنا بحاجة إلى أن نكرر ما هو معروف بالضرورة من أن إيمان المسلم لايكتمل سوى بإيمانه بالرسل والأنبياء السابقين على ظهور الإسلام، كما أننا لانحتاج إلى تكرار ما هو معروف من اشتراك المسلمين والمسيحيين فى فى ممارسات دينية متشابهة ، فهم يتعبدون فى نفس الأماكن المقدسة بفلسطين ، ويجلون نفس أبطال قصص القرآن الكريم والكتاب المقدس من الرسل والأنبياء. ومع ذلك كانت هناك فوارق أساسية بين الديانتين تشكل حواجز مانعة أمام المؤمنين بكل منهما فى قبول الآخر:

وربما كان ذلك سبباً من الأسباب التى أذكت العداوة المتبادلة بين الطرفين عند خطوط التماس بين العالم الإسلامى والعالم المسيحى : من إسبانيا عبر جنوب إيطاليا وصولاً إلى الأرض المقدسة فى فلسطين شرق البحر المتوسط.

كانت حركة الفتوح الإسلامية الناجحة ، والتى بدأت منذ القرن الهجرى الأول / السابع الميلادى، قد قسمت عالم البحر المتوسط إلى ثلاث مناطق حضارية : الحضارة البيزنطية التى تمركزت حول القسطنطينية وشملت ما بقى من أملاكها فى آسيا الصغرى والبلقان وتدين بالمسيحية الأرثوذكسية، والحضارة العربية الإسلامية التى ضمت العواصم القديمة فى شرق المتوسط وجنوبه ، وعمقها البشرى والجغرافى الممتد شرقًا صوب الصين ، ثم حضارة أوربا العصور الوسطى الباكرة التى تمركزت حول الكنيسة الكاثوليكية بزعامة البابا فى روما. وكانت خطوط التماس بين الحضارتين المسيحيتين والحضارة العربية الإسلامية تتمثل فى آسيا الصغرى وأعالى بلاد الشام ، وجنوب إيطاليا وجزر البحر المتوسط، ثم إسبانيا فى الغرب حيث قامت دولة مسلمة استمرت فى الوجود حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى .

والمثير فى الأمر أن نقطة التماس الأساسية فى الشرق (الدولة البيزنطية) ونقطة التماس فى الغرب (الأندلس المسلمة) سقطتا فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر، إيذانًا ببدء مرحلة جديدة بين العالم الإسلامى والعالم الأوربى . ولم تكن العداوة بين الطرفين مستمرة فى كل الأوقات فى جميع الأماكن . فمن وجهة النظر الأوربية مرّت العلاقات

الإسلامية المسيحية بثلاث مراحل فيما بين القرن السابع والقرن الخامس عشر الميلاديين. وفى أثناء هذه المراحل الثلاث ، تغيرت المواقف الأوربية من الرفض إلى المحاولات الواعية المتعاطفة لفهم الإسلام والمسلمين . ومن وجة نظر المسلمين مرت العلاقات مع أوربا بثلاث مراحل أيضًا- ولكنها مختلفة بطبيعة الحال- من الغزو إلى التجاهل والازدراء ، ثم العداوة ، ثم التفاهم والاعتماد .

فى أثناء حركة الفتوح الإسلامية (القرنين الأول والثانى للهجرة - السابع والثامن الميلاديين) اجتاحت جيوش المسلمين مناطق شرق المتوسط (سوريا وفلسطين) وجنوبه (مصر وشمال أفريقيا) وعبرت المضيق لتستولى على معظم شبه الجزيرة الأيبيرية، وحولت البحر المتوسط إلى بحيرة إسلامية ؛ وفيما بعد دخلت صقلية وجنوب إيطاليا تحت الحكم الإسلامى لفترة من الزمان . وبات الوجود الإسلامى محيطًا بأوربا بحيث كان هناك فى الدوائر الأوربية دائمًا ذلك الشعور المقلق بوجود عدو قوى على الأبواب. وعلى الرغم من أن شارل مارتل قد هزم المسلمين عند تور- بواتييه وأوقف الزحف الإسلامى داخل أوربا ؛ فإن الدول الجرمانية التى قامت على أرض أوربا نتيجة الغزوات الجرمانية (القرن الخامس- القرن السابع الميلادى) لم تكن قد وصلت إلى درجة النضج السياسى التى تمكنها من التصدى الحقيقى للمسلمين . ومن ناحية أخرى ، أدرك البيزنطيون مبكرًا أن التعايش مع المسلمين يمكن أن يكون حلاً عمليًا ومريحًا للطرفين. وكان طبيعيًا فى هذه المرحلة أن يعبر المسيحيون عن تنويعة من الآراء السلبية والايجابية حول المسلمين وديانتهم . ولكن مقارنة

الآراء السلبية، فى تلك المرحلة الأولى بتلك الآراء الهستيرية التى شهدتها الفترة الثانية (وهى فترة الحروب الصليبية) ، تكشف عن أنها كانت آراء معتدلة متزنة نسبيًا . ثم تلت ذلك فترة محاولة الفهم عن طريق الترجمة والنقل ؛ لتصل إلى ازدهار حركة الاستشراق فى خط مواز لنمو حركة الاستعمار الأوربى على حساب العالم المسلم.

وفى رأيى أن مشروعية هذه الدراسة تقوم على أساس محاولة إخماد نيران العداوة والكراهية التى يؤججها الآن فريق من الغُلاة والمتطرفين على كلا الجانبين : المسلم والغربى ؛ وعلى الرغم من أن التاريخ المشترك بينهما امتد منذ القرن الهجرى الأول/ السابع الميلادى حتى الآن ، فإن أولئك المتطرفين يتجاهلون الكثير من تفاصيل هذا التراث المشترك ؛ فهم ينظرون إلى الغرب باعتباره كتلة واحدة من ناحية ، وعلى الجانب المقابل ينظرون إلى العالم المسلم باعتباره كتله واحده من ناحية ، وعلى الجانب المقابل ينظرون إلى العالم المسلم باعتباره كتلة واحدة صماء بلا تفاصيل من ناحية أخرى.

هذه النظرة السطحية تتجاهل حقائق تاريخ العلاقات بين المسلمين والغرب ؛ فمن الناحية التاريخية كانت العلاقات تتسم بالشد والجذب، وتتراوح بين السلب والإيجاب كما تحكمها التفاعلات الهادئة حينًا والتوترات العنيفة حينًا آخر. ومن الناحية الجغرافية فإن مسرح هذه العلاقات كان عالم البحر المتوسط حتى أواخر القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى على أقل تقدير . ثم انتقل المسرح الذى جرى عليه التفاعل بين المسلمين والغرب إلى مناطق جغرافية جديدة ؛ إذ حلت الدولة

العثمانية محل دولة سلاطين المماليك فى قيادة العالم المسلم؛ وبذلك انتقلت حدود التماس إلى شرق أوربا والبلقان ووسط أوربا . ولم يكن هذا مجرد انتقال جغرافى ؛ وإنما كان تحولاً نوعيًا فى شكل العلاقات وعنوانًا على مرحلة جديدة بخصائص جديدة.

ومن جهة أخرى ، نقلت التحركات الاستعمارية الأوربية خطوط التماس بين الجانبين إلى مناطق المحيط الهندى، وجنوب شرق آسيا ، بعد معرفة الأوربيين للطريق البحرى حول أفريقيا ليصل بين المناطق الشرق الآسيوية والموانئ الأوربية . ثم ازداد تشابك هذه الخيوط بعد أن نجحت القوى الاستعمارية الأوربية فى السيطرة على مناطق كثيرة من أراضى المسلمين . وظل الحال كذلك حتى بروز القوة الأمريكية ، ودورها العالمى ، بعد الحرب العالمية الثانية ؛ وتصاعد هذا الدور بالدرجة التى جعلت خيوط العلاقات الإسلامية / الغربية تتشابك وتتقاطع فى كل مكان بالعالم المعاصر بحيث صار العالم كله مسرح التفاعل بين كل من المسلمين والغرب الأوربى الأمريكى .

ويستدعى البحث فى البعد التاريخى لهذه العلاقات أن تحاول تقسيمها إلى فترات زمنية أحسب أنها سوف تساعدنا على الفهم والإلمام بالحقائق التاريخية المتوارية خلف ضبابية الهجمات ، والهجمات المضادة على كلا الجانبين .

* * *

(١)

تأثير حركة الفتوح الإسلامية

إذا كانت حركة الفتوح الإسلامية ، التى بدأت فى القرن السابع الميلادى، قد أدت إلى تقسيم عالم البحر المتوسط إلى حضارات ثلاث؛ البيزنطية، والإسلامية ، والأوربية كما أسلفنا القول؛ فقد كان اللقاء والتفاعل بين هذه التجمعات الثقافية ، واللغوية ، والاقتصادية الثلاثة يمثل واحداً من أهم موضوعات تاريخ العصور الوسطى. إذ كانت كل من هذه الحضارات الثلاث وريثة للإمبراطورية الرومانية ، وللفترة الكلاسيكية بشكل عام ، بدرجة أو بأخرى . فقد كانت الإمبراطورية البيزنطية (التى عرفها العرب باسم «الروم» ، وعرفها اللاتين باسم «اليونانيين») تمثِّل الاستمرارية المباشرة للقانون والإدارة والفكر الرومانى والإغريقى ، كما أن أوربا الغربية الكاثوليكية ورثت الكثير من التراث الرومانى ؛ بل ورثت روما ذاتها عاصمة الإمبراطورية الرومانية ورمزها ؛ فضلاً عن اللغة اللاتينية والفكر الرومانى، على حين استوعب العالم الإسلامى بعض جوانب التنظيم الرومانى ، وتراث الفلسفة والعلوم اليونانية والرومانية.

لقد انتصر المسلمون على الروم وانتزعوا منهم السواحل الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط فى غضون سنوات قليلة، وتحولت هذه المناطق

التى كانت مسيحية إلى مناطق إسلامية بعد أجيال قليلة. وهنا ينبغى أن نلاحظ أنه على الرغم من أن المسلمين والمسيحيين كانوا يقومون ببعض الممارسات الدينية المتشابهة ، ويشتركون فى التعبد فى أماكن مقدسة (مثل بيت المقدس) ، ويبجلون الأنبياء وأبطال قصص الكتاب المقدس والقرآن الكريم؛ فقد كانت هناك حواجز حقيقية تحول بين اتفاق أتباع كل من هاتين الديانتين تتعلق بألوهية المسيح، والثالوث ، وحادثة الصلب من ناحية . وعدم اعتراف المسيحيين بالإسلام وبالنبى عليه الصلاة والسلام من ناحية أخرى.

وربما كانت حقيقة اشتراك الجانبين فى بعض الأمور هى التى أذكت نيران العداوة المتبادلة بين الطرفين . وقد اتضحت هذه العداوة بشكل أساسى عند خطوط التماس التى تقابل عندها العالم الإسلامى والعالم المسيحى؛ من إسبانيا عبر جنوب إيطاليا وصقلية إلى الأماكن المقدسة فوق الأرض العربية فى فلسطين . ومن المهم أن نشير إلى أن أسباب هذه العداوة لم تكون دينية فى جوهرها ؛ لأن دوافعها وأهدافها كانت سياسية واقتصادية وعسكرية وكان الدين غطاء ومبرراً لها على الدوام . ومن المثير أن التشابهات الدينية بين المسلمين والمسيحيين كانت تستثير العداوة بينهما بدلاً من أن تدعو إلى إخمادها . ومن ناحية أخرى كان جهل أوربا المسيحية بحقيقة الإسلام ، وعدم وضوحه بالنسبة لبيزنطة ، من أهم أسباب تلك العداوة.

ويلفت النظر هنا أن المسيحيين فى المرحلة التى امتدت من القرن السابع حتى الحروب الصليبية فى القرن الحادى عشر عبّروا عن تنويعة

من الآراء السلبية والإيجابية على حد سواء عن الدين الإسلامى، وعن النبى عليه الصلاة والسلام. ولابد للمرء أن يتوقع أن ردود الفعل الأولى من جانب المسيحيين كانت سلبية فى المناطق التى شهدت المواجهات بين الإسلام والمسيحية . ولكنها كانت ، على أية حال، آراء متزنة نسبياً إذا ما قورنت بالآراء والمزاعم الهيستيرية التى ظهرت فى عصر الحروب الصليبية . فعلى سبيل المثال، وصف الأسقف الأرمنى سيبيوس Sebeos النبى محمد بأنه تاجر وخبير بالعهد القديم وشريعة التوراة، وأنه علم شعبه الإيمان بإله إبراهيم الواحد . وتقبل هذا الأسقف فكرة أن المسلمين هم أبناء إسماعيل ، أول أولاد إبراهيم من هاجر المصرية.

ومن ناحية أخرى كانت مصادر تلك الفترة فى الغرب الأوربى تستخدم كلمة أبناء هاجر Agarenes لوصف العرب، على الرغم من أن كلمة «سراكنة» Saracens ، كانت شائعة أيضًا، ثم صارت الكلمة الأكثر شيوعًا فيما بعد . وقد جاءت الكلمة اليونانية الأصل Saracens من اشتقاق غير معروف المصدر؛ على الرغم من أن هناك قدراً من الشك فى أن تكون مشتقة من اسم «سارة» زوجة إبراهيم. وفى الاستخدام اليونانى قبل الإسلام كانت كلمة «سراكنة» مرادفة لكلمة «عرب» ولكن الاسم «إسماعيليين» الذى استخدم للدلالة على المسلمين فيما بعد ، كان يحمل أيضا معنى أبناء هاجر Agarenes، على اعتبار أن اسماعيل نفسه ابن «هاجر» زوجة ابراهيم، عليهم السلام جميعًا. بيد أن كلمة سراكنة Sar-acens التى شاع استخدامها آنذاك فى الغرب الأوربى لكى تدل على المسلمين، كانت تعنى وصف جماعة تضم العرب والأتراك وغيرهم من

المسلمين الذين يتحدثون العربية بغض النظر عن أصولهم العرقية. وقد وجدنا فى النصوص التى أوردناها فى القسم الأول من هذا الكتاب أن غالبية النصوص تشير إلى المسلمين على أنهم بنو اسماعيل .

ومن المثير أيضًا أن المصادر البيزنطية لم تهتم بالإسلام فى تلك الفترة الباكرة ؛ فقد أغفلت ذكر الرسالة التى ذكرت المصادر التاريخية العربية أن النبى عليه الصلاة والسلام قد أرسلها إلى الإمبراطور البيزنطى هرقل (٦١٠- ٦٤١م) . وعندما كتب زانوراس Zanoras ، فى القرن التاسع كان هناك قدر كبير من الخلط فى رواية الأحداث، فضلاً عن النغمة العدائية الواضحة ضد الإسلام والمسلمين؛ فقد ذكر زانوراس أن النبى نفسه قد فاوض الإمبراطور هرقل لعقد معاهدة تضمن حرية التجارة والسفر بين شبه الجزيرة العربية وأقاليم الإمبراطور البيزنطية . وعلى الرغم من أن هذه المفاوضات لم تحدث بين النبى عليه الصلاة والسلام والإمبراطور، فإن الاتفاق نفسه تم بالفعل بين المسلمين والروم فى هذا الدور الباكر من تاريخ العلاقات الإسلامية المسيحية.

ويبدو أن المؤرخ البيزنطى ثيوفانيس Theophnis، الذى كتب فى مطلع القرن التاسع الميلادى، كان أول من سجَّل شيئًا عن الرسول وعن المسلمين، وقد اتسمت كتابته بقدر من الحياد والموضوعية النسبية؛ ولكن المؤرخين الذين جاءوا بعده، وأهمهم زانوراس، كانوا أكثر عدائية تجاه المسلمين. وربما لم يكن البيزنطيون يدركون حقيقة الإسلام فى هذا الدور الباكر ؛ بل إن بعضهم ظن أن هناك تشابهًا بين الإسلام ومذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزيتى) فى الديانة المسيحية. وربما كان هذا السبب وراء

تجاهل المؤرخين البيزنطيين للأحداث التى جرت فى شبه الجزيرة العربية منذ البعثة النبوية حتى بداية حركة الفتوح الإسلامية فى القرن السابع الميلادى. وهو ما أثبتناه بقدر كبير من التفصيل فى القسم الأول .

كان رجال الكنيسة فى المناطق الواقعة على السواحل الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط قد عبروا عن آراء تكشف عن جهل وعميق وعدم معرفة بالإسلام؛ كما تكشف عن عداوة متوحشة للمسلمين مثلما جاء فى كتابات صفرونيوس أسقف بيت المقدس الذى عاصر الفتح الإسلامى لفلسطين ؛ فقد أنكر بعضهم أن المسلمين موحدون ، كما أن يوحنا النقيوسى ، الأسقف المصرى الذى شهد أحداث الفتح الإسلامى لمصر، كتبَ عن المسلمين ونبيهم كلامًا يحمل من السباب والشتائم أكثر مما يحمل أى وصف . ومن ناحية أخرى، خلط رجال الكنيسة الشرقية بين العرب والمسلمين؛ فقد وصفوا المسلمين بأنهم أبناء إسماعيل على الرغم من أن المسلمين كانوا من العرب ومن غير العرب، إذْ اعتمد أولئك القساوسة المسيحيون على روايات العهد القديم فيما يخص أنساب العرب، وعمموا التسمية على المسلمين جميعًا (أنظر القسم الأول من هذا الكتاب)

وهناك تقسيم للأنساب العربية لدى العرب أنفسهم لايجعل العرب جميعًا من نسل إسماعيل وهاجر ، وإنما يجعل هذا القسم من العرب المستعربة على حين يشير إلى قسم أقدم هم العرب العاربة . وعلى سبيل المثال ، فإن بنيامين بطريرك الأقباط الأرثوذكس فى مصر زمن الفتح الإسلامى، والذى كان هاربًا فى كهوف الصحراء من الاضطهاد البيزنطى، طلب من أتباعه

مساعدة «الإسماعيليين» لأن مشيئة الرب اقتضت انتصارهم على الروم. كما أن أحد الرهبان النساطرة زعم أن المسلمين أحفاد إسماعيل ، وأنهم يعبدون رب إبراهيم الواحد .

هذا الخلط والارتباك الذى ميز كتابات المسيحيين فى هذه الفترة الباكرة، كان ناجمًا من عدم فهم حقيقة الإسلام، وعدم إدراك أنه ديانة سماوية جديدة لاتنكر ما سبقها في اليهودية والمسيحية من ناحية، وعدم الاهتمام بظهور الإسلام وما ترتب عليه من تطورات سياسية وعسكرية فى شبه الجزيرة العربية من ناحية أخرى . ولم يبدأ المسيحيون فى إدراك حقيقة الدين الجديد، والقوة السياسية- العسكرية التى تبلورت حوله سوى عندما بدأت معارك حركة الفتوح الإسلامية لكى تستمر على مدى ما تبقى من القرن السابع، وتمتد إلى القرن الثامن. وهنا لابد من أن نفرق بين موقف المسيحيين الذين بقوا فى المناطق التى خضعت لحكم المسلمين، وموقف أولئك المسيحيين الذين بقوا تحت الحكم البيزنطى، أو أولئك المسيحيين الغربيين الذين كان الإسلام بالنسبة لهم شيئًا غريبًا ، وبعيداً .

فبالنسبة للمسيحيين الذين خضعوا للحكم الإسلامى كانت المعاملة الطيبة التى عاملهم بها المسلمون، بعد استقرار الحكم وانتهاء القتال بما يصحبه بالضرورة من تدمير وقتل ، قد أثرت على مواقفهم وكتاباتهم . وربما يمكن للبعض أن يجادلوا بأن أولئك الكتاب كانوا تحت السيطرة الإسلامية، ومن ثم كان من الطبيعى أن يحترزوا لأنفسهم بحيث يتخذون مواقف معتدلة نسبيًا . ولكننا نرى أنه بالنسبة لما هو معروف من حقائق

الصراع بين الدولة البيزنطية والمسيحيين المونوفيزيتيين أنصار الطبيعة الواحدة فى بلاد الشام ومصر، وغيرهم من الجماعات المسيحية حول شواطئ المتوسط قبل الفتح العربى؛ كان المسيحيون الشرقيون أسعد حالاً تحت الحكم الإسلامى؛ ومن ثم جاءت مواقفهم تجاه سادتهم الجدد من المسلمين أكثر اعتدالاً . وعلى الرغم من أنهم قد رفضوا الإسلام، وبقوا على ديانتهم المسيحية، فإن النغمة العدائية فى آرائهم لم تكن فى مثل حدة مواقف المسيحيين البيزنطيين ، أو المسيحيين فى غرب أوربا .

ويرى بعض الباحثين أن هذا الانطباع ربما يكون ناجمًا عن حقيقة أن عددًا قليلاً فقط من الكتابات المسيحية هى التى نجت من عوادى الزمان؛ بيد أن الكتاب المسيحيين الذين عاشوا تحت الحكم الإسلامى فى تلك الفترة الباكرة كانت لهم تجربة مباشرة مع المسلمين، وإن لم تكن لديهم القدرة على فهم الإسلام بصورة كاملة . وبالتالى فإن مواقفهم والأشكال التى كانوا يعبرون بها عن آرائهم تمثل نماذج مثيرة عن العلاقات الإسلامية المسيحية فى زمانهم .

ومن ناحية أخرى، فإن المسيحيين الذين بقوا تحت الحكم البيزنطى كانوا يحملون فى أذهانهم صورة عدائية تمامًا للمسلمين ، ولاسيما فى الأوساط الكنسية. فهناك وثيقة عرضت على المجمع المسكونى السابع ، الذى انعقد بالقسطنطينية سنة ٧٨٧م تشير إلى مدى عداوة الكنيسة البيزنطية للمسلمين . فهذه الوثيقة تتحدث عن موضوع تحريم الصور والتماثيل (اللا أيقونية) وتتناول مدى التأثير الإسلامى فى هذه المشكلة التى شغلت حيزًا مهمًا من تاريخ الدولة البيزنطية والغرب الأوربى على

السواء؛ وتصف الخليفة الأموى «يزيد بن عبد الملك » بأنه رجل متهور غير متزن، وتتهمه باستخدام أحد السحرة اليهود لنشر تحريم الصور والتماثيل فى أقاليم الدولة البيزنطية، وتتحدث الوثيقة نفسها عن العرب واليهود فتصفهم بأنهم الملاعين الكفرة.

أما المسيحيون فى الغرب الأوربى فقد كان موقفهم مختلفًا بشكل جذرى فى تلك الفترة الباكرة . فقد كان الإسلام بالنسبة لهم شيئًا بعيداً . حقيقة أن الإسلام قد ظهر فى شبه الجزيرة العربية فى الوقت الذى كان الإنجليز على وثنيتهم ويحاول المبشرون المسيحيون تنصيرهم ؛ ولكن الفروق بين الحالتين كانت جسيمة ومذهلة . وتتمثل أوضح هذه الفروق فى أن العرب قد حملوا الإسلام لينشروه بين حضارات عريقة، وواعية ، ولها آدابها المكتوبة ، بل ولها دياناتها (ومنها المسيحية واليهودية بطبيعة الحال) ؛ ولكن المبشرين الذين جاءوا بالمسيحية إلى أقصى الغرب والشمال الأوربى حملوها إلى مجتمع أمى كان فى حالة تلقى واستقبال ولم يكن قادراً على العطاء فى مجال التطور الفكرى. لقد كان الجزء اللاتينى من عالم البحر المتوسط بقايا شاحبة من التراث الكلاسيكى، على حين كانت المناطق التى ضمها الإسلام تحت رايته وتضم الشعوب الناطقة بالفارسية ، واليونانية ، والسريانية ، أرقى ثقافة ، وأكثر (تقدمية) داخل مناطق نفوذها المباشر، كما تسربت التأثيرات الصينية والهندية إلى عالم الإسلام فى فترات لاحقة .

ويتمثل الفرق الثانى فى أن لكل من الديانة الإسلامية والمسيحية «كتاب» يقدسه أتباع كل منهما ؛ فالمسيحيون لديهم الكتاب المقدس

بقسميه؛ العهد القديم والعهد الجديد، والمسلمون لديهم القرآن الكريم؛ لكن الفارق هنا كان يتمثل فى أن القرآن الكريم جاء ومعه لغة جديدة فرضها على العالم القديم، على حين كانت الكنيسة الكاثوليكية اللاتينية تحمل لغة الغـرب الأوربى الأوربى القـديم (أى اللاتـينيـة) إلى أمم جـديدة لم تكن تعرفها؛ وهى الشعوب الجرمانية التى اجتاحت أوربا واستوطنتها فيما بين القرن الخامس والقرن السابع الميلاديين*. وربما كان هذا هو السبب فى نغمة «البعد» التى تميز كتابات الأوربيين الغربيين فى العـصور الوسطى الباكرة عن المسلمين. ولكن الموقف كان مختلفًا بطبيعة الحال، عند الحديث عن إسبانيا .

ففى إسبانيا ربط بعض الكتاب المسيحيين بين ظهور الإسلام وقرب ظهـور المسيح الدجال؛ على الرغم من أن حـال المسـيحـيين تحت الحكم الإسلامى لم تكن شديدة الوطأة إذا مـا قورنت بمـا كانت عليه تحت حكم الفـيـزيقـوط Visigoths ، لأن العرب نهجوا نـهجًا شـديد التسامح فى إسبـانيا بعـد الفتح الإسلامى (٧١١-٧١٣م) مع النصـارى. وقـد حـفظ المسيحـيون جميل المسلمين الذين تركوا لهم حرية العقيدة دونما تدخل.

---

* لقد فرضت اللغة العربية نفسها على الشعوب العريقة لغة للقرآن الكريم ، ولكن الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس لم تستطع أن تجعلها لغة الشعوب الجرمانية الجديدة، فسرعان ما تطورت اللغات واللهجات المحلية للشعوب الجرمانية إلى لغات قومية فى غضون ستة قرون أو أكثر قليلاً . ومن ناحية أخرى كان البعد اللغوى يمثل حاجزًا أمام معرفة الغرب الأوربى بالإسلام ، ولاسيما فى مناطق شمال أوربا وغربها .

وطوال القرن الثامن الميلادى كان الحال هادئًا . وهناك مؤرخة تم تأليفها فى قرطبة ١٣٧هـ / ٧٥٤م تشهد على أن رجال الكنيسة الإسبانية أنفسهم لم يكونوا ناقمين على الحكومة الإسلامية ، وذلك على الرغم من أن مؤلف هذه المؤرخة (التى نُسبت خطأ إلى إيزيدور الباجىIsidore de Beja) كان من القساوسة الذين يكرهون الإسلام وربما كان مؤلف هذه المؤرخة التى تعرف بسنة تأليفها «مؤرخة سنة ٧٥٤م» قد عاش فى قرطبة ، وربما كان قد بلغ من العمر ما جعله يحمل ذكريات شخصية عن سقوط مملكة القيزيقوط . وتوحى ألفته مع تاريخ الأندلس وشئونه السياسية بأنه ربما كان موظفًا لدى المسلمين فى الجهاز الإدارى. وقد عكف على كتابة مؤرخة عالمية تبدأ قبل ثمانين سنة من الوقت الذى كتب فيه . ويلفت النظر أن المؤلف لايذكر فى أى موضع من كتابه حقيقة أن المسلمين كانوا أتباع دين جديد.

ويذكر كاتب «مؤرخة ٧٥٤م فقط أن السراكنة (المسلمين) ثاروا وغزوا بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية وبلاد النهرين « **... بفضل الخداع ، لا بقوة زعيمهم محمد، ونهبوا الأقاليم المجاورة ، ومضوا من خلال الغزوات السرية، لابواسطة الهجمات الصريحة ..**» وعلى الرغم من هذه اللهجة المراوغة ، فإن الكاتب يقدم تاريخًا يكاد يكون واقعيا عن الخلفاء المسلمين الأوائل نجده متداخلاً مع تاريخ الإمبراطورية البيزنطية . ويرى هذا الرجل الذى كتب بعدما يزيد على مائة سنة من ظهور الإسلام أن **«يزيد بن معاوية» (٦٨٠-٦٨٣م) ، كان من الخلفاء الصالحين ، وأنه كان «... أكثر أبناء معاوية مدعاة للسرور...» ويصفه بأنه كان «... محبوبًا**

للغاية من جميع أهل الأرض التى كانت خاضعة لحكمه . فإنه لم يسعْ أبداً مثلما هى عادة الرجال، إلى أى مجد لأنه كان ملكًا ، ولكنه عاش حياة أى مواطن عادى مع الآخرين...» .

ولكن صاحب مؤرخة ٧٥٤م يتخذ موقفًا عنيفا عندما يعرض لأحداث الفتح الإسلامى للأندلس، ويصم موسى بن نصير باعتباره بربريا عنيفا : «... لقد دمّر المدن الجميلة ، وأحرقها بالنيران، وحكم بالصلب على الرجال ذوى المكانة ، وذبح الأطفال والشباب بالسيف . وإذ أشاع الرعب بهذه الطريقة ، توسلت بعض المدن من أجل السلام، ومنحها السراكنة ما طلبوه فى الحال. وعندما رفض المواطنون فيما بعد ما كانوا قد قبلوه بدافع الخوف والإرهاب ، حاولوا الهرب إلى الجبال حيث خاطروا بمواجهة الجوع وأنواع مختلفة من الموت...»

ثم تعود المؤرخة إلى لهجتها الواقعية ؛ ويذكر المؤلف إن هناك حكامًا مسلمين صالحين مثلما يوجد حكام طالحون ، كما أن هناك حكاما مسيحيين صالحين وآخرين طالحين . وتتحدث المؤرخة عن معركة بواتييه أو بلاط الشهداء، التى حدثت سنة ١١٥هـ / ٧٣٢م بين قوات عبد الرحمن الغافقى وقوات شارل مارتل ، حاكم الفرنجة وجد الامبراطور شارلمان الشهير . وقد لقيت القوات الإسلامية هزيمة فادحة أمام قوات الفرنجة . وقد سمع عن هذه المعركة الإنجليزى بيديه Bede القابع فى ديره البعيد فى نورثمبريا، وكتب : **«... إن السراكنة (المسلمين) الذين الذين كانوا قد خربوا بلاد الغال قد لقوا جزاءهم عقابًا على غدرهم...» .**

ولكن مؤلف مؤرخة ٧٥٤م، الذى كتب بعد عشرين سنة تقريبًا من الأحداث كتب ما يوحي بأنه كان علم ومعرفة جيدة بالأحداث . وربما يكون قد استقى مادة روايته من الجنود المسلمين الذين نجوا من الحملة وعادوا إلى قرطبة . وتقدم هذه المؤرخة تفصيلات مفيدة للغاية: ولكنها لاتحمل أى شعور بالانتصار المسيحى. وتحكى هذه المؤرخة أحداثا تاريخية تشى بأن مؤلفها كان عارفًا بأحداث المشرق الإسلامى مثلما كان يعرف الأحداث الجارية فى الأندلس .

لقد عاش كاتب مؤرخة سنة ٧٥٤م وعمل فى عالم كانت التفاعلات فيه بين المسلمين والمسيحيين يومية وفعلية، ومن الواضح أنه كان مرتبطًا على نحو ما بدوائر الحكم الإسلامى فى قرطبة محافظًا على هويته المسيحية .

وفى القرن الثامن الميلادى كانت علاقة أوربا بالمسلمين فى أدنى مستوياتها بسبب «**البعد**» و«**الجهل**» . فما يكن هناك ما يعين الأوربيين على معرفة الإسلام أو المسلمين سواء فى تراثهم القديم، أو فى ديانتهم الجديدة. ولم يكن جوار المسلمين فى الأندلس يعنى لهم شيئًا فى هذا الموقف ؛ فقد ظل البعد «**المعنوى**» ، والبعد «**اللغوى**» قائمًا على الرغم من الجوار الجغرافى، كما بقى «**الجهل**» مطبقًا يعززه الخوف، والحسد ، والعداء ضد هذا الجار«**المختلف**» . وربما لم يكن هناك مكان فى أوربا أبعد عن معارك الفتوح الإسلامية من إنجلترا : وتشهد على ذلك قصة سانت ويلليبالد St. Willibald الذى سافر فى رحلة حج قرب منتصف القرن الثامن الميلادى، وعندما وصل إلى بلاد الشام تم القبض عليه هو ورفاقه ، ولم يعرف المسلمون أين بلادهم حينما قال لهم أولئك الحجاج

إنهم من انجلترا التى لم يكن العرب قد سمعوا بها أو عرفوا موقعها على خارطة الدنيا. وظنوهم من الجواسيس . وتم إطلاق سراحهم بفضل إسبانى كان يعمل فى بلاط الخليفة بدمشق . فى هذه القصة نوع من التأكيد على بعد إنجلترا عن عالم البحر المتوسط الذى سيطر عليه العرب وهو ما يصدق أيضًا على أصقاع الشمال الأوربى البعيدة عن البحر المتوسط. مثل شبه جزيرة اسكنديناڤيا التى تضم السويد والنرويج والدانمرك.

كان وجود الإسلام يمثل أكبر مشكلة واجهت العالم الأوربى فى العصور الوسطى ؛ وقد تجلت هذه المشكلة على عدة مستويات . فعلى المستوى العسكرى والسياسى استدعت هذه المشكلة ضرورة التعامل الديلوماسى والاحتكاك العسكرى الذى تصاعد فى الفترة ما بين القرن السابع والقرن الحادى عشر حتى تبلور فى الحملات الصليبية التى جردها الغرب الكاثوليكى ضد المنطقة العربية ، كما استدعت العمل الفكرى لفهم السبب فى انتشار الإسلام بذلك الشكل الذى أخاف أوربا . ومن ناحية أخرى كان لابد من حل مشكلات التعايش مع الإسلام فى عالم البحر المتوسط وإمكانيات التبادل التجارى مع المسلمين بداية من القرن التاسع فصاعداً . بيد أن المشكلة الأساسية التى واجهت الغرب الأوربى كانت مشكلة « معرفية» ؛ فقد كان الأوربيون يجهلون تمامًا سر وجود الإسلام: ما دوره الإلهى فى التاريخ الإنسانى ؟ هل كان من علامات نهاية العالم، أم كان مرحلة فى تطور الديانة المسيحية ؟ هرطقة ، أو انشقاق ، أم ديانة جديدة ؟ هل هو دين من عمل الإنسان أم من وسوسة الشيطان ؟ أم أنه تقليد هزلى فج للمسيحية ؟ هل هو نظام فكرى يستحق المعاملة باحترام ؟

(٢)

المشكلة المعرفية

كانت تلك الأسئلة المضنية المربكة تمسك بتلابيب العقل الأوربى لتشكل معضلة تاريخية مستعصية على الحل. كانت مشكلة معرفية تم المساس بها مسًا هينًا من خارجها ، ولم يكن من الممكن حل هذه المشكلة المعرفية دون المعرف اللغوية والأدبية التى لم يكن من السهل الحصول عليها بالنسبة للأوربيين آنذاك. ومن ناحية أخرى، تفاقمت مشكلة «الجهل» بالإسلام لأن المتعلمين الأوربيين كانوا من الرهبان ورجال الكنيسة الكاثوليكية الذين تملكهم الانحياز وغلب عليهم العداء ضد الإسلام والمسلمين ، كما وقعوا أسرى الرغبة القوية في «**عدم المعرفة**» خوفًا من أن يصيبهم الدنس إذا ما حاولوا «معرفة» شئ فى هذا الصدد فقد كانت مشكلة التعليم فى أوربا العصور الوسطى الباكرة تتمثل فى أن ما يزيد على ٩٥٪ من الذين تعلموا فى أوربا آنذاك تعلموا فى المدارس الديرية ، على حين تلقى الباقون تعليمهم فى المدارس الكاتدرائية . ولم يكن هناك وجود للمدارس العلمانية حتى القرن الثانى عشر الميلادى على الأقل. وقد انعكس هذا بطبيعة الحال على فكرة أوربا عن الإسلام من ناحية، وعلى الموقف «المعرفى» لهؤلاء المتعلمين من ناحية أخرى.

وفضلاً عن ذلك ، لم يكن هناك شئ فى تراث الغرب الأوربى القديم يمكن أن يساعد الأوربيين على فهم الإسلام ، أو معرفته ، خلال العصور الوسطى الباكرة . فقد كان الإسلام على عكس اليهودية، ظاهرة جديدة فى التاريخ الإنسانى ؛ كان ديناً جديداً جاء بكتاب يحمل كلام الله بلغة غريبة على الأوربيين . ولم يعرف الأوربيون عنه شيئًا فى ذلك الحين سوى تلك الدعاية النزقة التى روجها الكنسيون . وعلى المستوى الدنيوى كان نجاح الإسلام متجسداً فى وجوده القوى فى عالم البحر المتوسط وفى شبه الجزيرة الأيبيرية يمثل مشكلة مخيفة ومصدر قلق وتهديد دائم لأوربا فى تلك الفترة من تاريخها . فقد كان المسلمون بالنسبة لأوربا آنذاك «جاراً » قويًا وغنيًا ومخيفًا ، كما كانوا يستثيرون عوامل الحسد فى نفوس قادة المجتمع الأوربى فى تلك الفترة. التى كانت أوربا فيها مجتمعًا لم يدخل بعد فى مرحلة النمو.

وفى القرون الأولى من تاريخ العلاقات الإسلامية / الأوربية كان «الجهل» والعداوة من أبرز خصائص الموقف الأوربى من الإسلام والمسلمين ؛ بيد أننا لانستطيع تحديد هذا الموقف بشكل عام سواء من الناحية الزمنية ، أو من حيث النطاق الجغرافى. وثمة تفاوت فى المواقف بحسب طبيعة الأماكن التى تعاملت مع المسلمين، وبحسب درجة الوجود الإسلامى ومدى قربه أو بُعده .

كانت المشكلة الأولى التى واجهت المسيحيين عمومًا بشأن الإسلام تتعلق بحقيقة هذا الدين ، وماهيته ، ورسالته ، ونبيه، وطبيعة موقف الإسلام من المسيحية وعقائدها على المستوى اللاهوتى. كما تمثلت المشكلة

أيضًا على المستوى الدنيوى فى كيفية التعامل مع الوجود الإسلامى الناجح سياسيًا وعسكريًا ، والمزدهر اقتصاديًا ، والمتفوق حضاريًا . وهنا نكرر ما سبق أن ذكرناه عن أنه كان هناك قدر من الاختلاف الواضح بين موقف كل من المسيحية الشرقية ، والكنيسة الكاثوليكية التى تزعمتها البابوية من المسلمين ومن الإسلام. كما كان الأمر بالنسبة للمسيحيين فى المنطقة العربية مختلفا بشكل عام ، عنه فى الأندلس وأوربا .

ولم يكن هناك ما يمكن أن يساعد الغرب الأوربى فى العصور الوسطى على فهم الدين الإسلامى فلم يكن له مثيل عرفه الأوربيون فى تاريخهم من قبل ، كما أن اللغة العربية كانت مجهولة تماما فى أوربا آنذاك . وفى ذلك الحين كان نجاح الإسلام باهرًا ، كما كان المسلمون جارًا قويًا وغنيًا لأوربا يستثير فى نفوسهم مشاعر مختلفة ومتضاربة بين الحسد والجهل والعداوة؛ بحيث ارتسمت فى العقل الأوربى صورة عن المسلمين ترسم عالمًا من العنف والتخريب . وطوال القرون الأولى التى أعقبت ظهور الإسلام لم يحدث أى تطور حقيقى فى الموقف الأوربى بل ظلّ هذا الموقف ثابتًا بصورة نسبية حتى فترة الحروب الصليبية . وعلى الرغم من أن صورة العالم الذى يسوده العنف والتخريب لم تكن فى الحقيقة ناتجة عن قدوم العرب إلى أوربا فى غمار حركة الفتوح الإسلامية، فإن الشحن الدعائى فى القرن الحادى عشر (الذى خرجت أولى الحملات الصليبية فى نهايته) حفز الربط بين الإسلام والعنف والتخريب. ولقد كانت صور العنف والتخريب ترتبط فى الذاكرة الأوربية بأمم أخرى كثيرة أسبق فى وجودها

التاريخى من المسلمين ؛ ولم يكن العنف والتدمير الذى ارتبط بمعارك الفتوح الإسلامية فى أوربا متمايزاً عن أى «عنف» آخر حملته الذاكرة الأوربية فى تاريخها الذى شهد الكثير والكثير من الغزاة وعانى من موجات القتل والتدمير ، كما عرف فى خبرته التاريخية مدى ارتباط العنف بالأطماع الاقتصادية والمواقف السياسية. ولم يكن المسلمون الذين غزوا أوربا هم الذين «**اخترعوا**» العنف ، الذى لم يكن يمثل بالنسبة للأوربيين أمراً غير مألوف . ولكن الموقف تغير مع تيار الدعاية القاسية ضد الإسلام والمسلمين فى غمار الاستعداد للحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٥-١٠٩٩م؛ بحيث صار العنف مرتبطا فى الوجدان الأوربى بالإسلام والمسلمين.

وهنا ينبغى أن نضع فى الحسبان أنه كان هناك اختلاف فى المواقف داخل أوربا نفسها من الإسلام ، حتى فى هذه الفترة الباكرة. فقد كان الإسلام والمسلمون يشكلون مشكلة بحر متوسطية لا مشكلة أوربية عامة؛ إذ كانت إيطاليا وصقلية ، وجزر البحر المتوسط؛ فضلاً عن إسبانيا ، هى التى جربت الاحتكاك الفعلى بالمسلمين ، وعانت من الغزو والحرب كما أفادت من تقدم الحضارة العربية الإسلامية وذاقت حلاوة ثمارها لاسيما بعد أن هدأت الأمور بعد استقرار الحكم الإسلامى ولكن شمال أوربا وغربها كانت ترى فى المسلمين عدوا من بين عدة أعداء محتملين ، وكانت المشكلة بالنسبة لهذه الأنحاء مشكلة معرفية فى أساسها .

وسنجد نغمة تشى بالبعد الجغرافى والمعنوى فى كتابات شمال أوربا عن المسلمين فى عالم البحر المتوسط . لقد كان الإسلام لايشبه شيئًا آخر

فى تجربتهم التاريخية بمعنى أنه كان دينًا جديداً ومختلفًا عن الأديان التى عرفوها من قبل . وكانت هناك أوقات بدا فيها أن من المقبول بالنسبة للكتاب الأوربيين آنذاك كتابة الموضوع الذى يخص المسلمين اعتماداً على تخيلاتهم وتصوراتهم عن الإسلام والمسلمين، بحيث تبدو كتابة الموضوع كله وكأنها النتاج الوهمى لخيال شرير . ولم يكن هذا الموقف فى حقيقته سوى نتاج للجهل الذى تمت تغطيته باختراع الصورة الخيالية الشريرة للإسلام والمسلمين .

وعلى الجانب المسلم لم تكن المشكلة قائمة ، أو على الأقل قائمة بهذه الحدة. فلم تكن المسيحية أو السيد المسيح وقصته ومعجزة ولادته مسائل مجهولة بالنسبة للمسلمين . ذلك أن الوجود التاريخى للمسيحية قبل ظهور الإسلام فى المناطق التى صارت فيما بعد مناطق إسلامية وفر الكثير من المعلومات عن المسيحية ومذاهبها على أرض الواقع ؛ فضلاً عن أن أعداداً كبيرة من المسيحيين اعتنقوا الإسلام فى القرون الأولى التى أعقبت ظهوره . ومن ناحية أخرى ، فإن القرآن الكريم خصص مساحة كبيرة لكافة جوانب القصة الحقيقية للسيد المسيح وحياته على الأرض منذ ولادته الإعجازية من أمه مريم العذراء حتى رفعه الله . كذلك يؤمن المسلمون بنبوة المسيح على اعتبار بأن الإيمان بالرسل السابقين على النبى محمد عليه الصلاة والسلام جزء من أركان الإيمان الإسلامى ولايوافق القرآن الكريم بطبيعة الحال على فكرة ألوهية المسيح، كما يرفض القول بأنه ابن الله، وينكر حادثة الصلب على أساس أنه شُبِّه لمن ظنوا أنهم صلبوا

المسيح أنهم فعلوا هذا . بيد أن القرآن يتحدث عن السيدة مريم العذراء بقدر كبير من التبجيل ، كما يتحدث عن معجزات المسيح.

كما أن الإسلام كان له موقف صريح ومحدد بشكل قاطع فيما يتعلق بالدعوة إلى الإسلام ؛ سواء كانت هذه الدعوة موجهة إلى الناس كافة أو إلى المسيحيين واليهود (أهل الكتاب) بشكل خاص إذ ينبغى أن تكون هذه الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة . وقد رأى الإسلام السماح للجماعات المسيحية واليهودية أن تبقى داخل دار الإسلام وأن يتمتع أتباعهما بوضع «أهل الذمة» ؛ أى أن تكون هذه الجماعات جماعات تتمتع بحريتها الدينية والاجتماعية والاقتصادية، وأن يدفعوا «الجزية» فى ظل حماية الحكم الإسلامى.

ويرى بعض المفسرين أن الجزية التى فرضت على «أهل الذمة» كانت جزاء تأمينهم فى ديار الإسلام، وحمايتهم ، والدفاع عنهم . كما يرى عدد من المفسرين أن أهل الذمة ، على الرغم من إيمانهم بوحدانية الله سبحانه وتعالى، كفروا بما جاء به محمد ؛ ومن ثم لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل لأن الإيمان بالرسول إيمان بالمُرسل . وهم بذلك يتبعون أهواءهم ومن ثم يجب قتالهم حتى يعطوا الجزية . ومن ناحية أخرى، لم تكن الجزية فى الواقع الأمر سوى «ضريبة دفاع» على حد تعبيرنا المعاصر. فهى مقابل مادى لما ينعم به أهل الذمة من حماية فى ديار الإسلام.

وعلى المستوى المعرفى ، كان المسلمون يعرفون الكثير عن المسيحية ، ولكن إيمانهم بوحدانية الله كان يعنى علميًا إنكار الثالوث، والتجسد ،

وألوهية المسيح . كما أن الإسلام اعترف بمولد المسيح من عذراء ، وبالميزات الخاصة والمعجزات التى تحققت على يديه بوصفه نبيًا من الأنبياء والرُسُل الذين اختارهم الله ؛ ولكنه رفض فكرة كونه الإله الابن داخل الثالوث . لقد كان معظم المسلمين الجدد هم أنفسهم المسيحيين السابقين الذين اعتنقوا الإسلام بعد نجاح حركة الفتوح الإسلامية على الشواطئ الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط . وحين اختلطوا بالعرب الفاتحين (وكان هناك جزء مسيحى من عرب الشام والعراق بقوا على مسيحيتهم) كان هناك نوع من الحوار الضرورى بين المسلمين والمسيحيين.

ومن ناحية أخرى، فإن المسلمين لم ينبذوا التراث الثقافى للمناطق التى فتحوها ؛ وإنما أقبلوا على ترجمة آثار هذا التراث ، مستعينين فى عملية الترجمة الكبرى ببعض العلماء المسيحيين . وعندما انتقلت عاصمة المسلمين من المدينة المنورة فى الحجاز إلى دمشق فى بلاد الشام ، كان ذلك يعنى الانتقال إلى وسط حضارى أكثر تأثرًا بالتراث الهيللينستى الذى يجمع بين الثقافة الإغريقية القديمة وثقافات مصر وبلاد الشام والعراق . لقد كانت البقعة التى نجحت الفتوحات الإسلامية فى ضمها منذ الرابع الثانى من القرن الهجرى الأول (السابع الميلادى) تنعم بحظ وافر من التراث الفلسفى بفضل المترجمين السريان المسيحيين على وجه الخصوص . وكانت مدرسة الاسكندرية حتى أوائل القرن السابع الميلادى تزدهر بعلوم الأوائل ؛ ولاسيما الطب . وكان يوحنا النحوى، الذى كان من أهم شُرَّاح أرسطو ، من كبار الذين دافعوا عن العقائد المسيحية . أما فى

شرق العالم المسلم فقد ازهرت العلوم اليونانية فى البلدان التى كان أهلها يتكلمون السريانية والفارسية، مثل الرها (إديسا) ، ونصيبين ، والمدائن وجنديسابور ، حيث ساد المسيحيون النساطرة . وفى أنطاكية التى كان سكانها من المسيحيين المونوفيزيتيين. أى أتباع مذهب الطبيعة الواحدة.

كانت هذه المؤسسات العلمية والفكرية قبل ظهور الإسلام فى المنطقة العربية الأساس الذى قامت عليه حركة الترجمة إلى العربية فيما بعد؛ وكان من أبرز رجالها عدد من العلماء والمفكرين المسيحيين. ومن بينها كانت مدرسة جنديسابور التى بدأت تزدهر أيام الملك الفارسى كسرى أنوشروان (٥٣١-٥٧٩م) بفضل العلماء النساطرة الذين تم طردهم من الرها آنذاك؛ وفى جنديسابور اتصل العلماء اليونانيون والسريان والفرس بعلماء الهند وتأثروا ببعضهم البعض .

كان هذا الأساس الذى قامت عليه البنية المعرفية للمسلمين بالمسيحية والمسيحيين فى عالمهم وفى خارج هذا العالم . فمنذ البداية قامت الدولة الإسلامية برعاية ما يمكن تسميته مشروع للترجمة للانتفاع بعلوم السابقين فى شتى مجالات الحياة. وكان المسيحيون المحليون من السريان وغيرهم حلقة الوصل بين المسلمين والتراث اليونانى القديم . وبرزت أسر وذاعت شهرتها بفضل ما قام به أبناؤها من ترجمات . وقد أنشأ الخليفة المأمون مؤسسة خاصة، هى التى عرفت باسم «بيت الحكمة» لترجمة علوم الأوائل من اليونانية والسريانية إلى العربية. بيد أن خالد بن يزيد (ت ٨٥هـ / ٧٠٤م) كان أول من أمر بترجمة التراث العلمى لليونان إلى اللغة

العربية، إضافة إلى تعريب ما كان مكتوباً بالسريانية والقبطية . ويعتبر خالد بن يزيد بن معاوية الرائد الأول فى نقل العلوم إلى اللغة العربية مما وفر أداة معرفية قوية لم تكن متاحة فى أوربا المسيحية على الجانب الآخر . وفيما بعد لعب «بيت الحكمة» دوراً مهمًا فى معرفة المسلمين بالآخر المسيحى .

ومنذ البداية ، لم تكن محاولات الترجمة محاولات فردية بأى حال وإنما كانت عملاً منظمًا تزعاه الدولة نفسها . فقد أرسل المأمون بعثة إلى الدولة البيزنطية بحثًا عن المخطوطات اليونانية ، وكان من أعضائها «الحجاج بن مطر» ، «ويوحنا بن البطريق» . كما أرسل بنو شاكر (محمد ، وأحمد، والحسن) الذين أسهموا فى علم الهندسة الميكانيكية إسهامًا كبيراً تعلم منه الأوربيون عندما بدأت محاولاتهم للإفادة من علوم المسلمين فى العصور الوسطى. كما أنه أرسل بعثة من أبرز أعضائها حنين بن اسحق، للحصول على المخطوطات من بلاد الروم. ويقول ابن النديم صاحب الفهرست إنهم عادوا من هناك ومعهم «... طرائف الكتب، وغرائب المصنفات فى الفلسفة والهندسة والموسيقى، والأرثماطيقى (الحساب) والطب...» ومن ناحية أخرى، كان المترجمون يأتون إلى بغداد ومعهم المخطوطات التى سيتولون ترجمتها .

فقد كان التراث المكتوب باللغة اليونانية ، وتراث شعوب المنطقة العربية، تراثا إنسانيًا جديراً بالاحترام وجد فيه المسلمون ما يفيدهم فى بناء حضارتهم . ولم تجد المشاعر الدينية المتعصبة مكانًا لنفسها فى كتابات المسلمين عن أساتذتهم القدامى من ناحية، كما أنهم لم يتركوا للتعصب

فرصة حرمانهم من الإفادة من جهود المترجمين المسيحيين من ناحية أخرى. ذلك أن «**الرغبة في المعرفة**» كانت تميز موقف المسلمين كما كانت نقيضاً لموقف «**الخوف من المعرفة**» لدى المسيحيين فى غرب أوربا . وهكذا كان موقف المسلمين من علوم القدماء، ومن المترجمين والعلماء المسيحيين من أهم العوامل التى أسهمت فى بناء الحضارة العربية الإسلامية. وهنا ينبغى أن نؤكد على حقيقتين غاية فى الأهمية من وجهة نظرنا : أولاهما؛ أن الصورة التى ترسمها المصادر التاريخية ، التى تركز جُلَّ اهتمامها على الصدام العسكرى بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة البيزنطية المسيحية لم تكن دقيقة فى كل الأحوال؛ إذ كان هناك نوع من التعايش السلمى المشترك إلى حد ما، وكان هناك قدر من التفاعل والاعتماد المشترك بعيدا عن دوائر الحكم.

وثانيتهما ؛ أن صورة الرومى، أو البيزنطى، فى التراث العربى الإسلامى كانت أفضل كثيراً من صورة الفرنجى ، أو الأوربى الغربى. ويمكن تفسير ذلك فى ضوء ما نعرفه عن أن الغرب الأوربى فى تلك الفترة كان بمثابة «منطقة سوداء مجهولة»، من الناحية المعرفية، بالنسبة للمسلمين بسبب الفوضى الناجمة عن الغزوات الجرمانية التى استغرقت الفترة ما بين القرن الخامس والقرن السابع أى قبل ظهور الإسلام ، وتسببت فى تمزيق أوربا فى ظل انهيار السلطة السياسية المركزية منذ سقوط روما سنة ٤٧٦م . ثم الحروب الاقطاعية التى مزقت أوربا حتى القرن الحادى عشر على الأقل. لقد كانت أوربا الغربية والشمالية بالنسبة للعرب والمسلمين مناطق غير جديرة بالاهتمام؛ فقد مزقتها الحروب

الإقطاعية، وكانت مجتمعًا متخلفًا متعصبًا ضد «الآخر»؛ سواء كان ذلك «الآخر» متمثلاً فى المسيحية الأرثوذكسية (التى اعتبرتها الكنيسة الكاثوليكية كنيسة مهرطقة خارجة عن الإيمان القويم، وبلت ذروة العداء قمتها فى ذلك الانشقاق الكبير بين الكنيستين الذى حدث سنة ١٠٥٤م) أو فى الشعوب الأوربية التى كانت ما تزال على وثنيتها فى شمال أوربا ووسط أوربا ، ولم يشعر المسلمون بالحاجة إلى معرفة «الفرنجى» ولم يعرفوه فعلاً على نطاق واسع سوى من خلال الحركة الصليبية التى بدأت منذ أواخر القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى حسبما سنوضح فيما بعد .

هكذا ، كان هناك تصور غامض لدى كل من المسلمين والمسيحيين الأوربيين عن الآخر ، وكان هناك إحساس متبادل بالبعد المادى والمعنوى؛ جغرافيًا وثقافيًا ، لدى كل من الجانبين ، فى القرون الثلاثة الأولى بعد ظهور الإسلام . وكانت الأحداث العسكرية تفرض نفسها على الصورة العامة؛ ولكن الحقيقة لم تكن مطابقة للصور العامة. إن هذه المرحلة التى يطلق عليها البعض مرحلة «الجهل» بالآخر لاتنطبق سوى على العلاقة بين العالم الإسلامى، وأوربا الغربية الكاثوليكية ولايمكن بأى حال من الأحوال أن تنسحب على العلاقة بين العالم الإسلامى والعالم المسيحى الشرقى البيزنطى، كما لايمكن أن تنسحب على دول عالم البحر المتوسط المسيحية التى عرفت المسلمين وخبرتهم عن قرب.

(٣)

التصورات والمفاهيم الأيديولوجية والحقائق التاريخية

لابد أن نتوقف قليلاً هنا أمام الفكرة الشائعة فى الكتابات التى ترجع إلى تلك الفترة وتصور انقسام العالم إلى جزئين يفصل بينهما خط رفيع هما دار الإسلام والعالم المسيحى؛ وعلى المستوى المعرفى تمت ترجمة هذه الصورة المصطنعة إلى مجموعة من المفاهيم الواسعة تتحدث عن ديانتين متعارضتين ، وعن ثقافتين مختلفتين، وحضارتين متخاصمتين . وفى هذا السياق الإيديولوچى صار «الاسلام » و «عالم المسيحية» مفهومين مجردين يحملان معنى أوسع وأشمل ، ولم يعودا مجرد إسمين لديانتين مختلفتين. ووجه الخطورة هنا أن هذا المفهوم ليس محدداً فى مصطلحات تاريخية؛ ومن ثم متغيرة ، بشكل واضح؛ وإنما تم تحديده بالنماذج الظاهرة غير القابلة للتغير مثل ؛ الدين ، أو اللغة أو الميراث الثقافى. لم يكن هذا الموقف الإيديولوجى قاصرا على الغرب الأوربى وحده وإنما كان هناك موقف شبيه له على الجانب الإسلامى ؛ فقد تحدث الفقهاء المسلمون عن «دار الحرب» و« دار الإسلام» ولم يكن حديثهم فى إطار المصطلحات والحدود الجغرافية ، والحقائق التاريخية ، وإنما فى سياق دينى تحكمه مفاهيم

المواجهة بين قوتين متخاصمتين . وقد غذت كتابات الفقهاء المسلمين من ناحية ، وكتابات علماء اللاهوت المسيحيين من ناحية أخرى، هذا التصور الإيديولوچى لانقسام العالم. ولكن الأحداث التاريخية الحقيقية كشفت عن تهافت هذا التصور المجافى للواقع التاريخى.

هذه الرؤية ، حسبما يرى بعض الباحثين ، التى افترضت وجود الحدود بين «دار الإسلام» و«دار الحرب» بالنسبة للمسلمين ، أو «الإسلام» وعالم المسيحية بالنسبة للغرب الأوربى ، قد بُنيت على أساس مصطنع تمامًا وتتجاهل الدور الذى لعبته الإيديولوجيا فى التعريفات والمفاهيم التى طورها الكُتاب فى العصور الوسطى . بيد أننا نجد هنا قدرًا كبيرًا من الاختلاف والتباين بين الموقف الإسلامى والموقف الأوربى الكاثوليكى. فقد كان الفقهاء المسلمون ، وليس المؤرخون هم الذين طرحوا فكرة «الحدود» بين دار الإسلام ودار الحرب. وحفلت كتب التاريخ الإسلامية المعاصرة بالتفاصيل التى تنقض هذه الفكرة من أساسها من ناحية، كما أن المؤرخين المسلمين لم يقولبوا الحوادث التاريخية التى دونوها داخل هذه الفكرة من ناحية أخرى. ولكن ما حدث فى الغرب كان مختلفًا ؛ فقد كان مؤلفو المؤرخات الأوربية من القساوسة والرهبان. وكانت من تقاليد الكتابة «التاريخية» فى ذلك الحين أن يكتب التاريخ كما يجب أن يحدث وفقًا لتصورات الكنيسة ، وليس كما حدث بالفعل .

ولدينا مثال على ذلك فى حولية إسبانية عنوانها Cronica Profetica تقول إن الرب أعلن للنبى حزقيال أن الرب سوف يهجر اسماعيل (أى

المسلمين) وأن يأجوج سوف يهزمه فى النهاية. وكان تفسير النبوءة أن يأجوج يمثل شعب الفيزيقوط الذين كانت إسبانيا أرضهم التى عاشوا فوق ترابها حين نجحوا فى انتزاعها لأنفسهم فى غمار حركة الغزوات الجرمانية ؛ وبسبب خطاياهم تعين عليهم أن يدفعوا الجزية إلى المسلمين . وقال المؤلف الذى كان يكتب سنة ٨٣٣م إن هناك نبوءات تقول بأنه فى غضون أشهر قليلة سوف ينتهى حكم العرب وسيعود السلام إلى الكنيسة الإسبانية . ومرت سنة ٨٣٣م ولم تتحقق النبوءة بطبيعة الحال . ومع هذا، فإن فكرة أن يأجوج كان يحكم الشمال، وإن الغاصب إسماعيل (أى المسلمين) كان يحتل بقية البلاد، ظلت باقية بطريقة أو بأخرى لتكون أساسًا لفكرة الاسترداد Reconquesta التى صارت مصطلحًا دالاً على الحرب التى شنها الكاثوليك الإسبان ضد المسلمين فى الأندلس.

فإذا ما نظرنا إلى الجانب الإسلامى فى الأندلس نجد الصورة مماثلة تمامًا؛ إذ إن الكُتاب المسلمين استخدموا كلمة بعينها للإشارة إلى الخط الفاصل بين العالمين الإسلامى والمسيحى وهى كلمة «ثغر» (وجمعها ثغور). وهى كلمة مثيرة تمامًا لأن ابن منظور في «لسان العرب» يُعرِّفها بأنها شريط الأرض الذى يفصل «دار السلام» عن «دار الحرب» ؛ ومن ثم فإنه بعد الخروج من «الثغر» يصير الجهاد فرضًا على كل حاكم مسلم . وتؤكد النظرية السياسية الإسلامية على أن أحد الواجبات الرئيسية للحاكم المسلم أن يدافع عن الثغور ويمدها بما يلزمها من قوات . وإذ كان الكتاب الأندلسيون فى القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى قد تملكتهم فكرة

الشرعية الدينية والسياسية لحكامهم (الذين أقاموا دولة منفصلة عن الخلافة العباسية التى قامت سنة ١٣٢هـ على أنقاض الخلافة الأموية) فإنهم لم يفوتوا الفرصة لكى يبينوا كيف حرص الأمويون فى الأندلس على القيام بواجب الجهاد دفاعًا عن دار الإسلام.

ولكن الحقيقة التاريخية تأبى الانصياع لمزاعم الإيديولوچية الدينية . وذلك أن المثال الإسبانى نفسه يكذب هذه الإيديولوجية على الجانبين . فقد أثبتت الدراسة أن الذى سكن شمال شبه جزيرة أيبيريا لم يكن يأجوج ؛ وإنما عصبة من الشعوب البدائية التى لم يكن هدفها الدفاع عن المسيحية (لأنهم لم يعتنقوا المسيحية سوى فى القرن الثامن الميلادى) وهو ما يجعل الفكرة الإيديولوجية عن الحدود الإسلامية- المسيحية تتداعى وتنهار.

ومن ناحية أخرى، فإن فكرة الحدود، أو الثغور ، قد نشأت فى مشرق العالم الإسلامى أساسًا، وكان لها معنى خاص للغاية فى النظرية السياسية الإسلامية ارتبط بالجهاد وواجب حماية هذه الثغور بالرباطات (مفردها رباط) التى كانت تحصينات تأوى المحاربين المسلمين الذين مزجوا بين واجباتهم العسكرية والحياة الدينية القويمة. وعلى الرغم من هذه الصياغات البلاغية الواردة فى كتب الفقه، فإن الأمر لم يكن كذلك على مستوى الوقائع التاريخية. ففى أعالى بلاد الشام حيث الحدود المشتركة بين المسلمين واليزنطيين، كان المسلمون يأخذون بزمام المبادرة ضد الروم «البيزنطيين» بحيث فرضوا حصاراً طويلاً على القسطنطينية أكثر من مرة. كما كانت لكل مدينة فى الشام وآسيا الصغرى تحصيناتها

وقلاعها التى تنتمى إلى فترات سابقة على ظهور الإسلام ، بل وعلى وجود القسطنطينية نفسها . كما أن سكان مناطق «الثغور» هذه كانوا مزيجًا من المسيحيين والمسلمين . ومن ناحية أخرى، فإن هذه المناطق شهدت تبادلاً بين المسلمين والبيزنطيين فى حكم هذه المناطق وهو ما يعنى فى التحليل الأخير أن سكان الجانب المسلم لم يكونوا جميعا من المسلمين ، وإنما كان بينهم عدد كبير من المسيحيين ، كما أنه كان هناك عدد كبير من المسلمين يعيشون فى الجانب البيزنطى؛ بل إن القسطنطينية نفسها كان بها مسجد وحىّ للمسلمين.

ولم تكن حدود العالم الإسلامى ، أو العالم المسيحى، محددة على أساس من العقائد الدينية؛ سواء على الحدود مع الروم فى الشرق ، أو مع أوربا فى الغرب . فقد كانت الجماعات الدينية المسيحية تعيش تحت الحكم الإسلامى فى آسيا الصغرى وبلاد الشام والعراق ومصر... وغيرها . وكانت بعض هذه الجماعات تعيش فى مناطق «الثغور» فى أعالى بلاد الشام كما كان الحال فى الرها وأنطاكية وفى الموانئ البحرية شرق المتوسط.

وفى الأندلس ، أيضا ، لم تكن الثغور تمثل خط الدفاع عن دار الإسلام، بل كانت حدود الأندلس متداخلة مع حدود المناطق المسيحية فى شبه الجزيرة الإيبيرية، كما كانت خليطًا مربكًا ومشوشًا من التناقضات .

والواقع أن هناك أدلة كافية توضح أن الجماعات المسيحية كانت تعيش فى قلب الثغور فى الأندلس الإسلامية، وهناك عدد من الوثائق التاريخية

التى تُبرز هذه الحقيقة . وهنا نجد شرخًا يتسع باطراد فى البنيان الإيديولوجى لفكرة الحدود الإسلامية – المسيحية. إذ أسهمت الحوادث السياسية والاجتماعية فى المنطقة إسهامًا حاسمًا فى تشكيل موقف كان فى حالة من السيولة الدائمة فى ثغور الأندلس. ففى تلك المنطقة واجه الأمويون، فى دولتهم الأولى وفى دولتهم الثانية، الممالك المسيحية البازغة والعائلات الاستقراطية التى احتلت قطاعات كاملة فى مناطق الحدود وحكمتها حكمًا مستقلاً . ومن المثير أن بعض تلك العائلات كانت من أصول عربية ، وكان البعض الآخر من أصول بربرية ، على حين كان بعضها من أصول قوطية؛ مثل أسرة بنى قصى (٧١٤-٩٢٤م) التى كان جدها الأعلى كاسيوس (ت بعد ٧١٥م) من الفيزيقوط Visigoths. ولم يسبب له الفتح الإسلامى إزعاجًا كبيرًا ؛ فقد اعتنق الإسلام واحتفظ بأراضى دوقيته الحدودية التى وسعها خلفاؤه وضموا لها أراضى أخرى . وحتى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى ظلت تلك الأسرة عنوانًا على عدم اتساق الفكرة الإيديولوجية عن الحدود الإسلامية المسيحية، كما بقيت تلك المنطقة عمومًا تفتقر إلى التجانس الضرورى لجعلها منطقة حدود فاصلة بين العالم الإسلامي والعالم المسيحى الكاثوليكى فى أوربا الغربية.

فإذا عبرنا جبال البرينيس وجدنا مثالاً معاكسًا ؛ ففى سنة ٨٩١م استولت جماعة من الغزاة العرب على قرية جارد فرينيه Garde- Frei-net، بالقرب من فريجوس Frejus (فراكسينتوم Fraxinetum)، وحصنوها . وقد ازدهرت هذه المستوطنة (العربية المسلمة) على مدى فترة

طويلة من الزمان باعتبارها قاعدة للإغارات التى شنها سكانها على المناطق المجاورة . ويشرح المؤرخ لويتبراند الكريمونى الموقف بقوله :

«أهل البروفنسال الذين كانوا أقرب الجيران لأولئك الناس بدأوا يختلفون فيما بينهم بفعل الحسد .. ولأن كل فريق لم يستطع أن يجد ما يشفى حسده، فإنهم استدعوا العرب أنفسهم لكى يساعدوهم ؛ وهم قوم بلا دين وأهل مكر ودهاء» .

وقد ميَّز لويتبراند بين مختلف القوى العربية الإسلامية؛ وكان فى هذا أكثر حرصاً من غيره. فقد كان من رأيه أن الأغالبة الذين جاءوا من تونس ليستوطنوا جنوب إيطاليا كانوا أسوأ من عرب «جارد- فرينيه».

هنا نصل إلى نقطة فارقة فى تحطيم الصورة الأيديولوجية عن الحدود الفاصلة بين «عالم الإسلام» و«عالم المسيحية» ؛ ففى القرن الثامن الميلادى/ الثانى الهجرى كان المسلمون، بالنسبة للأوربيين مجرد عامل عادى من بين عدة عوامل حكمت مسير الحوادث التاريخية فى ذلك الحين. فقد كانت التحالفات بينهم وبين المسلمين آنذاك أمراً عادياً. ولم يكن المسلمون، بالضرورة ، هم الذين يستفيدون من هذه التحالفات ؛ لأنهم كانوا مجرد عنصر واحد من العناصر الأجنبية التى عرفها الأوربيون فى ذلك الحين، ولم تكن المواقف الأيديولوجية التى تبلورت فى القرون التالية سوى ثمرة من ثمار الدعاية المعادية النزقة التى سبقت الحروب الصليبية وواكبتها . ولم تكن تعبيراً عن حقائق التاريخ أبداً. فلم تكن هناك قطيعة سياسية بين عالم الإسلام والغرب المسيحى من ناحية، كما أن الحرب لم

تكن هى العلاقة الوحيدة بين الجانبين قبل عصر الحروب الصليبية من ناحية أخرى .

إذ كانت هناك علاقات من نوع ما بين بعض السلالات الحاكمة فى أوربا والحكام المسلمين ؛ فقد كانت الأسرة الكارولنجيه تتيه عجبًا عندما تظن أنها دولة عالمية وترى نفسها فى صورة كوزموبوليتانية. ففى سنة ٦٩٢م تباهى بيبين الثانى، هرستال Pepin II Herstal (٦٤٠م- ٧١٤م) الذى كان عمدة القصر وصاحب السلطة الفعلية فى مملكة الفرنجة الميروفنچيين ، بأنه استقبل السفراء من كل الأمم المجاورة «اليونان، والرومان، واللمبارديين، والهون، والسلاف، والمسلمين». وذلك قبل قيام الدولة الكارولنجية.

كما أن الحكام العرب فى الأندلس غالبًا ما كان يرد ذكرهم فى الحوليات المعاصرة، وكانت أسماؤهم معروفة جيداً ؛ مثل أسماء الأباطرة والقادة البيزنطيين على الأقل. ، وقد سجلت المصادر التاريخية أن الملك الكارولنجى استقبل حاكم سرقسطة وغيره من الحكام العرب المسلمين فى الأندلس. وفى ذروة حكم شارلمان Charlemagne (٧٤٣-٨١٤م) ، تسجل الحوليات أنه فى سنة ٧٩٧م، تم استقبال الأمير المسلم عبدالله الذى كان هاربًا من حكم أخيه فى المغرب، فى عاصمته آخن، وفى سنة ٨١٧م استقبل الإمبراطور شارلمان مبعوثى حكام الأندلس الذين أمضوا الشتاء فى عاصمته آخن.

بيد أن أشهر روايات العلاقات بين العرب والأوربيين فى تلك العصور هى تلك التى تتحدث عن علاقات هارون الرشيد وشارلمان . ولكن المصادر

التاريخية العربية لم تذكر شيئًا عن ذلك . ويشك البعض فى أن تكون هذه العلاقات كانت قائمة حقا، وأن المفاوضات بينهما قد حدثت بالفعل ؛ ولكن الأوربيين يعتقدون أنها حدثت ، وأن هارون الرشيد أرسل سفارة بالفعل محملة بالهدايا ، وكان من ضمنها فيل كان عبوره جبال الألب قد تسبب فى مشكلة كبيرة حسبما يؤكد إينهارد Eignhard ، كاتب سيرة شارلمان Vita Karli Magni Imperatoris. وعلى الرغم من الشكوك التى تحوم حول قصة السفارة والهدايا والعلاقات بين الخلافة العباسية وشارلمان، والتى ترى أن هارون الرشيد لم يكن ليحفل بدولة متخلفة صغيرة نائية على حين كان هو زعيم أكبر دولة في العالم – على الرغم من هذا، فإن القصة تكشف عن أن نوعًا من العلاقات الإيجابية كان قائما بين عالم الإسلام وعالم المسيحية آنذاك.

وبالنسبة لشارلمان ، وأسلافه ، وخلفائه كانت هناك حروب ضد المسلمين فى المنطقة التى صارت فرنسا فيما بعد ؛ ومثلما كان الحال فى برشلونة وسرقسطة، لم تكن هناك حدود واضحة بين عالم الإسلام وعالم المسيحية ، وإنما كانت تلك حروبًا بين الجيران . ولم يكن من غير المألوف بالنسبة للنبلاء المسيحيين أن يتحالفوا مع حلفاء من العرب، كما كان من المعتاد أن يطلب أحد المتمردين العرب مساعدة حاكم مسيحى ضد أحد الحكام المسلمين فى الأندلس. والمعركة الشهيرة التى انتصر فيها شارل مارتل Charles Martel (٦٩٠-٧٤١م) على المسلمين فى معركة بلاط الشهداء (تور – بواتييه Tours- Poitiers)، سانده فيها الدوق إويدو

Eudo دوق أقطانيا ، الذى كان قد دعا عبد الرحمن الداخل من قبل «... لكى يدافع عنه...» ضد شارل مارتل حسبما تذكر حوليات ميتز Metz. وليس هناك كاتب حوليات أوربى عاش فى تلك الفترة تناول أحداث الحروب التى جرت فيما بعد بين المسلمين والمسيحيين حول أقينيون ، وناربون، ونميس Nimes على اعتبار أنها نوع من الحرب المقدسة؛ بل إن حولية الملوك الفرنجة تذكر فى أحداث سنة ٨٢٠م أن المعاهدة التى كانت قد عُقدت مع العرب فى الأندلس صارت بلا فائدة ، وأن الهجوم المسيحى كان انتهاكًا لها . هنا نجد نغمة حيادية لاتتوافق مع الهيستريا الإيديولوجية فى زمن الحروب الصليبية. وتتضح النغمة الحيادية نسبيًا قرب نهاية القرن الثامن الميلادى/ الثانى الهجرى فى الحوليات والمؤرخات الكارولنجية ؛ ومع أن الفرنجة كانوا مشتبكين بالفعل مع المسلمين فى عهد شارل مارتل ، كما أوضحنا ، فإن خطر المسلمين عليهم آنذاك لم يكن شديداً . وهنا نجد تفرقة بين المسلمين فى المصادر الكارولنجية ؛ ففى «الحوليات الملكية الفرنجية» وفى «سيرة شارلمان» نجد إشارات إلى المسلمين فى الأندلس باعتبارهم من الأعداء ، على حين يُشار باحترام إلى هارون الرشيد الخليفة العباسى الذى تقول الحولية إنه «هارون ملك الفرس Aaron rege Persarum أو «إمبراطور الفرس».

ومع أن إنجلترا كانت «بعيدة» كما أشرنا فى الصفحات السابقة ؛ فإن واحداً من أشهر الكتاب الرهبان فى دير جارو Jarrow ، وهو بيديه Bede (Beda) (٦٧٣-٧٣٥م)، قد كتب عن المسلمين الذين كانت دولتهم آخذة فى الإتساع على أيامه . وفى البداية تميزت كتابات بيديه عن

الإسلام بحيادية نسبية تقل فيها العداوة عما حملته الكتابات اللاحقة؛ ولكنه تخلى عن حياديته مع بداية الغزو الإسلامى لشبه الجزيرة الإيبيرية واقتراب خطر المسلمين من الجزر البريطانية ؛ فاعتبر المسلمين أعداء المسيح ، وأتباع الشيطان Fuciffer الخاطئ، كما اعتبرهم شعبًا بلا جذور يعيشون حياة التجوال .

كما أنه ابتهج كثيرًا لهزيمة المسلمين بقيادة عبد الرحمن الغافقى على أيدى جيش الفرنجة بقيادة شارل مارتل فى معركة تور - بواتييه (بلاط الشهداء) سنة ١١٥هـ / ٧٣٢م.

هذه، باختصار ، ملامح رد الفعل المسيحى ضد ظهور القوة الإسلامية الجديدة فى عالم البحر المتوسط، ورؤية المسلمين للمسيحيين فى هذا الدور أيضًا . حقًا كان المسيحيون يزعمون أن الإسلام ديانة زائفة (مع الاعتراف بأنه ديانة توحيدية لاسيما من قبل المسيحيين الشرقيين) ، كما كان هناك وعى بالمخاطر السياسية التى يمثلها انتشار الإسلام وتوسع الدولة الإسلامية فى المصادر المسيحية الشرقية والغربية على السواء؛ ولكن لغة الكتابة فى تلك المصادر لم تكن على درجة العنف الهيستيرى التى شهدتها فترة الحروب الصليبية على أية حال . ومن ناحية أخرى ، كانت آراء المسلمين ومواقفهم تجاه العالم المسيحى (البيزنطى والغربى) تتسم بالاعتدال والفهم حسبما أشرنا . ولم تكن الفكرة الإيديولوجية عن الحدود الفاصلة بين «دار الإسلام» و«دار الحرب» فكرة يساندها الواقع التاريخى سواء على الحدود فى مناطق الثغور بين المسلمين والبيزنطيين فى الشرق ، أو بين مسلمى إسبانيا ومسيحيى أوربا فى الغرب.

وهنا لابد أن نضع فى اعتبارنا أن الذين كتبوا عن وجهة النظر المسيحية الأوربية كانوا فى الغالب الأعم من الرهبان ورجال الكنيسة الذين حكمتهم الاعتبارات الدينية لا الوقائع التاريخية الحقيقية . وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن الكثير من هذه الكتابات كان يتوخى ما يجب أن يكون وفقًا للرؤية المسيحية للتاريخ ، وليس بحسب الوقائع التاريخية التى وقعت بالفعل . كانت المواقف الأوربية ضد الإسلام والمسلمين فى تلك المرحلة تتسم بالعداوة؛ ولكنها كانت عداوة ناجمة عن الجهل والخوف ، وإن بقيت متعقلة بدرجة ما . بيد أن «**الجهل**» و«**الخوف من المعرفة**» كانا من أهم خصائص الموقف الأوربى آنذاك؛ وربما يمكننا تفسير هذا من خلال إحساس أوربا بالدونية إزاء العالم الإسلامى نظرًا للتفوق الإسلامى الساحق على المستويات العسكرية والاقتصادية والفكرية فى تلك الفترة من تاريخ العلاقات بينهما.

وعلى الجانب الإسلامى، شهد القرن السابع الميلادى / الأول الهجرى حركة الفتوحات الإسلامية الهائلة التى استمرت خلال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين الثانى والثالث الهجريين وفى هذه المرحلة الباكرة أقبل المسلمون على ترجمة تراث الحضارات القديمة كما أشرنا ، وكان تفاعلهم مع الديانتين الأقدم متوازنًا فى إطار من الحقوق والواجبات التى نظمها «عقد الذمة» مع أتباع اليهودية والمسيحية . ولكن الأمر اللافت للنظر أن المسلمين بفضل إيمانهم بأن الإسلام هو آخر الرسالات السماوية لم يكن لديهم ما يدعوهم إلى النظر للوراء ؛ فاتهم بعض الفقهاء اليهود والمسيحيين بإخفاء أجزاء من العهد القديم والعهد الجديد فى الكتاب المقدس ، أو

إساءة تفسيرها ، وقالوا إن هذه الأجزاء كانت تتنبأ بقدوم النبى محمد رسولاً من الله إلى البشر أجمعين . ولكن سلوك المسلمين تجاه «أهل الذمة» على مستوى الواقع كان طيبًا ؛ فقد عاشوا حياتهم وتمتعوا بحرياتهم الدينية والاجتماعية ؛ بل إن بعضهم شغل مواقع الوزارة والحكم والإدارة العليا فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى.

(٤)

التطورات التاريخية قبيل الحروب الصليبية

ومن المؤكد أن التغيرات السياسية التى جرت فيما بين القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، وأواخر القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى ، قد حولت صورة العلاقات بين الطرفين إلى صورة أشد التهابًا . ففى تلك الأثناء كانت التطورات السياسية فى المنطقة العربية قد شهدت قيام الدولة الفاطمية فى مصر والشام لتكون خلافة شيعية منافسة لدولة الخلافة السنية فى بغداد، ثم ظهور الأتراك السلاجقة ليتولوا حماية بغداد السنية ضد أطماع القاهرة الشيعية . وكانت بلاد الشام بمثابة المجال الحيوى للتنافس السياسى والعسكرى بين الخلافة السنية والخلافة الشيعية بالشكل الذى ترك آثاره السلبية الخطيرة على الجغرافيا السياسية لبلاد الشام وفلسطين، وسهل مهمة الحملة الصليبية الأولى ؛ التى جاءت إلى المنطقة العربية فى أواخر القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى كما شهدت الهزيمة القاسية التى ألحقها الأتراك السلاجقة بالبيزنطيين فى معركة مانزكرت أو ملاذكرد ؛ ثم نمو السلطة البابوية بعد الإصلاح الجريجورى فى أوربا الغربية على حساب السلطة الإمبراطورية، وانتشار الأفكار والمشاعر الألفية والأخروية المقرونة برحلات الحج الأوربية

إلى الأراضى المقدسة فى فلسطين - وقد أدى هذا كله إلى الانتقال من مرحلة العداوة المتعقلة نسبياً الناجمة عن الجهل والخوف من المسلمين فى أوربا الغربية إلى مرحلة الهياج والهجوم الهيستيرى من جانب الكتابات الدعائية الأوربية تمهيداً للحملة الصليبية الأولى وتبريراً لشن مثل هذه الحرب على المسلمين فى المنطقة العربية شرق المتوسط.

وعشية الحروب الصليبية كان التمزق السياسى والتناحر العسكرى مخيماً على العالم العربى فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) فقد كان المسلمون فى المنطقة موزعين بين الخلافة والسنية فى بغداد والخلافة الفاطمية الشيعية فى القاهرة . وإلى جانب النزاع والتخاصم بين الدولتين الكبيرتين ، كانت أحوالهما الداخلية مرتبكة بالقدر الذى جعل بلاد الشام- وهى المجال الحيوى الذى كان مسرحًا لمنازعات الجانبين- تشهد حالة من التشرذم الفسيفسائى بحيث باتت كل مدينة كبيرة فى بلاد الشام وفلسطين آنذاك دولة مستقلة تحت حكم أمير عربى، سنى أو شيعى ، أو من الأتراك السلاجقة . وكانت مشاعر الشك المريرة تحكم هذه الكيانات السياسية الهزيلة بحيث صارت غنيمة سهلة عندما جاءت الجيوش الصليبية لتجد بعض هذه الكيانات السياسية الهزيلة يساعدها ضد البعض الآخر.

كانت الخلافة العباسية منذ ٤٤٧هـ (١٠٥٥م) تحت حكم الأتراك السلاجقة الفعلى بعد أن نجحوا بزعامة طغرل بك فى إخماد محاولة الفاطميين للسيطرة على بغداد من خلال تلك المؤامرة الخائبة التى دبرها البسياسيرى. وكانت النتيجة المباشرة لذلك أن جيش الإنقاذ السلجوقى

تحول إلى جيش احتلال ، كما يحدث دائمًا ، وصارت المنطقة ما بين فارس وخراسان وبلاد الشام وحدة سياسية واحدة تدين بالولاء الإسمي للخليفة العباسي ؛ ولكنها كانت تحت الحكم الفعلى للأتراك السلاجقة . وأخذ الأتراك السلاجقة يتوسعون باتجاه الشمال والغرب على حساب الأرمن والدولة البيزنطية ، وعندما كانت قوات ألب أرسلان تطارد فلول جيش الإمبراطور البيزنطى المهزوم رومانوس ديوجينيس ، وأسره بعد الهزيمة الساحقة فى مانزكرت (رجب ٤٦٣هـ / أغسطس ١٠٧١م) كانت قوات «أتسز بن أوق»، أحد القادة التركمان في خدمة الخلافة العباسية، قد استولت على بيت المقدس من الفاطميين.

فى خضم هذه المنازعات التى ألقت بالمنطقة العربية فى حال من السيولة السياسية، لم يكن هناك ما شير فى المصادر التاريخية العربية إلى أن المسلمين كانوا يعرفون شيئًا عن تلك التطورات الجارية فى الغرب الأوربى، والتى تمثلت نتيجتها النهائية فى خروج الحملات الصليبية إلى فلسطين أواخر القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى. إذ لم يكن العالم المسلم فى تلك الأثناء يشعر بالحاجة أو الرغبة فى معرفة أحوال أوربا التى كان يرى فيها منطقة متخلفة لاتستحق الاهتمام. كما أنها لم تكن مصدر خطر داهم على الرغم من إدراك المسلمين لما كان يجرى من أحداث فى الأندلس .

كانت أوربا طوال القرن الحادى عشر تمرُّ بارهاصات مرحلة جديدة تمثلت ذروتها فى الحملة الصليبية. فقد كانت الأفكار الألفية عن نهاية العالم بعد انقضاء الألف الأولى من معاناة المسيح على الصليب ، والأفكار

الأخروية التى تتعلق بما بعد نهاية العالم من أهم روافد الفكرة الصليبية . ففى ذلك الجو النفسى والفكرى الذى ساد أوربا آنذاك كان من الطبيعى أن يتطلع الناس الذين سيطرت عليهم هذه المشاعر إلى ضمان الخلاص الذى يرتبط بضرورة الرحلة إلى القدس Iter Heyrosolimitanum . وقد تجسد هذا فى ازدياد عدد رحلات الحج من جميع أنحاء الغرب الأوربى الكاثوليكى إلى بيت المقدس. بيد أن رحلات الحج المسيحية إلى بيت المقدس قد أفرزت بالضرورة نمطًا من الدعاية الكاثوليكية النزقة، وتولد عنها نوع من الهجوم الهيستيرى على الإسلام والمسلمين. فقد استقر فى الوجدان الشعبى العام فى أوربا الكاثوليكية آنذاك أن رحلة الحج إلى بيت المقدس تتويج لحياة المرء فى هذه الدنيا ، كما شاع بينهم أنه كلما كانت رحلة الحاج تمثل مشقة كبيرة كلما زادت فرصة المرء فى الحصول على الغفران ، وكان كثير منهم يتمنى الموت فى الأراضى المقدسة بأيدى «الكفار» (أى المسلمين) الذين صورتهم الدعاية المحمومة فى أبشع الصور التى تفتق عنها ذهن أولئك الذين تولوا الدعاية ضدهم . وقد أمدنا الراهب الكلونى رالف جلابير Ralph Glaber بصورة حيَّة عن هذا الوضع «... **فى الوقت نفسه بدأت أعداد لا حصر لها فى التوجه إلى ضريح المخلِّص فى القدس من شتى بقاع الدنيا ، فى أعداد تفوق توقعات أى إنسان . ولم يكن الذاهبون إلى هناك من العامة وأبناء الطبقة الوسطى وحدهم ؛ وإنما ذهب إلى هناك كثير من الملوك الكبار ، والكونتات ، والنبلاء . وأخيرًا، وهذا شئ لم يحدث من قبل ، انطلق بعض الفقراء. وكان عديدون يتمنون الموت هناك بدلاً من العودة إلى ديارهم...»** .

ومن ناحية أخرى ، رأت البابوية فى المشروع الصليبى سلاحًا باترًا فى صراعها ضد الامبراطورية الرومانية المقدسة من أجل السيادة فى أوربا . فقد كانت البابوية تأمل فى تحويل القوى المحاربة الأوربية إلى قوى تعمل لتحقيق أهدافها السياسية على حساب الحكام العلمانيين . فقد كانت البابوية بالفعل قوة سياسية لها مصالحها الخاصة وأهدافها المستقلة عن أهداف الحكام والمتعارضة معهم أحيانًا .

وفى رأينا أن فكرة الحملة الصليبية كانت التطور المنطقى للحج المسيحى إلى الأرض المقدسة فى فلسطين ؛ إذ لم تكن هذه الفكرة لتطرأ على بال أحد لو لم تكن رحلات الحج الكاثوليكية ، التى استمرت منذ فترة باكرة حتى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى، قد أدت بالضرورة إلى فكرة أن الأرض التى شهدت قصة المسيح، وفيها ضريحه ، لابد أن تكون تحت سيطرة أتباعه . وكانت الكنيسة الكاثوليكية ترى أنها الكنيسة الوحيدة على طريق الإيمان الصيحيح . ولم يكن السبب فى ذلك راجعًا إلى الرغبة فى حل المشكلات ومواجهة المتاعب التى كان الحجاج الكاثوليك يلاقونها فى السفر بطبيعة الحال؛ ولكن لأن أوربا التى بدأت تشعر بقوتها من ناحية ، وتقارن بين حالها وحال كل من بلاد المسلمين والدولة البيزنطية المتقدمة من ناحية أخرى، رفضت بقاء هذه المناطق بأيدى المسلمين الذين صورتهم الدعاية الكنسية فى صورة الكفار المتوحشين . وهنا انتقلت الصورة فى الذهنية الأوربية من العداء المتعقل إلى الهياج والعداء الهيستيرى.

ومن الأمور ذات الدلالة أن الكتاب الأوربيين المعاصرين لهذه الأحداث لم يفرقوا أبداً بين الحج والحملة الصليبية على نحو ما تكشف روايات المؤرخين اللاتين : إذ كان الخط الفاصل بينهما رقيقًا للغاية. ومن ناحية أخرى ، وجدت البابوية ، والمبشرون والدعاة الكنسيون ، والمؤرخون اللاتين « السبب العادل Causa Justa» للحرب؛ على أساس «استعادة» القدس من المسلمين «الكفار» . لقد كانوا يحاكمون زمانهم ، ويشيرون إلى الأرض المقدسة باعتبارها «مملكة المسيح» التى تنتمى إلى العالم المسيحى، التى يجب الدفاع عنها، واستردادها من المسلمين الذين كانت الدعاية الكاثوليكية ضدهم غاية فى الكرم والسخاء وهى تغدق عليهم كل التهم والأوصاف الشريرة.

(٥)

صورة المسلمين فى كتابات الدعاية الصليبية

وينبغي أن نلاحظ أن استجابة الأوربيين الغربيين للحملة الصليبية الأولى لم تعتمد على الكراهية المتصاعدة ضد الإسلام وضد كل ما هو مسلم فقط. إذ كانت هناك بالتأكيد أنماط فجة من الدعاية ومن سوء الفهم. فقد صورت الدعاية البابوية المسلمين فى صورة مشركين يعبدون الأصنام ، كما شاعت قصص وحكايات خرافية عن حياة النبى محمد . بيد أن هذه الأفكار وحدها كانت أقل من ترتقى إلى مجموعة متماسكة من الإنحيازات التى يمكن أن تحرك الناس لكى ينتزعوا أنفسهم من أوطانهم وعائلاتهم ليذهبوا **«... فى مطاردة خطيرة ومكلفة ضد الأعداء فى أماكن نائية ...»** على حد تعبير أحد الباحثين . ولم يكن معظم الصليبيين الأوائل قد رأوا مسلمًا على الطبيعة من قبل ، ولكن الصورة القبيحة التى رسمها الدعاة البابويون للمسلمين جعلت أولئك الصليبيين يتوقون شوقًا لقتل المسلمين .

كانت الدعاية سلاح البابوية الأمضى فى تجنيد الصليبيين من بين السادة الإقطاعيين البارزين فى أوربا . وقد ذكرّ البابا أوربان الثانى، فى خطبته التى ألقاها يوم السابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٠٩٥ فى كليرمون ، الفرسان الفرنج بما اشتهروا به من «شجاعة وتقوى» داعيًا

إياهم إلى إنقاذ الضريح المقدس من أيدى المسلمين الذين وصمهم بكل الصفات الحقيرة . فقد ذكر فوشية الشارترى Fulcher de Chartres (كتب فيما بين سنة ١١٠٠ وسنة ١١٠٦م) ، والذى كان قسيسًا خاصًا لستيفن بلوا وعاصر ربع القرن الأول من الاستيطان الصليبى فى المنطقة العربية ، وكان من الذين حضروا مجمع كليرمون الكنسى سنة ١٠٩٥م، إن البابا أوربان الثانى Urban II (١٠٨٨-١٠٩٩) قال «... إن الأتراك، وهم شعب فارسى (!!) ... استولوا على المزيد من أرض المسيحيين ، وهزموهم فى معارك عديدة، وقتلوا منهم وأسروا الكثير، ودمروا الكنائس وخربوا مملكة الرب ..» وطالب الفرنج بالقتال ضد هؤلاء «الوثنيين» .

كما أن روبير الراهب Robert of Rheims ، الذى كان حاضراً مجمع كليرمون أيضًا وكتب سنة ١١٠٧م، قال على لسان البابا أوربان الثانى «... **فقد ورد خبر حزين من البلاد المحيطة بالقدس ومن مدينة القسطنطينية ... مؤداه أن شعبًا من مملكة الفرس ، وهم جنس أجنبى، غريب عن الرب تمامًا ، جيل لايضع قلبه على طريق الحق ، وروحه ليست مخلصة للرب ، قد غزا أرض أولئك المسيحيين ، وأخضع الناس بالسيف ، والتدمير والحريق، كما حمل بعضهم أسرى إلى بلاده وذبح البعض الآخر فى وحشية ، كما سوّى كنائس الرب بالأرض ، أو استخدمها ليمارس فيها شعائر ديانته . هؤلاء القوم دنسوا مذابح الكنائس بممارساتهم الخرقاء . وقد أجروا عمليات الختان لمسيحيين ، وكانوا يسكبون دماء الختان على المذابح أو يصبونها فى أوانى التعميد . وقد شقوا بطون من**

اختاروا أن يعذبوهم بالموت البطئ المثير للاشمئزاز... فعلى من إذن تقع مسئولية الانتقام من هذا ؟ وعلى من تقع مهمة الخلاص من هذا الموقف ، إذا لم يكن على عاتقكم أنتم يا من اختاركم الرب، دون سائر الأمم ليسبغ عليكم نعمة المجد فى السلاح وجسارة القلب ، وقوة الجسد، وقدرتكم على مقاومة من يتعرض لكم ؟».

ونجد مثل هذه الأقوال فى رواية جيوبرت النوجنتى Guibert of No-gent (الذى كتب سنة ١١٠٨م) وبلدريك الدوللى Boldric of Dol (الذى كتب حوالى سنة ١١٠٨م) وغيرهم ممن كتبوا عن خطاب أوربان الثانى. ومن المهم أن نلاحظ أنهم جميعًا كتبوا ما تصوروا أن البابا كان يجب أن يقوله فى هذه المناسبة ، ولم يسجلوا كلمات البابا الحقيقية ، ولكن الأهمية الحقيقية للنصوص التى كتبوها تتمثل فى كونها نصوصًا كاشفة لملامح الصورة التى شكلها الهجوم الوحشى لفظيًا على المسلمين ودينهم فى غمار الجو الهيستيرى الذى صاحب الحركة الصليبية طوال تاريخها . ففى الغرب الأوربى آنذاك ، كان الشائع أن النبى محمد عليه الصلاة والسلام ساحر، وماجن جنسيًا ، وزعموا أن الدين الذى جاء به ليس سوى صورة كاريكاتورية شريرة من المسيحية أو أنه إلهام شيطانى من المسيح الدجّال

لقد كانت الشائعات الشريرة ، والحكايات الكاذبة والمعلومات الخاطئة ، منتشرة فى كتابات دعاة الحركة الصليبية ، كما انتشرت فى أوساط الكتاب المحترفين الذين بالغوا فى ردود أفعالهم تجاه حكايات هذه الشرور الشرقية المزعومة.

كان هذا الغطاء الدعائى الوحشى الظالم ضرورياً لتبرير الحرب باسم الدين زمن الحروب الصليبية . وقد عرفت أوربا فى أثناء القرن الثانى عشر إحساساً جديداً بالوعى الشخصى أو الجماعى حفز كلاً من رجال الكنيسة والعلمانيين على تأكيد هويتهم ، على حين كانت مشاعر الإخلاص للمسيح ومريم العذراء قد أذكت نيران المحتوى العاطفى المتصاعد فى هذا الوعى بالهوية . ولما كانت تلك المشاعر قد ولدت فى مجتمع يحكمه التدين الشكلى الفج، فإن التعصب وكراهية «الآخر» كانت التعبير المناسب عنها . ومنذ القرن الثانى عشر عانى المسيحيون الذين يعتنقون مذهباً غير المذهب الكاثوليكى، واليهود، من كراهية الغوغاء ، ومن الاضطهادات الرسمية التى تصاعدت من جانب رجال الكنيسة والحكام العلمانيين على السواء . وبطبيعة الحال، كان نصيب المسلمين من هذه الكراهية «الصليبية» فى أوربا نصيب الأسد . لقد كان الإحساس المتزايد بالهوية لدى الأوربيين يتطلب الإنفصال عن الآخر؛ أى المسلمين الذين وضعهم بعض الكتاب فى مرحلة أدنى من البشر ؛ لاسيما بعد نجاح المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبى فى استرداد بيت المقدس ؛ فقد كتب إمبرواز Ambroise الذى كان من الذين كتبوا عن حملة ريتشارد الأول قلب الأسد والحملة الصليبية الثالثة يصف المسلمين بأنهم «**قطعان وضيعة**» ، أو «**كلاب وضيعة**» أو «**قطيع الوثنيين**» ، أو «**الأفراخ الكافرة من ذوى الوجوه السوداء**»، أو «**الشعب الواضيع ذو البشرة الداكنة**» . وبالنسبة لكثير من الأوربيين فى القرن الثانى عشر، كان المسلمون مثل اليهود «**... كلاباً تنكر المسيح ، ويستحقون الموت والعذاب بجدارة...**».

لقد كان هناك رصيد من كراهية الأجانب Xenophobia فى ثقافة أوربا الأصلية . ويتجلى أحد ملامح هذا العداء للأجانب فى ذلك التناقض الحاد بين النظرية القائلة بأن الغرض الصليبى كان تحرير المسيحية الشرقية، والعداء الفعلى الذى كان معظم اللاتين يحسون به تجاه المسيحيين من اليونانيين والسريان والأقباط . فقد أثارت مواجهتهم مع البيزنطيين العداوة السياسية والدينية على كلا الجانبين . وعندما نجحت الحملة الصليبية الأولى فى تأسيس مملكة بيت المقدس وعدد من الإمارات فى الرها وأنطاكية وطرابلس ، كانت معاملة الصليبيين للمسيحيين العرب والمسيحيين الشرقيين عامة، مهينة على نحو واضح.

إن كراهية الأجانب تتجلى فى أحداث الحملة الشعبية التى سبقت حملة الأمراء فى المجر وفى أوربا الوسطى والشرقية ، فقد مارس أتباع والتر المفلس Walter Sans - Avoire نوعًا من السلب والنهب والعنيف فى بلغاريا جعلت البلغار يهاجمونهم ويقتلون أعداداً كبيرة منهم. وهو الأمر الذى تكرر مع جيش بطرس الناسك فى مدينة «سملين» على الحدود المجرية- البيزنطية، وفى مدينة نيش Nish . وهاجمهم الجيش البيزنطى وقتل جنوده الكثير من رجال بطرس الناسك وأسر منهم عدداً كبيراً . ومن ناحية أخرى كتب المؤرخ المجهول صاحب كتاب أعمال الفرنجة Gesta Francorum والذى كان فارساً فى جيش بوهيموند النورمانى فى الحملة الصليبية الأولى : «... **ومكثنا بضعة أيام نحاول شراء المؤن والأطعمة ، ولكن السكان رفضوا أن يبيعوا لنا شيئًا ، لأنهم كانوا يخافوننا كثيراً ،**

فقد ظنوا أننا لسنا حجاجًا ، واعتقدوا أننا لصوص نهابون جئنا نخرب الأرض، ونقتل الناس ولذلك استولينا على الثيران والخيول والحمير، وكل ما وجدناه ، ثم تركنا كاستوريا ودخلنا بالاجونيا؛ حيث كانت قلعة للهراطقة . وهاجمنا المكان من كل جانب وسرعان ما سقط فى أيدينا وأشعلنا فيه النيران التى أحرقت القلعة بسكانها سويا ...» حقًا إنهم لم يكونوا لصوصًا نهابين !!! هنا تتجسد كراهية الأجانب فى سلوك الصليبيين تجاه المسيحيين فى البلقان أثناء الحملة الصليبية الأولى الذى كان مزيجًا من الرعب والكراهية ؛ نهب ، واغتصاب ، واغتيال ومعارك حقيقية . وبسبب كراهية الأجانب فشل الصليبيون فى معاملة الإمبراطور البيزنطى باحترام ، كما فشلوا فى كسب احترامه . وفى هذا السياق لم يكن هجومهم الوحشى على المسلمين فى كتاباتهم غريبًا، ولاسيما وأن سلوكهم الفعلى كان وحشيًا تجسد فى المجزرة الرهيبة التى جرت على سكان القدس والمجازر الأخرى التى ارتكبوها فى جميع الأماكن التى احتلوها على الرغم من عهود الأمان التى بذلوها لسكان تلك الأماكن ، كما تجسَّد فى القسوة التى اتسم بها سلوك الصليبيين تجاه الأهالى فى الأماكن التى غزوها ؛ حتى بمقاييس العصور الوسطى التى جمعت بين الوحشية والتدين الشكلى. يقول فوشيه الشارترى ، القس الذى صحب جيش بلدوين إلى فلسطين ، وهو يصف مجزرة القدس : **« ... وكثير من المسلمين الذين كانوا قد تسلقوا قمة معبد سليمان (المسجد الأقصى) هاربين أصابتهم السهام فى مقتل فسقطوا من فوق السقف. وتم ذبح حوالى عشرة آلاف فى المعبد. ولو أنك كنت موجوداً هناك لغاصت قدماك**

حتى العقبين فى دماء المذبوحين . ترى ماذا أقول ؟ إننا لم نترك منهم أحداً على قيد الحياة. ولم ينجُ حتى النساء والأطفال ...».

هذه الصورة الوحشية التى يتباهى بها قس كاثوليكى من الصليبيين ، كانت تغطيها غمامة كثيفة من التصورات المنحازة ، والأوصاف الظالمة للمسلمين ، فهو يقول فى سياق الرواية نفسها «... **فقد كان المسلمون يمارسون عبادة الأصنام هناك مع الخرافات ، كما أنهم لم يكونوا يسمحون للمسيحيين بالدخول**» إنه يبرر المذبحة التى جرت فى رحاب المسجد الأقصى .

إنه التبرير الذى قام على أساس وصم «الآخر» وتبرئة الذات . وهناك قسيس آخر، هو بطرس توديبود يقول إن مسلمى القدس صنعوا، أثناء الحصار الصليبى للمدينة المقدسة، صليباً خشبياً «... **يشبه الصليب الذى فدى المسيح فوقه العالم عندما سُفك دمه عليه، ثم سببوا للصليبيين ألماً شديداً عندما أخذوا يضربون الصليب بالعصى ويهشمونه على الأسوار، أمام أعين الجميع ...**» وعندما ذكر وليم الصورى هذه الحادثة بعد جيلين أضاف إليها أن المسلمين بصقوا على الأشياء المسيحية المقدسة، وذكر أن هذه الأمور تكررت فى خضم أحداث الحملة الصليبية الثانية.

ومن المثير أن بعض المصادر التاريخية العربية أشارت إلى بعض أنماط الدعاية الأوربية ضد المسلمين فى سياق الدعوة للحملة الثالثة التى دعت لها البابوية رداً على تحرير القدس ، بعد معركة حطين ، التى قضى فيها الجيش الإسلامى بقيادة صلاح الدين الأيوبى على الجيش الصليبى.

إذ إن المؤرخ ابن شداد ، الذى كتب سيرة صلاح الدين لاحظ مدى خضوع الأوربيين للدعاية الصليبية بعد سقوط القدس فى أيدى المسلمين سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م، وكيف أن هذه الدعاية قامت على رسم صورة تمثل مدينة القدس « **... وبها كنيسة القيامة التى يحجون إليها ويعظمون شأنها ، وفيها قبر المسيح الذى دفن فيه بعد صلبه بزعمهم ، وصور القبر وصور عليه فارسًا مسلمًا قد وطئ قبر المسيح ، وقد بال الفرس على القبر...**» ويستمر ابن شداد قائلاً « **... وأظهرت هذه الورقة فى الأسواق والمجامع والقسوس يحملونها ورؤوسهم مكشفة ، وعليهم مسوحهم ، وينادون بالويل والثبور ... وللصور عمل فى قلوبهم...**».

ولكن التصور الأوربى للإسلام فى عصر الحروب الصليبية ، بكل ما يحمله من قسوة وحدة هسيتيرية ، لم يكن نتاجًا للكتابات التى حملتها كتب مؤرخى تلك الفترة فقط بطبيعة الحال . ففى مجتمع تسرى فيه الأمية على نحو ما كان جاريًا فى أوربا آنذاك، لايمكن الاعتماد على الكلمة المكتوبة ؛ وإنما على الكلمة المسموعة . وهنا نجد أن الشعر الشعبى، الذى كان يتم إنشاده فى التجمعات الشعبية ، كان بديلاً إعلاميًا مناسبًا وفعالاً، خاصة وأنه كان ينشد على أنغام الآلات الموسيقية . وقد عرفت تلك الفترة ميراثًا ضخمًا كان فى حقيقته تاريخًا شعبيًا موازيًا للتاريخ الذى كتبه المؤرخون من القساوسة والرهبان . وإذا كانت التواريخ المكتوبة قد حملت وجهة نظر الكنيسة الكاثوليكية لأن مؤلفيها كانوا فى الغالب الأعم من رجال الكنيسة والرهبان الذين عرفوا بتعصبهم وضيق أفقهم ؛ فإن التواريخ الشفوية التى كانت تُنشد وتروى شفاهة حملت القراءة الشعبية

للأحداث التاريخية، كما عبرت عن ملامح الصورة التى تكونت فى الوجدان الشعبى الأوربى عن «العدو» أى الإسلام والمسلمين . هذه التواريخ الشفوية عُرفت ، عموما ، باسم أغانى الحروب الصليبية Chansons de Croisades.

لقد ترك الشعراء المسيحيون كثيراً من الملاحم الشعرية والقصائد والأغانى ذات الدلالة التاريخية عن عصر الحروب الصليبية . ومن المعلوم أن الأرمن قد تحمسوا للحملة الصليبية الأولى وساعدوها كثيرا لدرجة أن أول إمارة صليبية قامت فى الشرق كانت فى الرها ، فقد تحمس حاكمها المسن ثوروس Thoros للفرنج لدرجة أنه تبنى الأمير الصليبى بلدوين من إمارة اللورين الأدنى، وقد رد بلدوين جميل الحاكم الأرمنى ثوروس بأن سمح للمتآمرين ضد الحاكم المسن بأن يقتلوه . وصار بلدوين حاكم الإمارة الصليبية . وقد وجدت الجيوش الصليبية مساعدة كبيرة من الأرمن حسبما يروى المؤرخ الأرمنى متى الرهاوى (Matlieu d' Eddesse) ، وحسبما ذكر فوشيه الشارترى . وهناك شاعر أرمنى يسمى سان نرسيس الرحيم (Saint Nersés le Gracieux) كتب مرثية بمناسبة سقوط الرها التى استعادها عماد الدين زنكى من الصليبيين هو وابنه نور الدين محمود سنة ١١٤٤م بعد أن ظلت فى أسرهم حوالى ست وأربعين سنة . وتعتبر قصيدة سان نرسيس الوثيقة الوحيدة التى تصف حصار الرها على أيدى جيش عماد الدين زنكى؛ وهى من النوع الملحمى وتتألف من ألف وثلاثمائة وخمسين بيتاً . ويهمنا من هذه القصيدة الملحمية أن الشاعر جعلها على

لسان المدينة التى تناشد الأخوة المسيحيين أن يهبوا لنجدتها أمام جبروت المسلمين التى تنحاز القصيدة ضدهم فى قسوة ، وتصفهم بأوصاف قبيحة أبدعها الخيال الشرير الذى حكمته العداوة والكراهية الهيستيرية. وربما يمكن تفسير هذه العداوة والكراهية فى ضوء الصدمة الناجمة عن سقوط الرها، أول إمارة صليبية ، وما كان يحمله هذا من نذر الشؤم والشر.

وثمة شاعر آخر، ابن شقيق نرسيس ، وهو البطريق جريجورى الابن Le Patriarch DGh'a ، كتب مرثية فى بيت المقدس بعد تحريرها على أيدى المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبى. وتقع فى ألفين وثلاثمائة وأربعة وتسعين بيتًا . وهنا أيضًا نجد جريجورى ينشد على لسان المدينة المقدسة، التى يجعلها تقول:

أنا القدس العتيقة

عاصمة فلسطين

ومركز العالم الرئيسى

نقطة الدنيا الأساسية

ثم تبدأ القصيدة فى الحديث عن صلاح الدين الأيوبى ، ومعركة حطين، ولكنها تخلط عن عمد ، وفى قسوة ، بين القائد المسلم وبين المسيح الدجال. وكانت هذه الفكرة التى تخلط بين صلاح الدين الأيوبى والمسيح الدجال من أهم ملامح الصورة العدائية التى أفرزتها كتابات الكتاب المسيحيون الكاثوليك زمن الحروب الصليبية .

ففى غرب أوربا كان الشعراء ، ولاسيما الفرنسيون منهم، قد تركوا لنا مجموعة من الأشعار والأغانى التى تصلح لأن تكون مقياسًا للفكرة الصليبية فى الوجدان الأوربى؛ منذ البداية حتى نهاية الوجود الصليبى على الأرض العربية . هذه الأشعار والأغانى كانت نوعًا من القصائد التى تحمل ملامح التصورات الغربية لما كان يجرى فى ساحة الحروب الصليبية من جهة ، وتحمل تصورات الشعراء لما كانت عليه أوربا من جهة أخرى. وأولى هذه القصائد الشعبية التى لانعرف لها مؤلفًا لأنها تراث جماعى، تلك القصيدة المعروفة بأنشودة أنطاكية La Chanson d'Antioche . ويمكن أن نستنتج من كثرة عدد المخطوطات التى تحمل نصوصًا مختلفة لهذه الأنشودة أنها كانت منتشرة على نطاق واسع فى غرب أوربا عامة، وفى فرنسا بصفة خاصة. وفى هذه القصيدة نقرأ أن الحملة الصليبية كانت بأمرٍ من الرب نفسه، وأن الفرنج هم الشعب الذى اختاره الرب لكى ينتقموا لموته ويخلصوا ضريحه من الكفار (أى المسلمين) ؛ وهى هنا تتسجم مع خطبة البابا أوربان الثانى فى كليرمون بجنوب فرنسا فى ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥م، لكن القصيدة تحاول تبرير الحملة الصليبية باعتبارها حربًا عادلة "Bellum Justum » ، وهو ما يردده المؤرخون الصليبيون مثل جيوبرت النوجنتى، والمؤرخ المجهول صاحب أعمال الفرنج Gesta Francorum ، وفوشيه الشارترى وغيرهم من المؤرخين الصليبيين . هنا نجد نغمة تبرئة الذات، وتمجيد العمل البطولى ضد الآخر الذى يحمل مسئولية الحرب بسبب شروره وخطاياه.

وتعكس هذه القصيدة أيضاً إحساس الفرنج بأنهم الشعب المختار Le Peuple élu أى أنهم الأداة التى اختارها الرب لتنفيذ إرادته ، وتحرير ضريحه من المسلمين الذين كانت القصيدة سخية فى إغراقهم بالصفات الكريهة . ولقد كانت أنشودة أنطاكية انعكاساً أميناً للتفكير الشعبى فى أوربا القرنين الحادى عشر والثانى عشر؛ فهى تتحدث عن «الانتقام» الذى كان «الرب المصلوب» قد أمر المؤمنين بتوقيعه على «**الوثنيين المخذولين**». والفكرة الصليبية تبدو حية قوية فى ثنايا أنشودة أنطاكية؛ بحيث تعكس الحال الوجدانية فى أوربا الكاثوليكية قبيل الحملة الصليبية الأولى وفى أثنائها . كما أنها تشى بصورة الآخر- المسلم فى الذهن الأوربى، والموقف الوجدانى الكاره والمعادى لهذا الآخر المسلم.

ومن المهم أن نشير إلى أن الأغانى والقصائد الشعبية حول الحركة الصليبية كثيرة متنوعة، وربما يكون السبب وراء هذا راجعًا إلى ازدهار الشعر الشعبى فى شمال فرنسا وفى جنوبها (مع بداية تكون اللغات المحلية على حساب اللغة اللاتينية التى كانت اللغة الوحيدة للكتابة حتى ذلك الحين) . فضلاً عن أن الكتابة التاريخية بالشعر كانت تهدف إلى تلبية حاجة ثقافية للمجتمع الفرنجى الذى كانت تسوده الأمية آنذاك؛ ؛ فقد تم تأليف التواريخ المنظومة شعراً لمن لايعرفون اللاتينية من ناحية ، ولايعرفون القراءة بأية لغة من ناحية أخرى . ومن سوء الحظ أن الصياغات الشعرية التاريخية لم تصلنا ؛ إما لضياعها بسبب طبيعتها الشفوية وارتباطها بمشروع مؤقت كان مآله الفشل فى نهاية الأمر، وإما

بسبب التغيرات الكثيرة التى طرأت عليها ، بسبب طبيعتها الشفوية أيضًا ، بحيث وصلتنا فى صياغات مغايرة تمامًا لصياغتها الأصلية.

وتحمل أنشودة أنطاكية الأوصاف السلبية للمسلمين والاسلام التى تحملها كافة أغانى الحروب الصليبية : لقد كان سقوط الرها صدمة نفسية مؤلمة ، ونذير شؤم للأوربيين . لذا سارعت أوربا إلى تقديم العون إلى الصليبيين المستوطنين فى المنطقة العربية . وكانت الدعاية – التى كانت الأغانى جزءًا أساسيًا فيها– هى المعادل الموضوعى للاستعداد العسكرى لشن حملة صليبية جديدة ضد المسلمين.

لقد كانت محاولات «عماد الدين زنكى»، ثم ابنه وخليفته نور الدين محمود، بداية حركة الاسترداد الإسلامية فى المنطقة العربية ، وبلغت قمتها على يد السلطان صلاح الدين الأيوبى الذى استطاع أن يوحد الجبهة العربية الإسلامية، وأنزل بالصليبيين هزيمة فادحة فى معركة حطين ٥٨٣هـ / ١١٨٧م. وكانت الحملة الصليبية الثالثة تجسيدًا لرد الفعل الأوربى تجاه استرداد المسلمين بيت المقدس، وجاء على رأسها ثلاثة من رؤوس أوربا المتوجة الكبيرة ؛ فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا المسن، وفيليب أغسطس ملك فرنسا اللاهى المخادع، وريتشارد الأول قلب الأسد ملك إنجلترا المتهور المتوحش . وقد سبقت هذه الحملة وصاحبتها حملة دعاية هائلة ضد المسلمين ، وضد دينهم، وضد صلاح الدين الأيوبى نفسه.

وهناك عدد من أغانى الحروب الصليبية تدور حول الحملة الصليبية الثالثة، وهى لا تختلف كثيرًا فى مضمونها عن الأغانى السابقة التى تدخل

ضمن نطاق أغانى الحروب الصليبية. ولكن هذه الأغانى تتميز بأنها قصائد قصيرة من ناحية ، كما أنها من ناحية أخرى تحمل نغمة التهديد للمتقاعسين تعلو فى هذه الأغانى. وتتصاعد فيها فكرة الانتقام لسقوط بيت المقدس بأيدى المسلمين :

إذا تركنا هذا المكان لأعدائنا الفانين

ستكــون حيـاتنا عــارًا إلى الأبـــد

لقد كان سقوط القدس فى أيدى المسلمين نذير سوء للغرب الكاثوليكى وإنذارًا باكرًا بسقوط الكيان الصليبى بأسره . وكان رد الفعل الثقافى والفكرى عنيفا بقدر ما كان رد الفعل العسكرى المتمثل فى الحملة الصليبية الثالثة قويًا . وقد حملت أغانى الحروب الصليبية أصداء هذا وذاك. وإلى جانب ما حملته هذه الأغانى من الموضوعات الصليبية التقليدية ، تتردد أصداء الصدمة التى أصابت الغرب الأوربى بسبب استرداد صلاح الدين القدس. وتلفق هذه الأغانى الكثير من التهم الكاذبة للمسلمين وعلى رأسهم صلاح الدين الأيوبى؛ فيقول أحد الشعراء الذى كتب قصيدة عن معارك صلاح الدين واسترداد القدس إنه قتل خليفة مصر (الفاطمى) وكان عاشقًا لامرأة متزوجة هى امرأة نور الدين محمود الذى تقول الأنشودة إن صلاح الدين دسَّ له السم، وتتهمه بأنه وراء موت نور الدين أيضًا .

وهناك عدة قصائد عن الحملة الصليبية الخامسة التى دعا إليها البابا إنوسنت الثالث، ثم البابا هنريوس الثالث، وكان هدفها الاستيلاء على

مصر : ولكن الحملة فشلت واضطر الصليبيون إلى الهروب بأرواحهم سنة ١٢٢١م . وكان من نتائج الحملة الفاشلة أن وقع عدد من الدوقات والكونتات الألمان والفرنسيين أسرى فى أيدى المصريين. وهناك قصيدة تستحث فردريك الثانى هوهنشتاوفن على الذهاب إلى الشرق والتخلى عن زخرف الدنيا :

لكن أصحبنا إلى ما وراء البحر

لأن هذه الأشياء كلها سوف تهلك يومًا ما

ولايهلك ربنا

ومن أمثلة الروايات التاريخية الشعرية الشعبية عن الحروب الصليبية تلك القصيدة التى تحمل عنوان «أنشودة القدس La Chanson de Jerusalem التى تحكى مغامرات جودفرى البويونى Godefroi de Boullion فى أثناء الحملة الصليبية الأولى. وفى هذه القصيدة نجد الموقف نفسه الذى يجعل الصليبيين على حق ؛ فإن الرب أمرهم بشن الحرب على الكفار الذين يَضطهدون المؤمنين به على حد زعمهم . وهذه الموقف متكرر فى ذلك النوع الشعرى الذى اصطلح المؤرخون ومؤرخو الأدب على تسميته Chansons de Croisade أى أغانى الحملة الصليبية. وفى جزء كبير من هذه الأغانى نجد قصائد حب تتناول موضوعات غرامية مختلفة : مثل الأسى لفراق المحبوبة أو مناجاتها، أو ما شابه ذلك . بيد أنها جميعًا تكشف عن الظروف الوجدانية السائدة ومدى قبح الصورة التى ترسمها هذه الأغانى للإسلام والمسلمين.

ومن هذه القصائد القصيرة نجد أغنية تتحدث عن الحملة الصليبية الثانية؛ فقد كان ملك بيت المقدس الصليبي صبياً في الخامسة عشرة من عمره ، عندما حدث في عيد الميلاد سنة ١١٤٤م أن قام «عماد الدين زنكي» باسترداد الرها من الصليبيين ، وأعلن لويس السابع ملك فرنسا عزمه على الخروج في حملة صليبية ضد عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود، ثم خرج لويس فعلاً في الثاني عشر من يونيو ١١٤٧م . وتتحدث الأنشودة عن أن المسلمين استولوا على أرض الرب التي كانت تتم فيها عبادته :

لقد استولوا على الرها، وعليكم إنقاذها

مم يخشى المسيحيون؟

لقد نهبت الكنائس ودُمرت

ولم يعد هناك من يضحي للرب

أيها الفرسان ، فكروا في هذا

إن الشعر المعروف باسم «**أغاني الحروب الصليبية**» يكشف عن صورة جامحة ، نزقة وقاسية ، لموقف أوربا الكاثوليكية من «العالم المسلم» ؛ ولكنه يكشف من ناحية أخرى عن أنها كانت صورة رائجة متكررة في «**أغاني الحروب الصليبية**» التي كانت شكلا من أشكال الكتابة المحلية تظهر فيها الحملات الصليبية باعتبارها موضوعًا منذ حوالي منتصف القرن الثاني عشر فصاعداً . ولم يبق من هذه الأغاني سوى القليل ؛ فالأغاني التي اتخذت من الحركة الصليبية موضوعًا وحيداً لها نادرة

نسبيًا ؛ ولكن هناك أغاني كثيرة تلعب فيها الحركة الصليبية دورًا ما ؛ موضوعًا ، أو قصة مجازية ، أو تطويرًا لفكرة أخرى . ويذكر أحد الباحثين أن هناك مائة وستة أمثلة من هذه الأغاني باللغة الأوكسيتانية Occitan ، التي كانت اللغة الأدبية في جنوب فرنسا آنذاك، وحوالي أربعين مثالاً بالفرنسية القديمة ، وثلاثين بالألمانية ، ومثال واحد بالإسبانية، وإثنان بالإيطالية.

وربما لم تكن أغاني الحروب الصليبية نوعًا أدبيًا ؛ لأن الشعراء ضمنوا إشارات إلى الحملات الصليبية في تنويعة كبيرة من الأشكال الشعرية ، ولا يوجد دليل على أن الشعراء ابتكروا أشكالاً جديدة، أو أنواعًا شعرية جديدة، للحديث عن الحروب الصليبية. وكان ازدياد عدد الشعراء التروبادور بعد سنة ١١٦٠م واتساع شعبيتهم هم ونظرائهم في جنوب فرنسا ؛ أي الشعراء التروفير Trouvers ، يعني انعكاس أحداث الحملة الصليبية الثالثة والحملة الرابعة (التي استولت القسطنطينية) في هذه الأغاني . أما الحملات الصليبية التي شهدها القرن الثالث عشر فتنعكس في تيار ثابت من الأغاني التي كُتب معظمها بالفرنسية والألمانية . وما يهمنا هنا صورة المسلمين في هذه الأغاني:

هناك أقوام كثيرة قريبة من نسل قابيل ، المجرم الأولى

وليس بينهم شعب واحد يمجد الرب

وسوف نرى من هو صديقه الحقيقي

لأنه من خلال قوة المطهر

سوف يسكن المسيح بيننا

وسوف يضطر إلى الهرب أولئك الذين يؤمنون بالكهانة والعرافة

وفى أغنية بعنوان Ez grounet wol giede ، ربما كتبت وقت الحملة الصليبية السادسة التى حصل فيها فردريك الثانى على القدس بمقتضى الهدنة التى عقدها مع السلطان الكامل الأيوبى، يتصور الشاعر أنه يكتب من فلسطين خطاباً إلى وطنه :

إذا ما سألوك كيف تجرى الأمور معنا نحن الحجاج

فاخبرهم عن مدى سوء المعاملة التى لقيناها من الفرنسيين والإيطاليين

هذا هو سبب تعبنا فى هذا المكان

ونادراً ما نجد فى أغاني الحروب الصليبية وصفاً للقتال الفعلى ؛ ولكن هذه الأغانى تحفل بالتفاصيل الدموية لأغراض الدعاية؛ فقد وصف شاعر مجهول كيفية استرداد الخوارزمية الذين كانوا فى جيش الناصر داود أمير الكرك (فى شرق الأردن) مدينة بيت المقدس سنة ١٢٤٤م. وعلى الرغم من أنه لم يكن شاهد عيان فقد أطلق لخياله العنان، فى القصيدة الواحدة الباقية بالإسبانية :

«ثم جاءت الحسناوات الرقيقات،

مكبلات بالأغلال يثقلهن العذاب

يبكين بحرقة فى أساهن وبلواهن بالقدس

ويرى المسيحيون أطفالهم يشوون على النار

ويرون زوجاتهم وقد مزقت أثداؤهن

ونزعت من أماكنها وهن أحياء

... ...

ويجعلون من الضريح المقدس اسطبلاً

ومن الصلبان المقدسة أوتادًا في القدس

وهذه الصورة الكريهة عن ممارسات المسلمين المزعومة تعززها صورة أخرى عن المسلمين تكشف عن الجهل وعن العداء الهستيرى السائد فى الوجدان الأوربى فى ذلك الحين:

هؤلاء الكلاب المور (أى المسلمين) سيطروا على المكان المقدس سبع سنين ونصف

ويساعدهم أولئك القادمون من بابيلون ، ومعهم الأفارقة والقادمون من الحبشة

إن المسيحيين قلة، أقل من قطيع أغنام

والمسلمون كثر، أكثر من نجوم السماء

وهناك قصيدة تصف المسلمين جسديًا وصفًا بشعًا؛ تتخيلهم فيه نوعًا من الوحوش الضارية وليسوا من البشر ؛ فأجسادهم أجساد الكائنات الأسطورية Butentrot، رؤوسهم ضخمة، وعلى العمود الفقرى فى منتصف ظهورهم يوجد شعر خشن مثل شعر الخنزير «**... وهم جنس لم يعبد ربنا إطلاقًا ، ولم نعرف شعبًا أكثر منهم شرًا: وجلدهم أشد صلابة**

من الحديد، ولايستخدمون خوذة ولا درعًا، وهم فى المعركة قساة بلا إيمان...»

هذه الصورة التى رسمها الشعر الأوربى للمسلمين فى زمن الحروب الصليبية تنسجم مع الكتابات التى اتخذت شكل التاريخ والتى كتبها فى الغالب رجال الكنيسة من الرهبان والقساوسة . وقد كانت الدعاية سلاح البابوية الحاسم فى تجنيد الصليبيين من بين السادة الإقطاعيين والعائلات الإقطاعية البارزة فى أوربا . وقد حوّلت الحروب الصليبية الموقف تمامًا فى أوربا ضد المسلمين ؛ فقد تشكلت صورة لهم تستدعى كل المشاعر العدوانية وتصمهم بالبربرية . وهنا يجب أن نضع فى اعتبارنا أنه فى خضم الحروب الصليبية كانت كل ثقافة مشتبكة فى هذه الحروب تصم خصومها بالوحشية والبربرية ، وتنسب إليهم العديد من الصفات الوحشية والسلبية . فقد وصفت أناكومنينا Anna Comnena ، إبنة الإمبراطور اليكسيوس كومنينوس، العاهل البيزنطى الذى تعامل مع الموجات الصليبية الأولى، والتى كتبت سيرة أبيها ، تصف خبر وصول الصليبيين إلى الأراضى البيزنطية :

«... لم يكن أليكسيوس قد استراح من مشاغله إلا قليلاً ، وعندما وصلت شائعة عن وصول جيوش فرنجية بأعداد تفوق الحصر. وكان يخشى إغارات هؤلاء الناس لأنه كان قد عرف فعلاً الغضب الوحشى الذى يتسم به هجومهم، كما كان يعرف تقلب مزاجهم واستعدادهم لمعالجة أى أمر بالعنف ... إن الغرب عن بكرة أبيه ، والشعوب البربرية فى الأرض

المتدة فيما وراء البحر الأدرياتي حتى عمودى هرقل (مضيق جبل طارق) قد اندفعوا إلى آسيا فى أعداد غفيرة ...» وليست هذه الملاحظة الوحيدة فى كتاب أنا كومينتا Alexiad على «بربرية» الفرنج على أية حال، كما أنها لم تكن المؤرخة البيزنطية الوحيدة فى ذلك الموقف لاسيما وأن الحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٤م قد استولت على الإمبراطورية البيزنطية ونهبت العاصمة القسطنطينية وارتكبت فظائع كثيرة.

وفى رأى البعض أن استخدام مصطلح «برابرة» على هذا النحو كان أمرًا تقليديًا ؛ إذ إن الكلمة تصف ثقافة أجنبية ومؤسسات غربية، مثلما استخدم الإغريق القدامى هذا المصطلح للدلالة على كل من لا يأخذون بالأسلوب الإغريقى أو يتحدثون اللغة اليونانية . واستخدمها الرومان لتحقير «الآخر » بشكل عام. وفى هذا السياق استخدمها اللاتين فى أوربا العصور الوسطى ضد المسلمين فى مؤرخاتهم وفى أشعارهم وأغانيهم، على نحو ما بينا فى الصفحات السابقة . فقد وردت كلمات تصف المسلمين من العرب والأتراك Arabes et Turci بأنهم برابرة Barbari ، وأنهم وثنيون Pagani ومن الأغيار gentiles.

ومن المثير أن وليم الصورى William of Tyre (أسقف صور، والمؤرخ الصليبى الوحيد الذى ولد وعاش على الأرض العربية فى فلسطين) كتب بعد حوالى سبعين سنة من الخطبة التى ألقاها أوربان الثانى فى كليرمون ، متخيلاً كيف كان رد فعل الخليفة الفاطمى تجاه الحملة الصليبية الأولى:

«أمير مصر، الذى كان أقوى الحكام الشرقيين ... جمع جيوشاً جرارة قائلاً إن من العار أن شعباً بربرياً من أقاصى الأرض، يدخل مملكته ، ويحتل بالعنف ولاية خاضعة لحكمه ... » لقد استخدم وليم الصورى، الذى كان هو نفسه من نتاج الاستيطان الصليبى ، مصطلح «البرابرة» فى سياق كتابته التاريخية للدلالة على قومه ؛ ليكشف عن أن موقف العداء يستدعى، بالضرورة إدانة «الاخر».

كانت هذه الملامح العامة لصورة المسلمين فى العقل الغربى فى فترة الحروب الصليبية. ومن المهم هنا أن نشير إلى أنه بالنسبة لغالبية المسلمين والأوربيين ، لم تكن الحروب الصليبية حروبا عادية بسبب التنافس الاقتصادى ، أو السياسى، أو بسبب النزاع على الحدود الجغرافية؛ وإنما كانت، فى نظر كل من الطرفين، **«حرب المؤمنين ضد الكفار»**. وكان من الطبيعى أن يحاول كل منهما تشويه صورة الآخر . بيد أن ما يلفت النظر هنا أنه بينما كان «الاختلاق» والخيال الشرير الناجم عن الجهل، وعدم الرغبة فى المعرفة، من سمات موقف الكتابات الأوربية كما أسلفنا ، كان «الرصد» ، «والتعالى» ، و «العداء» من خصائص الكتابات العربية عن الفرنج زمن الحروب الصليبية بوجه عام.

(٦)

الموقف فى العالم المسلم

يمكننا أن نقرر ، بصورة عامة ، أن الحروب الصليبية لم تنتج أى تأثير سلبى من جانب المسلمين تجاه المسيحيين من أبناء البلاد العربية آنذاك . فلم يحدث أى تغيير فى وضع أهل الذمة ، بل استمر المسيحيون فى حياتهم العادية داخل المجتمعات العربية وتولى عدد منهم مناصب مهمة فى الدولة . وعندما جاء الصليبيون إلى المنطقة فى أواخر القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى، كان التعايش بين المسلمين والمسيحيين قد أثبت قوته على مدى أربعة قرون. ولانجد فى المصادر التاريخية العربية ما يدل على أن المسيحيين المحليين تأثروا سلبًا بسبب أحداث الحروب الصليبية سوى بسبب ممارسات الفرنج الكاثوليكي ضدهم، وعدوانهم على كنائسهم وممتلكاتهم . وقد ساعد على استقرار التعايش بين المسلمين والمسيحيين فى المنطقة العربية، أن الصليبيين كثيرًا ما هاجموا ممتلكات المسيحيين المحليين واستولوا على كنائسهم . وما كان معروفًا بالضرورة من الاختلاف المذهبى العنيف بين الكنيسة الأرثوذكسية ، والكنيسة الغربية الكثوليكية. وتاريخ العداء العنيف الذى كان قد وصل إلى الإنشقاق الكبير بين المذهبين سنة ١٠٥٤م . جعل المسيحيين المحليين يرون فى الحركة الصليبية بالضرورة حركة عدوان خارجى ضد أوطانهم.

على الجانب الآخر نجد الصورة التى عرفها المسلمون عن الغرب تكاد تكون محصورة فى الصليبيين الذين كانوا قد صاروا «جيرانا» بالقوة فى المنطقة العربية، وفى الإسبان الذين كانوا قد صاروا «جيرانا» بالقوة أيضًا بعد الفتح الإسلامى للأندلس فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى . فقد وصف المؤرخ الأندلسى ابن عبدون القساوسة بأنهم «أشرار» . ولكن الأمر فى شرق المنطقة العربية، زمن الحروب الصليبية ، كان مختلفًا . فقد وصف الأصفهانى، الذى كان من رجال صلاح الدين الأيوبى فى كتابه «الفتح القسى فى الفتح القدسى» الصليبيين بقوله : «... **والكفار قد خشنت عرائكهم ، واتسعت ممالكهم .. وقاتلوا جنداً ورعية، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ... فلا ينزع الحديد لوضوء ولامسح ، شقراً كأنما لفحت النار وجوههم ، وهم فيها كالحون ... قد نزع الله الرقة من قلوبهم ... فظاظ، جهنميون كلامهم شرر، وأنفاسهم شواظ ... خلق الله الخلق من طين، وخلقهم من حجارة ...».**

لقد كان ما ارتكبه الصليبيون من أهوال تتسم بالوحشية الشديدة والقسوة، حتى بمقاييس تلك العصور، من أسباب هذه الصورة العنيفة التى رسمتها كلمات عماد الدين الأصفهانى. فقد كانت مذابح أنطاكية ١٠٩٨م ، ومعرة النعمان ، والبارة، ومذبحة بيت المقدس سنة ١٠٩٩م ، والمذبحة التى ارتكبها ريتشارد الأول (قلب الأسد) ضد أهالى عكا على الرغم من الأمان الذى بذله لهم سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م ... وغيرها من الأمثلة، مبرراً لهذه الصورة العنيفة . كما أن أسامة بن منقذ فى كتاب «الاعتبار» يقدم لنا أمثلة أخرى عن وحشية الصليبيين فى معاملة الأسرى.

وإذا كانت المصادر التاريخية العربية قد تعاملت مع الصليبيين باعتبارهم من الكفار، فإن ، ذلك لم يكن إنكاراً للمسيحية نفسها ، وإنما كان يعكس التعامل مع الصليبيين باعتبارهم «أعداء » من ناحية، وكفاراً من ناحية أخرى، وقد وردت عبارات مثل : «**الكفار**» و« **العدو المخذول** » أو «**الإفرنج لعنهم الله**» فى كافة المصادر التاريخية العربية المعاصرة أو التى كتبت عن أحداث الحروب الصليبية بمراحلها المختلفة. لقد كان طبيعياً أن تتعامل المصادر التاريخية العربية مع الصليبيين من موقف عدائي ؛ وهكذا كان التكفير متبادلاً بين الطرفين.

ولكن هذه المصادر التاريخية العربية لم تخلُ من السمة الموضوعية التى افتقرت إليها المصادر اللاتينية؛ فإن المسلمين لم ينسبوا للديانة المسيحية شيئًا سلبيًا ، لأنهم كانوا «يعرفون» المسيحية وكانوا يحترمون المسيح عليه السلام باعتباره نبيًا ورسولا ، وليس إلهًا ، كما اعترفوا بمعجزاته التى أوردها القرآن الكريم ، ويبجِّلون السيدة مريم «أفضل نساء العالمين»؛ وإنما انصب عداؤهم على «الفرنج » أى المسيحيين الكاثوليك القادمين من غرب أوربا دون سواهم . ولكن الفرنج أنكروا الإسلام وهاجموا النبى ونسبوا إلى الدين الإسلامى والنبى أموراً كانت من نتاج خيالهم الشرير ولا صلة لها بالواقع . ومن ناحية أخرى، فإن المؤرخين المسلمين احترموا فى عدوهم صفات الشجاعة والبسالة والقدرة القتالية . يقول أسامة بن منقذ عن هذا «... **سبحان الخالق البارى، إذا خبر الإنسان أمور الفرنج سبَّح الله وقدسه ، ورأى فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لاغير...**» كما أن

ابن شداد كاتب سيرة صلاح الدين الأيوبى تحدث عن قوة احتمالهم، ويتحدث عن شجاعة ريتشارد الأول ملك انجلترا « **... وكان الملعون شجاعاً باسلاً ، صاحب رأى فى الحرب، وثبت بين يدى العسكر » وهو « ..شد البأس بينهم ، عظيم الشجاعة قوى الهمة، له وقعات عظيمة، وله جسارة على الحرب ...»** وقد شاركت مصادر عربية أخرى فى الحديث عن شجاعة الصليبيين وجسارتهم . وكانت تبدو فيها أحياناً رنة الإعجاب والتقدير لهذه الشجاعة والجسارة.

وقد أدرك المؤرخون المسلمون مدى خضوع الصليبيين للدعاية الكنسية، والحيل التى مارسها بعض رجال الكنيسة الكاثوليكية مثلما حدث أثناء الحصار المزدوج لأنطاكية سنة (١٠٩٨م) بعد أن تملك اليأس من الصليبيين. فقد أورد «ابن الأثير» حكاية الحربة المقدسة « **... وكان معهم راهب مطاع فيهم، وكان داهية من الرجال ، فقال لهم إن المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقسيان الذى فى أنطاكية، وهو بناء عظيم ، فإن وجدتموها فإنكم تظفرون، وإن لم تجدوها فالهلاك محقق . وكان قد دفن قبل ذلك حربة فيه وعفّى أثرها. وأمرهم بالصوم والتوبة ففعلوا ذلك ثلاثة أيام ... فوجدوها كما ذكر ؛ فقال لهم أبشروا بالظفر ...»** وقد أوردت المصادر اللاتينية قصة الحربة ، وكشفت عن كذب القس الذى اخترعها وتمت محاكمته على الطريقة الجرمانية .

لقد كان المقاتل الصليبى متديناً على طريقته ، وهو ما لاحظه العماد الأصفهانى، وابن شداد، وغيرهما. بل إن المؤرخ ابن القلانسى كتب أن

الصليبيين كانوا يحملون معهم إلى ميدان المعركة كنيسة متنقلة . ومن ناحية أخرى، تمدنا المصادر التاريخية العربية بعدد من الأمثلة التى توضح مدى حرص الصليبيين على رحلة الحج . إذ إن ابن شداد يحدثنا عن أنه بعد صلح الرملة بين صلاح الدين وريتشارد الأول، وصل عدد كبير من الصليبيين بقصد الحج إلى بيت المقدس وفتح لهم السلطان الباب للحج «... **ونفذ معهم الخفراء يحفظونهم حتى يردوهم إلى يافا ...»** . وكان هدف السلطان «... **أن يقضوا وطرهم من الزيارة، ويرجعوا إلى بلادهم فيأمن المسلمون شرهم ...»** وعندما عرف ريتشارد بالأمر «... **صعب عليه ذلك، وسيَّر إلى السلطان يسأله منع الزوار، واقترح ألا يأذن لأحد إلا بعد حضور علامة من جانب أو بكتابه . وعلم الأفرنجية ذلك فعظم عليهم واهتموا بالحج ؛ فكان يَرِد منهم كل يوم جموع كثيرة ، مقدمون أوساط وملوك متنكرون ...»** كما كتب العماد الأصفهانى وصفاً تفصيلياً لصليب الصلبوت الذى ضاع من الصليبيين فى خضم معركة حطين، ومدى تقديسهم لهذا الصليب الذى كان محفوظا فى صندوق من الذهب .

كانت هذه بشكل عام ملامح الصورة التى رسمتها كتابات المؤرخين العرب للفرنج الصليبيين الذين تعاملوا معهم على مدى قرنين من الزمان تقريباً ، وربما كانت هذه الصورة قد انسحبت على الأوربيين جميعاً لأنه لم يكن هناك غيرهم من الأوربيين الذين وصفتهم مصادر تلك الفترة ، وكونتها نتيجة لطبيعة التعامل معهم .

على أية حال ، استمرت الصورة المثيرة الغريبة التى تخللت كتابات الطرفين فى محاولاتها لتصوير الآخر فى صورة سلبية ، على الرغم من أن

الموقف اختلف من الناحية النوعية فى الناحية الأوربية عنه من الناحية الإسلامية. ولكن الموقف الشعبى فى الناحية الإسلامية كان مختلفًا عن موقف المؤرخين الذين كانوا ينتمون بطبيعة الحال إلى النخبة المثقفة . ذلك أن «حكايات ألف ليلة وليلة» الشهيرة حملت أصداء التأثيرات التى تركتها الحروب الصليبية على الناس فى العالم الإسلامى. فهناك ثلاث حكايات تزيد لياليها على مائتى ليلة من ليالي «ألف ليلة وليلة» وتدور حول الحروب الصليبية ؛ ويلفت النظر أنها تمثل حوالي خمس الليالى ؛ وهى:

١- حكاية الملك النعمان وولديه شركان وضوء المكان

٢- حكاية على نور الدين ومريم الزنارية

٣- حكاية الصعيدى وزوجته الفرنجية

فى تلك الحكايات ينزع الخيال الشعبي نزوعًا عدوانيًا نحو الانتقام من الشخصية الأوربية المسيحية؛ فيجردها من أية صفات إيجابية ، ويسرف فى تشويه صورتها الجسدية والأخلافية ويسخر من رموزها الدينية. ومن يقرأ حكايات «ألف ليلة وليلة» الثلاث فى لياليها المائتين يلمس على الفور ذلك الشعور الواضح بالكراهية والمرارة التى علقت بالوجدان الشعبى العربى تجاه الفرنج الصليبيين. ورسمت لهم صورة بشعة تجمعت ملامحها وأجزاؤها المختلفة من حكايات الجنود العائدين من ميادين القتال. ومن روايات اللاجئين الهاربين من مذابح الصليبيين الشهيرة على مدى قرنين من الزمان ، فضلاً عن الأخبار المتداولة فى أماكن التجمعات، ومراكز الإعلام التقليدية فى الأسواق ، وصلاة الجمعة ومصاطب الحوانيت،

ودروس المساجد والحمامات ... وما إلى ذلك . فضلاً عن الأحاديث والخطب التى تتحدث عن القدس ومكانتها وفضلها، وتحث على الجهاد، وقصائد الشعراء التى غطت جميع المناسبات . وقد امتزج هذا كله بالخيال الشعبى الذى أعاد قراءة تاريخ الحروب الصليبية من وجهة الظر الشعبية وفقًا للحاجات الثقافية- الاجتماعية للناس آنذاك. وقد اختار الخيال الشعبى أبطاله من التجار، وعامة الناس، والبسطاء تجسيداً للدور الغائب فى كتابات المؤرخين التقليديين ، الذين كان معظمهم يحمل وجهة نظر الفئة الحاكمة. وكان هؤلاء الأبطال الشعبيون هم الذين قادوا الصراع ضد الفرنج الصليبيين فى حكايات «ألف ليلة وليلة» التى لانسمع فى ثناياها عن الشخصيات التاريخية الحقيقية التى قادت الصراع بالفعل ، وكان هؤلاء الأبطال الشعبيون هم الذين وقع عليهم العبء كله فى تلك الحكايات الشعبية، مثلما كانوا فى الحقيقة وقود الحرب ضد الصليبيين.

من ناحية أخرى؛ فقد تجسدت فى حكايات ألف ليلة وليلة الأبعاد الثلاثة التى تصور الخيال الشعبى أن الصراع بين المسلمين والفرنج الصليبيين يتمحور حولها :

أ) البعد العسكرى وقيم البطولة والشجاعة والبسالة ، وقد جسدت هذا البعد حكاية «الملك نعمان وولديه شركان وضوء المكان».

ب) البعد الجنسى الذى جسدته حكاية «على نور الدين ومريم الزنارية».

ج) البعد الدينى الذى بدا واضحًا فى حكاية «الصعيدى وزوجته الفرنجية» .

لقد رأى الخيال الشعبى فى هذه الحكايات أن المسلمين متفوقون على الفرنج الصليبيين فى هذه الأبعاد الثلاثة . وساقت الحكايات الثلاث فى لياليها المائتين الكثير من الأحداث والتفاصيل كى تؤكد على هذا التفوق. بيد أن أهم ما تعبِّر عنه حكايات «ألف ليلة وليلة» تلك العداوة والكراهية التى وجدت لنفسها متنفسًا فى الصفات التى خلعتها على شخوصها من الفرنج الأعداء وإمعانها فى النيل منهم، سواء فى صفاتهم الجسمانية وملامحهم الجسدية ، أو من حيث خصالهم وصفاتهم الأخلاقية : فهم قبيحو الخلقة ، أشرار مخادعون . ومن ناحية أخرى تجلّت هذه العداوة والكراهية فى السخرية من مقدسات الإفرنج وزعمائهم الكنسيين الذين اتهموا بالكفر وتحريف الإنجيل والكذب على المسيح . ولكننا يجب أن نلاحظ أن الخيال الشعبى لم يقترب من السيد المسيح أو مريم العذراء ، ولم يقدم على إنكار المسيحية الحقة. لقد انصب العداء على الفرنج الصليبيين ولم يصل إلى الدين نفسه مثلما فعل الكاثوليك فى أوربا فى موقفهم تجاه الإسلام .

ونجد فى فى حكايات «ألف ليلة وليلة» اتهامات للفرنج بالكفر وتحريف الأنجيل . ومن المثير أن هذه التهم تتوافق مع الأوصاف التى ألصقتها المصادر التاريخية فعلاً بالفرنج ، فقد تعاملت المصادر العربية والمأثورات الشعبية العربية مع الشخصية الصليبية باعتبارها شخصية كافرة. وكان هذا انعكاسًا طبيعيًا للعداء بين الجانبين . فقد كانت الحروب الصليبية حربًا مثل أية حرب أخرى على الرغم من تسربلها بثوب الدين، ومن هنا خلقت مشاعر العداوة والكراهية ضد «الآخر» الذى تدور الحروب ضده . وكان الاتهام بالكفر سلاحًا متبادلاً فى دعاية كل من الطرفين ضد الآخر.

لقد تغيرت العلاقات بين «العالم المسلم» و«عالم المسيحية» تغيراً سلبياً مفاجئًا مع قدوم الحملة الصليبية الأولى إلى المنطقة العربية ، ثم بعد نجاح الفرنج الصليبيين فى إقامة مملكة بيت المقدس والإمارات الصليبية الثلاث الأخرى فى الرها، وأنطاكية ، وطرابلس . إذْ كانت موجة العداء المتصاعدة بشكل هستيرى قد ولدت فى الغرب الأوربى الكاثوليكى فى غمار الدعاية التمهيدية للحملة الصليبية، واستمرت الموجة فى تصاعدها لتغمر مشاعر الأوربيين. ولكن التغير السلبى لم يحدث بهذا الشكل العنيف على الجانب العربى الإسلامى سوى بعد أن اكتشف المسلمون أن الفرنج قد جاءوا إلى المنطقة العربية بقصد الاستيطان والبقاء ولم يكونوا قومًا من المرتزقة الذين اعتادوا أن يروهم فى خدمة الروم (البيزنطيين). عندها طغت مشاعر العداء ضد الفرنج الصليبيين، لابوصفهم مسيحيين وإنما لأنهم معتدون. ويرى سوثرن Southern أن الحملة الصليبية الأولى لم تجلب المعرفة إلى أوربا الغربية عن الإسلام والمسلمين وإنما تسببت فى العكس تمامًا ؛ فقد أدى نجاح الحملة الصليبية الأولى إلى سيادة مشاعر الزهو بالانتصار والاحتقار من جانب الفرنج الصليبيين تجاه المسلمين . وأدى نجاح الحملة إلى تكريس صورة سلبية للإسلام ولنبى الإسلام فى أثناء السنوات الأربعين الأولى من القرن الثانى عشر كانت نتاجًا لحكايات المحاربين الصليبيين العائدين إلى أوربا، والمبالغات الخيالية التى حملتها «**أغانى الحروب الصليبية** » . وقد أخذ الأوربيون هذه الأساطير والخيال الشرير على أنها الحقيقة . إذ إن كل ما كان أبناء الغرب الكاثوليكى يعرفونه آنذاك عن حياة نبى الإسلام عبارة عن شذرات متناثرة نقلها الكتاب الغربيون عن الكتاب البيزنطيين .

على الجانب المسلم ، كانت الصورة التى رسمها الخيال الشعبى عن «الآخر» تحمل قدراً كبيرا من التخيل العدواني، وكذلك كان الحال على الجانب الأوربى . بيد أن الرغبة فى المعرفة حفزت كلاً من الطرفين على البحث عن الوسائل الكفيلة بتحقيق هذه المعرفة . وكانت الفرصة متاحة لأبناء المنطقة العربية من خلال الكيان الصليبى الذى تعرف عليه المسلمون بطريقة مباشرة على النحو الذى كشفت عنه مذكرات أسامة بن منقذ فى «كتاب الاعتبار» ، أو ملاحظات الرحالة ابن جبير، أو خبرات الاحتكاك اليومى فى الأسواق والموانئ بين التجار المسلمين وأهالى المناطق التى احتلها الفرنج الصليبيون من ناحية، والمستوطنين الصليبيين من ناحية أخرى.

ولم يكن هناك سبب يدعو العرب والمسلمين عامة إلى تخطى الصليبيين الذين كانوا فى جوارهم مباشرة إلى محاولة التعرف على الأوربيين فى أوربا . أما بالنسبة لمسلمى الأندلس والمغرب فقد كانت علاقاتهم بالغرب الأوربى قد وفرت لهم القدر اللازم من المعرفة بأوربا. وربما كان الإحساس بالتفوق لدى المسلمين فى الأندلس حاجزاً حال بينهم وبين الرغبة فى معرفة ذلك الجار «المتخلف» فى الغرب الأوربى . كانت هناك بالتأكيد صورة عدائية بين الجانبين؛ ولكن الصورة كانت تشبه نقيض الصورة فى الشرق العربى. فقد كان مسلمو الأندلس على حافة العالم المسيحى الغربى تكاد تحاصرهم القوى المسيحية منذ القرن الثانى عشر، على حين كان الفرنج فى المنطقة العربية محصورين فى بحر من السكان العرب المسلمين.

(٧)

ما بعد الحروب الصليبية

حين أدرك الأوربيون أن المشروع الصليبى في طريقه إلى الفشل والنهاية، أدركوا أن الدعاية ليست وسيلة مناسبة لمعرفة «الآخر» لأنها جعلتهم يتعاملون مع صورة خيالية كانوا هم الذين اختلقوها وروجوا لها. وأرادوا البحث عن «الحقيقة» . ويرى سوثرن Southern أنه لايجب أن تعترينا الدهشة عندما نعرف أن أولى المحاولات الدقيقة لمعرفة الإسلام فى الغرب تمت على أيدى رجال ممن أسهموا بقدر كبير من الكتابات الخيالية التى انتشرت فى أوربا آنذاك عن الإسلام والمسلمين؛ ومنهم وليم مالمسبورى William Malmesbury (١٠٨٠-١١٤٣هـ) الذى كان أول من ميَّز بشكل واضح بين خرافات السلف وعبادة الأصنام التى كانوا يمارسونها، وبين الديانة الإسلامية التوحيدية؛ على الرغم من أنه كان مولعًا بالحديث عن المعجزات والسحر فى مؤلفاته . فقد كان يسبح ضد التيار وهو يؤكد أن الإسلام يعتبر محمداً عليه الصلاة والسلام نبيًا من أنبياء الله وليس إلهًا للمسلمين .

ولكن تلك المؤشرات الواعدة نحو محاولة الفهم الأوربى للإسلام والمسلمين لم تلبث أن توارت خلف ضباب أنباء سقوط عكا فى أيدى

المسلمين بقيادة السلطان الأشرف خليل بن قلاون سنة ١٢٩١م . معلنة بذلك نهاية المشروع الصليبى على الأرض العربية وفشل أوربا فى صيانة ذلك الكيان الاستيطانى . فقد بدأ الكتاب الأوربيون عودة سريعة إلى روح العداء والشك وكراهية الأجانب. فقد كتب ريموند لول Roymund Lull موضحًا أن الآمال التى لاحت فى العقود السابقة قد تلاشت ، وذكر أنه فى حال عودة النساطرة المنشقين إلى حظيرة الكاثوليكية ، واعتناق التتار المسيحية يمكن «تدمير» المسلمين جميعًا فى سهولة . ولكنه أبدى مخاوفه من أن يعتنق التتار الإسلام... لأنهم لو فعلوا ذلكم ... فسوف يكون العالم المسيحى عرضة لخطر شديد.

ولكن ما لم يكن يعرفه لول أن أسوأ مخاوفه كانت قد صارت حقيقة. فقد اعتنق قازان ، زعيم التتار فى فارس، الدين الإسلامى، وعندما اعتلى العرش سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م كان أول مرسوم أصدره ينص على أن الإسلام الدين الرسمي للدولة، وأن الشريعة الإسلامية أساس نظام الدولة. وهكذا خسرت الكاثوليكية رهانها فى السباق مع الإسلام من أجل احتواء التتار ، وصار التتار قوة إضافية إلى العالم المسلم فى آسيا .

وعلى الرغم من أن المشروع الصليبى على الأرض العربية قد فشل بسقوط عكا سنة ١٢٩١م ؛ فإن إعادة الاستيلاء علي المنطقة ظل سرابًا يجذب الأوربيين تجاهه كل حين، وتجلت هذه الحقيقة فى تلك المشروعات والخطط الكثيرة التى قدمها أصحابها من السفراء والمغامرين ورجال الكنيسة الكاثوليكية إلى أصحاب القرار من الكنسيين والعلمانيين فى أوربا الغربية ؛ وفى تلك الرحلات الكثيرة التى تدفقت على المنطقة العربية

على مدى القرون التالية ، والتى كان عدد كبير منها بقصد التجسس ومعرفة مواطن الضعف ، وكيفية تحقيق أهداف المشروعات الصليبية المتأخرة ؛ فقد شهدت الفترة ما بين سنة ١٣٠٠م وسنة ١٦٤٠م عدداً كبيراً من الرحلات إلى مصر والأراضى المقدسة. إذ إن ضياع عكا ، آخر موطئ لأقدام الصليبيين فى فلسطين وبلاد الشام، أهاج موجة أخرى من الحماسة الصليبية عبرت عن نفسها من خلال الحملات الصليبية سنة ١٣٠٩م وسنة ١٣٢٠م كما تجلت فى تلك الغارة الصليبية التى شنها بطرس لوزنيان ملك قبرص الصليبى على الاسكندرية ونهبها سنة ١٣٦٥م، وظلت تلك الروح سائدة حتى أواخر العصور الوسطى.

وقد حملت كتب الرحالة الأوربيين الذين زاروا مصر والأماكن المقدسة فى تلك الفترة التى أعقبت تحرير عكا من الفرنج الصليبيين كثيرا من مظاهر العداء والكراهية ضد الإسلام والمسلمين؛ لقد كانت الأسباب التى أعادت أوربا إلى مواقفها الهيسترية من المسلمين فى القرن الرابع عشر مرتبطة بالخارج وبالداخل الأوربى على السواء . وعلى الرغم من أن القرن الثالث عشر كان قد شهد قدراً من الترحيب بالفلسفة الإسلامية، فإن القرن الرابع عشر شهد تراجعًا واضحًا عن هذا الموقف . ولم يكن هناك أحد فى الغرب الأوربى آنذاك راغبًا فى أن يتعلم شيئًا من المسلمين ، وسادت مشاعر الكراهية للأجانب فى أوربا بصورة متصاعدة بسبب سقوط عكا أواخر القرن الثالث عشر ونهاية الوجود الصليبى على الأرض العربية من ناحية . وقيام دولة سلاطين المماليك قوة إقليمية كبرى فى

المنطقة من ناحية أخرى . أما بالنسبة للأوربيين الذين عانوا وطأة الكنيسة الكاثوليكية والحملات «الصليبية» التى جردتها البابوية ضد خصومها داخل أوربا نفسها ، فقد صار اسم الفيلسوف المسلم «ابن رشد» مرادفًا للكفر . وعلى الرغم من أن تأثير ابن رشد «الشارح الأعظم» لأرسطو على الفلسفة الأوربية فى العصور الوسطى كان كبيراً بحيث تتلمذ على يديه توماس اكويناس (توما الأكوينى) ، فإن أتباع هذا الأخير رأوا أن مجد توماس اكويناس لايتمثل فى أنه تعلم على يد ابن رشد ، وإنما يتمثل فى أنه تغلب عليه فى فلسفته . لقد كان هذا الموقف بمثابة «نصف الحقيقة» من ناحية، ولكنه كان مؤشراً على ما كان عليه الحال فى أوربا وكراهية المسلمين من ناحية أخرى.

ويرى سوثرن أن هذه كانت علامات عصر جديد فى أوربا الغربية؛ فقد أدرك الأوربيون أنه لايوجد لهم حلفاء فى الخارج (بعد فشل سعيهم للتحالف مع المغول وتحول هؤلاء إلى الإسلام، وبعد اكتشافهم زيف أسطورة يوحنا القس Prester John، الذى صورته الأسطورة ملكًا تقع مملكته عند نهاية الأرض حسبما تصورها الأوربيون قرب الحبشة أو أقرب إلى الهند، وسوف يخرج لكى يهزم المسلمين)، كما تفشت الخلافات العميقة بين القوى السياسية الأوربية، ومن بينهما البابوية التى عانت صعوبات متزايدة فى السيطرة على الفكر والثقافة والدين والحياة الأوربية، وأظهر الأوربيون قدرًا كبيراً من اللامبالاة تجاه أعدائهم فى الخارج على الرغم من إحساسهم بخطر أولئك الأعداء ، ولاسيما الإسلام

عدوهم الأكبر بطبيعة الحال . والحقيقة أن الزعماء الأوربيون فى القرن الرابع عشر لم يكونوا متحمسين لشن حروب جديدة ضد المسلمين. وكان هذا الموقف راجعًا فى جانب منه إلى الهزائم الثقيلة التى أنزلها المماليك بالفرنج المستوطنين ، وبالحملات الصليبية القادمة من الغرب فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر. ولم يكن الناس فى أوربا آنذاك مستعدين لمزيد من المغامرات لصالح البابوية لأن مشكلات الحكم، والاقتصاد ، والثقافة الأوربية امتصت طاقاتهم على حين استنفدت «الحروب الصليبية الأوربية»، التى شنتها البابوية على أعدائها فى أوربا ما تبقى من هذه الطاقة.

لقد كانت الحروب الصليبية ميراثًا ورثته أوربا فى القرون الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر عن موجة الحماسة الدينية والتعصب الأخرق الذى اتسمت به زعامة البابوية فى القرن الحادى عشر وما تلاه . ومن ناحية أخرى كانت الحملات الصليبية مغامرات عسكرية وسياسية كان لها تأثير عميق ، سيئ ، على الحياة الأوربية فى العصور الوسطى؛ إذ إنها أضفت مسحة أخلاقية ودينية على الاتحاد بين القوة العسكرية والتدين العاطفى... ولكن أخطر ما خلفته الحروب الصليبية فى أوربا الغربية كان ذلك الدرس الذى وعاه الأوربيون جيدًا؛ ومؤداه أن القتل والتدمير فى سبيل الديانة المسيحية حق. وعلى المدى الطويل عانى المجتمع الأوربى من هذه العقيدة التى جعلت من استخدام القوة العسكرية باسم القيم الدينية أمرًا مشروعًا . وقد تم تحويل هذا النموذج إلى التزاوج بين القوة والقيم

والمثل العليا ؛ مثل رسالة الرجل الأبيض ، أو الديموقراطية ، أو غيرها. هذا الإيمان بحق القتل والتدمير فى خدمة المثل العليا التى تحددها الدول وفق مصالحها الحقيقية البعيدة عن هذه المثل العليا ، ما يزال قائما بكل قوته حتى الآن فى النموذج الأمريكى وما يرتكبه من شرور فى العالم باسم الديموقراطية ، أو مكافحة الإرهاب.

ومن ناحية أخرى، كانت هزيمة المشروع الصليبى من الأسباب الرئيسية التى جعلت أوربا تشيح بوجهها عن العالم الإسلامى، وتكبت التطلعات المعرفية البازغة . ومثال ذلك ما حدث فى مجمع فيينا الكنسى سنة ١٣١٢م ، عندما قرر المجمع أن تتم دراسة اللغة العربية، والعبرية، والسوريانية فى كل من باريس، وأوكسفورد، وبولونيا وآفينون، وسلامنكا. ولكن تلك الفكرة لم تلبث أن تلاشت دون أن يلاحظ أحد شيئًا؛ إذ لم تتوافر الأموال أو القوة البشرية لتحويل هذه القرارات إلى واقع . واستمرت المواقف الهيستيرية الصارخة سائدة طوال القرن الرابع عشر لاسيما وأن هذا القرن شهد نمو القوة العثمانية التى شكلت تهديداً جديداً لأوربا على جبهة جديدة. ومن ناحية ثانية انتهت الحملات الصليبية فى القرن الرابع عشر ضد العثمانيين بمجموعة من الكوارث ؛ وكانت حملة نيقو بوليس Nicopolis سنة ١٣٩٦م قد انتهت بذبح الآلاف من الصليبيين الأوربيين على أيدى العثمانيين.

لقد استمر التيار العدائى التحتى ضد «الآخر» المسلم عموماً فى أوربا طوال القرن الرابع عشر، وقد تجلى بطريقة أكثر شؤمًا فى أثناء سنة

١٣٢١م عندما سرت شائعات فى أوربا، وفى شمال فرنسا بصفة خاصة، بأن هناك مؤامرة كبرى حيكت بين المجذومين واليهود فى أوربا وزعماء المسلمين فى إسبانيا ، على أن يقدم المسلمون المال والسموم للمجذومين واليهود لكى يلوثوا الآبار بحيث يموت المسيحيون أو يصيروا مجذومين . وبررت الشائعات هذه المؤامرة بأن اليهود يكرهون المسيحيين بالطبيعة ، وأن المجذومين كانوا يريدون الهرب من عار الجذام بتحويل أنفسهم من أقلية إلى أغلبية . أما المسلمون- حسبما قالت الشائعات - فإنهم كانوا يسعون إلى استعادة الأراضى من المسيحيين عندما يصيبهم الوهن والمرض . وقد استخدمت «الاعترافات» التى انتزعتها محاكم التفتيش تحت وطأة التعذيب لكى تتشعب هذه المؤامرة المزعومة ويتسع مداها . لقد عكست هذه الحادثة الشنيعة ، التى أسماها البعض «كابوس متشابك الروابط» مدى التلفيق الشاذ فى بناء صورة «الآخر» ؛ إذ تم حشر جميع أعداء المسيحية الكاثوليكية بحيث صاروا فى الواقع «عدواً» واحداً.

ويرى بعض الباحثين أن من بين الأسباب الكثيرة لانفجار كراهية الأجانب على هذا النحو فى أوربا القرن الرابع عشر ما أصاب أوربا من إحباط بعد الانتصارات الحاسمة التى حققها المسلمون فى الأراضى المقدسة فى العقد الأخير من القرن الثالث عشر. وتحول المغول إلى قوة إسلامية مهمة بعد اعتناقهم الإسلام فى أواخر القرن أيضاً . فقد شعرت أوربا بأنها أمام قوة إسلامية متعاظمة .

وعندما قاربت العصور الوسطى نقطة النهاية، كانت أوربا تعانى من اتساع نطاق الخطر الإسلامى ممثلاً فى الدولة العثمانية التى مدت نطاق

سيطرتها رويداً رويداً بحيث استولت على القسطنطينية سنة ١٤٥٣م وحولتها إلى عاصمة إسلامية . ومع نهاية العصور الوسطى صارت إدانة الإسلام فى الرؤية الأوربية صورة كئيبة متكررة . ويبقى الإسلام والنبى محمد عليه السلام لغزاً بالنسبة للغالبية الساحقة من أبناء الغرب الأوربى الذين استسلموا للصورة السلبية التى رسمت ملامحها كتابات النخبة الأوربية التى تحمل من الخيال الشرير أكثر كثيراً مما تحمل من الحقائق الموضوعية . ويكفى أن نشير هنا إلى كثرة عدد الكتب الزائفة التى كتبت عن النبى محمد عليه الصلاة والسلام بصورة سلبية وزائفة. كما أن دانتى الليجيرى صاحب «لكوميديا الإلهية» التى يعتبرها الباحثين الأوربيين درة النتاج الأدبى الأوربى أواخر العصور الوسطى- على الرغم من ثبوت اقتباسها من نص لابن العربى- قد وضع النبى فى الدائرة الثامنة من الجحيم . ولقد عاد التيار العدائى ضد الإسلام فى صورة أكثر هيستيرية ليستمر حتى أواخر العصور الوسطى.

أما على الجانب الآخر ، أى فى العالم المسلم، فعادة ما كانت السلطات الإسلامية متسامحة تجاه رجال الكنيسة المسيحية وأتباعهم الذين يعيشون فى الدول الإسلامية . وهنا ينبغى أن نشير إلى أن العالم المسلم بات يتخذ احتياطات لحماية أراضيه من أى عدوان أوربى محتمل تحت راية الحروب الصليبية ، وحذر الرعايا المسيحيين من مغبة الاتصال بالقوى المسيحية فى أوربا وفى الحبشة. ولكن الأمر لم يتعد هذه الإجراءات الإدارية التى لم يكن لها أثر على أرض الواقع . وكانت السلطات فى البلاد الإسلامية فى

حوض المتوسط تعرف أن النصارى من رعاياها لا علاقة لهم بالقوى الصليبية وعلى الرغم من حملة بطرس لوزنيان الفاشلة على الاسكندرية سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥هـ ، وما تركته من آثار سلبية؛ فإن أعداداً كبيرة من التجار المغامرين سعوا وراء حظوظهم فوق مياه البحار وصولاً إلى شواطئ المنطقة العربية ، وإلى جانبهم جاء الحجاج الأوربيون من كل مكان فى أوربا الكاثوليكية لزيارة المقامات المقدسة والأماكن المقدسة فى فلسطين ومصر. وقد شجعتهم البابوية على الرحيل، ومنحتهم الغفران الذى يتم اكتسابه عتد كل مزار أو مكان وردت الإشارة إليه فى الكتاب المقدس.

وقد زاد حجم التجارة بين المسلمين والأوربيين زيادة كبيرة بعد أن طرد المماليك المستوطنين الصليبيين نهائيًا من الشريط الساحلى لفلسطين واستولوا على عكا سنة ١٢٩١م. وقد أدى نمو التجارة فى القرن الرابع عشر والخامس عشر إلى مناقشات دبلوماسية كثيرة بين المسلمين والفرنج (وهو الاسم الذى أطلقه المسلمون على الأوربيين جميعًا) بحيث صارت معرفة اللغة مهمة جداً . وقد بدأ أوربيون كثيرون فى تعلم اللغة العربية لأسباب عملية نفعية أولاً ، ثم لأسباب أكاديمية فيما بعد . وعلى أية حال فإن المسلمين لم يكونوا مضطرين إلى تعلم اللغات «الافرنجية» فى ذلك الحين، وربما كان السبب فى ذلك راجعًا إلى إحساسهم بأن الفرنج أبعد مما يجب وأن ليس لديهم شئ يمكن أن يتعلم منه المسلمون . وعلى العموم لم يكن المسلمون يهتمون بأوربا واقتصرت معرفتهم بها على التجار

الأوربيين الذين عاشوا شبه منعزلين فى «فنادقهم» بالبلاد الإسلامية. وفيما عدا التجارة كانت المعاملات مع الأوربيين غير مرغوبة فى كثير من الأحيان . وباتت روايات الرحالة الأوربيين عن المنطقة العربية أكثر عدداً فى القرن السادس عشر، عندما تدفق الأوربيون بأعداد أكبر إلى مصر وما جاورها .

وقد حملت هذه الكتابات بعض الحقائق وكثيراً من الخيال عن العالم العربى. ومن ناحية أخرى، فإن هؤلاء الرحالة كانوا يهتمون كثيراً بالمواقع المقدسة فى رحلاتهم ، وبشكل المدن والمناطق التى يزورونها، لكنهم نادراً ما تحدثوا عن الإسلام والمسلمين. وعادة ما كان أولئك الرحالة ينظرون إلى ما اعتبروه من «العجائب والغرائب» ولم يكونوا من الباحثين الذين يفتشون عن الحقيقة، أو الراغبين فى المعرفة فى غالب الأحوال.

ومع المزيد من توسع التجارة والنشاط التبشيرى جاء البحث عن أسواق جديدة، ومع هذا وذاك تعززت الكتابات تدريجيًا بتطور اللغات والمفردات فى اللهجات الأوربية المحلية والدارجة . وعندما تمت دراسة الكتاب الكلاسيكيين ونشر المعلومات الجديدة عن الأقاليم الجغرافية التى لم تكن معروفة حتى ذلك الحين ؛ بزغ فجر أدب الرحلات ، الذى تطور بشكل كبير فى القرون التالية. وكانت هذه الكتابات الباكرة تضم أحيانًا بعض الخرائط المصورة، أو الرسوم التوضيحية المحفورة على الخشب . ومن ناحية أخرى، لم يؤدْ أدب الرحلات الذى تطور على هذا النحو إلى تغير فهم ملامح الصورة التى تكونت فى أوربا عند الإسلام وعن المسلمين.

وهنا بدأت مـرحلة جـديدة من مـراحل تطور «الآخـر» في وجـدان الأوروبيين يشكل عام، ولكن صورة «الآخر» الأوربى فى المنطقة العربية بعد خضوعها للحكم العثمانى منذ بدايات القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ، ظلت ثابتة نسبياً حتى بداية عصر الاستعمار .

.... وتلك قصة أخرى

خاتمـــة

فى هذه الدراسة الموجزة حاولنا أن نتتبع الخطوط العامة للتطور التاريخى لصورة الآخر عند كل من العالم الأوربى الكاثوليكى ، والعالم العربى الإسلامى طوال الفترة التى امتدت من القرن الهجرى الأول / السابع الميلادى ، الذى شهد بداية حركة الفتوح الإسلامية وتكوين ذلك الكيان السياسى والاقتصادى والثقافى الضخم الذى عرفه مؤرخو الحضارات باسم الحضارة العربية الإسلامية، حتى القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى الذى شهد بسط السيادة العثمانية على المنطقة العربية وقيام الدولة العثمانية بدور «الآخر» المسلم بديلاً عن القوي العربية فى حوض المتوسط وفي الأندلس التى قامت بهذا الدور فى الرؤية الأوربية طوال القرون السابقة.

ويلفت النظر فى هذه الدراسة ذلك الفارق بين موقف القوى الأوربية المتوسطية من ظهور الاسلام وانتصاره ، ثم بروز العالم الإسلامى قوة عالمية عظمى على كافة الأصعدة السياسية ، والعسكرية ، والاقتصادية، والعلمية والفكرية ؛ وهيمنة القوى الإسلامية على البحر المتوسط من ناحية، وموقف القوى الأوربية الغربية والشمالية «البعيدة» من الإسلام فى الفترة السابقة على عصر الحروب الصليبية من ناحية أخرى. كما يلفت النظر أن موقف المسلمين من أوربا الغربية كان نابعًا من موقف القوة المتعالية تجاه أوربا التى كانت فى ذلك الحين مجرد تعبير جغرافى، ومجموعة من القوى

السياسية البدائية تحت حكم قادة الشعوب الجرمانية التى اجتاحت أوربا فيما بين القرن الخامس والقرن السابع الميلاديين. ولم يكن المسلمون- على الرغم من وجودهم فى الأندلس وجزر البحر المتوسط وصقلية وجنوب إيطاليا- يرون فائدة من «معرفة» الآخر الأوربى الذى لم يكن لديه ما يقدمه للعالم الإسلامى الغنى والقوى.

فى تلك الفترة كان «بُعد» المسلمين عن أوربا الغربية والشمالية بعد هزيمتهم فى معركة بلاط الشهداء (تور - بواتييه) على يدى شارل مارتل الملك الفرنجى ، و«بعُد» أوربا عن حركة التجارة فوق مياه البحر المتوسط، أو على طرق التجارة ، وعدم إحساس أوربا الغربية والشمالية بأن الإسلام يمثل تهديداً وشيكا ، وراء تلك الصورة التى ارتسمت فى مخيلة أبناء هذه المناطق عن الإسلام وعن المسلمين ؛ وهى صورة جمعت بين الجهل والخيال الشرير. فقد اخترعوا صورة «الآخر» المسلم التى تناسب عقول رجال الكنيسة الذين كانوا هم مثقفى ذلك الزمان فى أوربا ، والذين كانوا يرون فى محاولة معرفة المسلمين ودينهم نوعًا من **الدنس** الذى لاينبغى لهم أن يقعوا فيه. وربما لاتجد واحداً من كتاب تلك الفترة «**يعرف**» ، أو «**يحاول أن يعرف**» شيئًا عن هذا الآخر الذى كان جاراً قويًا محسوداً ومخيفًا .

وبينما لم يكن هناك فى التراث الثقافى للغرب الأوربى شئ يمكن أن يساعده على فهم الإسلام ، فإن المسلمين كنت لديهم ميزة المعرفة السابقة بالمسيحية. فقد تحدث القرآن الكريم بقدر كبير من الاحترام عن عيسى بن مريم باعتباره نبيًا من أنبياء الله، ولد بمعجزة ربانية من مريم العذراء التى

فضلها الله سبحانه وتعالى على نساء العالم. كما أن من أركان الإيمان الإسلامى أن يؤمن المسلم بنبوة المسيح . ولكن الإسلام لايوافق على القول بألوهية المسيح، أو بكونه ابن الله، كما ينفى حدوث واقعة الصلب ؛ وهى أمور سببت خلافات هائلة بين المسلمين والنصارى . بيد أن هذه الأمور التى اهتمت بها النخبة لم تكن على هذا القدر من الوضوح بالنسبة لعامة الناس على الجانبين . ومن ناحية أخرى، لم يكن هناك قدر كاف من المعرفة لدى كل طرف عن الآخر بسبب الظروف التاريخية التى حكمت مسار الفكر والثقافة آنذاك .

لقد ظلت أوربا والعالم المسلم، بالتبادل، أسرى الجهل بالآخر على المستوى الإنسانى وعلى الرغم من «معرفة» المسلمين بالمسيحية؛ فإن ذلك لم يكن يعنى معرفتهم «بالأوربى» فى حياته الاجتماعية/ الإنسانية ومن ناحية أخرى، فإن الصورة الخيالية التى رسمتها أقلام النخبة الأوربية عن الإسلام والمسلمين كانت تعنى عدم معرفة أوربا بالمسلمين فى حياتهم الاجتماعية / الإنسانية. هكذا كان الجهل والوهم يطبع صورة الآخر بطابعه على الجانبين. إلا أن العداء كان يميز الموقف الأوربى خاصة فى مناطق التماس مع العالم الإسلامى. ومع هذا، فإن الصور العدائية على الجانبين كانت نتاجًا للجهل واللامبالاة حتى بدأت الدعاية الصليبية تتصاعد بشكل هستيرى ضد المسلمين تبريراً للحرب ضدهم ، ثم نتاجًا للهزائم التى ألحقها المسلمون بالمشروع الصليبى فيما بعد . وعلى الجانب المسلم تكونت صورة سلبية قبيحة للفرنج الصليبيين الذين عرفهم المسلمون عن قرب فى خضم الحروب الصليبية، وكانوا هم الأوربيون الوحيدون

الذين كانت «معرفة» المسلمون بهم عن قرب وعن خبرة ومعايشة ونتيجة لهذا كان العداء أيضًا من سمات صورة الآخر الأوربى فى أذهان المسلمين.

والمثير فى الأمر ، أن صورة «الآخر» على الجانبين فى عصر الحروب الصليبية لم تكن نتاجًا لكتابات النخبة فقط، كما كان الحال فى الفترة السابقة ؛ وإنما كانت ثمرة للخيال الشعبى على الجانبين بكل ما تحمله من مشاعر وأحاسيس وتصورات وجدانية عن «الآخر» وهنا يلفت النظر أن «الآخر» كان محلاً للخيال العدواني ؛ سواء فى تلك القصائد التى عرفها الغرب الأوربى باسم «أغانى الحروب الصليبية Les Chansons de Croisade أو فى المأثورات الشعبية العربية مثل «ألف ليلة وليلة» وسيرة الظاهر بيبرس، وسيرة السيد أحمد البدوى ... وغيرها . وهنا يجب أن ننتبه إلى أن المشاعر السلبية التى تسربت إلى الموروث الشعبى فى تيار ثقافى تحتى مستمر عبر عشرات السنين قد صارت بمرور الزمن جزءًا من الثقافة السائدة لدى الجانبين تجاه الآخر.

وعلى الرغم من هذا كله ، فإن العلاقات مع «الآخر» على الجانبين لم تكن سلبية فى كل الأحوال ، ولم تكن عدائية فى جميع الأحيان. فقد كانت الرغبة فى «المعرفة » أقوى من مشاعر العداء؛ وهذا ما يفسر لنا حركة الترجمة التى صاحبت قيام الحضارة العربية الإسلامية من جهة ، والنهضة الأوربية أواخر العصور الوسطى من جهة أخرى، اعتمادًا على تراث «الآخر». كما أن التجارة والربح كانت أقوى من مشاعر العداء على

الجانبين ؛ فقد تحدث الرحالة المسلم ابن جبير الذى زار المنطقة في أكثر فترات الحروب الصليبية سخونة عن أن «أهل الحرب فى حربهم، وأهل التجارة فى تجارتهم»، وعلى الجانب الآخر كان التجار الإيطاليون يرون أنهم إيطاليون أولا ثم مسيحيون ثانيًا ، وكانت دفاترهم تفتتح «باسم الربح وباسم الرب».

لقد كانت التجارة والرحلة من أنجع الوسائل المعرفية بالآخر، مثلما كانت الحرب أيضًا وسيلة معرفية ناجعة وفعالة . فقد عرف المسلمون «الفرنج» من خلال الحرب على نحو ما تكشف مذكرات أسامة بن منقذ ، وكتابات ابن شداد ، والأصبهانى، وأبوشامة ، وابن واصل وغيرهم من المؤرخين المسلمين؛ ومثلما تكشف كتابات فوشيه الشارترى ووليم الصورى، وچاك دى ڤيترى ، وغيرهم من الصليبيين الذين عايشوا المسلمين عن قرب وعرفوا عنهم قدرًا كبيرًا من الحقائق. فقد شكا چاك دى ڤيترى مثلاً من أن الفرنج تعلموا الكثير من ممارسات المسلمين الثقافية ، ونقلوا عنهم مظاهر الرقى والتقدم وهو ما أكدته كتابات أسامة بن منقذ فى كتابه الذى يحمل عنوان «الاعتبار».

حقا كانت الحروب الصليبية حربًا مثل أية حرب أخرى، كما أن تلك الحروب ألهبت المشاعر العدائية على الجانبين بالفعل، ولكنها كشفت أيضا لكل من الجانبين أن «الآخر» إنسان، وأنه يحمل من الخصائص والخصال الإنسانية الحقيقية ما يجعل التعامل معه أمرًا ممكنًا . ومن المؤكد أن المصادر التاريخية لم تسجل كافة مظاهر التفاعل الإنسانى بين الجانبين،

ومن المؤكد أيضا أن انتقال أنماط السكن ، وطرز الملابس، وقوائم الطعام التى تحدثت عنها على استحياء المصادر التاريخية التقليدية، كانت بمثابة الجزء الظاهر فقط من جبل الجليد. إن الناس فى حياتهم اليومية لايكونون على الدوام أسرى الأفكار والرؤى الايديولوچية التى يروجها أبناء النخبة الذين يربطون أنفسهم عادة بمصالح الحكم وطموحاته ؛ وإنما يبحثون عن ما ينفعهم . ولاشك فى أن ما حدث فى مناطق الحدود والثغور على أطراف أوربا والعالم الإسلامى يؤيد هذا ويدعمه .

لقد كان سكان مناطق الحدود بين «دار الإسلام» و«العالم المسيحى الغربى» مزيجًا مختلطًا من المسلمين والمسيحيين الأوربيين والبيزنطيين ؛ سواء على الحدود مع الدولة البيزنطية أو على الحدود بين الأندلس وأوربا، أو حتى فى المناطق التى احتلها الصليبيون فى المنطقة العربية طوال القرنين الثانى عشر والثالث عشر. و«**الحقائق التاريخية**» فى هذه المناطق الحدودية تتناقض بشدة مع «**التصورات الايديولوچية**» عن دار السلام ودار الحرب من ناحية ، وعن التصورات الكاثوليكية لفكرة «العالم المسيحى» من ناحية أخرى . بل إن محاولات البابوية فرض الحصار على دولة سلاطين المماليك فشلت للأسباب نفسها عندما وجدت الجمهوريات التجارية الإيطالية أن مصلحتها لاسيما بعد الحملة الصليبية الخامسة سنة ١٢٢١م لأنها اهتمت كثيراً بالأيديولوچية ، ولم تلق بالاً إلى الظروف التاريخية الموضوعية التى حكمت أوربا الغربية آنذاك.

فقد استمرت عقول أوربا الغربية تنتج «مشروعات» صليبية للعودة إلى فلسطين والمنطقة العربية حقا، ولكن المصالح المتبادلة والأرباح المادية

حالت دون تحول تلك المشروعات إلى مغامرات عسكرية من ذلك الطراز الذى عرفته القرون الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر. فقد فرضت الظروف الجديدة على الجانبين إعادة النظر فى صورة «الآخر» على ضوء مصالحه الحقيقية وعلى ضوء المعرفة الحقيقية ؛ ولذا تم نبذ الدعاية التى كانت تنتج صورة ترضى «الذات» وتغيِّب «الآخر» وراء ضباب الخيال الشرير. وبدأت محاولات معرفة الآخر فى أوربا منذ القرن السادس عشر تمضى على أسس علمية ومعرفية حقيقية، وكان ذلك واحداً من أهم أسباب نهضة أوربا أواخر العصور الوسطى.

وعلى الجانب المسلم كانت الأمور تسير فى اتجاه معاكس ، وربما كانت الحروب الصليبية ونتائجها قد استنفدت الطاقات الإبداعية فى الحضارة العربية الإسلامية فى المنطقة العربية على الأقل؛ فقد انتقل خط المواجهة بين الإسلام والغرب إلى جبهة جديدة بعد أن صارت الدولة العثمانية تمثل الإسلام في شرق أوربا ووسطها. وقد اتسمت هذه المرحلة الجديدة بخصائص جديدة تستحق دراسة مستقلة.

القسم الثالث

مفهوم التسامح بين ثقافتين :
أوربا والعالم الإسلامى

مقدمـــة

في هذا القسم الثانى من الكتاب نعالج موضوع صورة الآخر من زاوية مختلفة؛ وهى مفهوم التسامح لدى كل من الجانبين . وعلى الرغم من أن مصطلح التسامح نتاج غربى من حيث ظروفه التاريخية وسياقه الاجتماعى، فإن المصطلح دخل حياتنا الثقافية لأسباب كثيرة يناقشها هذا القسم.

وثمة مصطلحات تفرض نفسها على الخطاب اليومى فى الساحة الثقافية على فترات زمنية قد تطول وقد تقصر . ومع كثرة تكرار مثل هذه المصطلحات يجد المرء نفسه متسائلاً عن حقيقة المعنى الذى تحمله ، أو المعنى (والمعانى) التى يقصدها من يستخدمون هذا المصطلح أو ذاك . وينطبق هذا الموقف أيضًا على الاستخدام الجارى لمصطلح «التسامح» ، هذا المصطلح الذى دخل حياتنا الثقافية ، وفرض نفسه على الخطاب الإعلامى والثقافى منذ سنوات قليلة ، وتصاعد إيقاع استخدامه بعدما جرى فى ذلك اليوم من سبتمبر ٢٠٠١م ، ورد الفعل الأمريكى المتوحش تجاه العرب والمسلمين، ثم العدوان على العراق واحتلال أراضيه .

فقد وجد العرب والمسلمون أنفسهم متهمين فى ثقافتهم ودينهم وسلوكهم من جانب «الآخر» التاريخى ، فى لحظة غفلة تاريخية بما جرى فى الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، وقد صارت عبارة «الحادى عشر من سبتمبر» ذاتها بمثابة العفريت الذى يخيف الجميع، دون أن يعرف أحد

حقيقة هذا العفريت ، إذ إن أحداً لايعرف على وجه اليقين ما الذى جرى فى يوم «الحادى عشر من سبتمبر» هذا، ولأن أحداً لايعرف فقد اكتفى الجميع بالإشارة إلى ما جرى ، دون الدخول فى تفاصيله ، أو محاولة تعريفه ووصفه ، من خلال الإشارة إلى اليوم نفسه ، أى «العفريت». ولأن العرب والمسلمين – ونحن المصريين منهم بطبيعة الحال – كانوا أول من خافوا من «العفريت» ، فقد وقفوا موقف الدفاع عن «التسامح» ، وقبول الآخر. وظن كثيرون منهم أن المشكلة يمكن حلها بذلك الجهد الإعلامى الساذج ، ونسوا أو تناسوا ، أن الموقف من «الآخر» لايتشكل بين عشية وضحاياها ، أو تحت تأثير دعاية طارئة ، وإنما هو موقف تم بناؤه بسبب التراكمات الثقافية عبر الأجيال ، وبسبب طبيعة التاريخ الثقافى لكل حضارة على حدة.

ومن هنا كان الاهتمام بقضية «التسامح» على أساس تاريخى، وعلى أساس إيديولوچى، لتوضيح حقائق المفاهيم والدلالات التى يتضمنها هذا المصطلح ، وقسمت هذه الدراسة إلى أربعة فصول صغيرة ، إثنان منها يتناولان الإطار النظرى ، والآخران يتناولان نموذجين تاريخيين أحدهما ينتمى للحضارة الغربية الكاثوليكية ، منذ بداية ظهور الكنيسة حتى القرن السادس عشر، والثانى ينتمى للحضارة العربية الإسلامية فى مصر منذ دخول الإسلامى حتى العصر العثمانى . وربما تكون الصفحات القليلة التى يضمها هذا الكتاب حافزاً على مناقشة أكثر اتساعًا لمفهوم «التسامح» .

(١)

فى معنى التسامح

«**التسامح**» مصطلح تردد بشكل لافت للنظر فى الأدبيات السياسية خلال السنوات الأخيرة . وقد كثر استخدامه فى مجال الحديث عن الجوانب الدينية بشكل خاص ، وربما استخدم على استحياء فى الحديث عن «الحوار» والتعامل مع «الآخر» والقبول بالتعددية السياسية والثقافية والاجتماعية أيضاً.

و«**التسامح**» فى اللغة يعنى أن تتغاضى على خطأ ارتكبه آخر، أو التساهل فى حق، أو الصبر على إساءة ما . بيد أن المصطلح اتخذ أبعاداً غير الأبعاد اللغوية وصار يعبر عن موقف ثقافى/ اجتماعى. وفكرة «**التسامح**» نفسها تبدو نابعة من ثقافة «**غير متسامحة**» فى جوهرها . كيف ؟!

تبدو المفارقة واضحة من حيث أن هذا المصطلح ينطوى بالضرورة على مفهوم يقول إن هناك «خطأ» أو «خطيئة» ينبغى التسامح إزاءها . وهو ما يشى بدوره إلى أن من ينادون «بالتسامح» ينطلقون من موقف منحاز يرى أصحابه أنهم على حق و «الآخر» على باطل ، ولكن الضرورة تفرض عليهم التسامح إزاء هذا الآخر لسبب أو لآخر . ويقودنا هذا بالضرورة إلى

التفكير فى أصول هذا المصطلح ، الآخر، ومنابعه وأبعاده الثقافية والنفسية والاجتماعية ، إذ إن المصطلح ليس مجرد كلمة تحمل معنى ما، وإنما هو تعبير عن موقف ثقافى / اجتماعى يرى الذات والآخر من منظور استعلائى ، «ويتسامح » إزاء اختلاف هذا «الآخر» وغيريته . وهو ما يشى بأصول ثقافية / اجتماعية غير متسامحة أصلاً.

والناظر فى تراث الثقافة العربية الإسلامية بوجه عام ، وفى الأدبيات السياسية والاجتماعية بوجه خاص ، لن يجد هذا المصطلح مستخدمًا ، وإنما سيجد حديثًا عن الحقوق والواجبات. وفى الإدارة المالية والضرائبية سنجد مصطلحًا مشابهًا هو «المسامحة» بمعنى إسقاط الضرائب المستحقة للدولة نتيجة ظروف طارئة . ولم يدخل المصطلح حياتنا الثقافية سوى فى العقود الأخيرة متسربًا من ترجمات الأعمال الأوربية والأمريكية لينضم إلى قائمة المصطلحات والمفاهيم التى تنتجها الثقافة الغربية ونستهلكها نحن دون وعى !

لقد قامت العلاقة بين «**الأنا**» و«**الآخر**» فى الحضارة العربية الإسلامية، على أساس أخوة الجنس البشرى كله من ناحية، وعلى أساس حق «الآخر» فى الوجود والاختلاف من ناحية أخرى . فمن حق الناس جميعًا أن يعيشوا كما يشاءون ، وأن يعتنقوا ما يؤمنون به من عقائد ، بشروط أهمها مراعاة حقوق الآخرين وواجباتهم إزاء هؤلاء الآخرين. والحضارة الوحيدة فى تاريخ البشرية التى سمحت «للآخر» أن يعيش فى رحابها ويبدع ويصل إلى مراتب عليا فى الإدارة الحكومية ، أو فى الحياة العلمية

والثقافية والاقتصادية ، هى الحضارة العربية الإسلامية . فالعلاقة بين «الأنا» و«الآخر» فى هذه الحضارة علاقة تمايز واختلاف ، وليست علاقة تميز واستعلاء.

وتكمن المفارقة الواضحة فى أن الحضارة الغربية التى أفرزت مصطلح «التسامح» ليست حضارة «متسامحة» إزاء الآخر بأى حال من الأحوال ! فهى حضارة تقوم على فكرة استعلائية مستمدة دينيًا من فكرة «الشعب المختار» التى ورثتها المسيحية الغربية (بشقيها الأوربى والأمريكى، أو الكاثوليكى والبروتستانتى) ، عن العهد القديم فى الكتاب المقدس، والذى يتحدث عن بنى إسرائيل القدماء الذين يزعمون أن الرب اختارهم وميزهم على سائر البشر . فقد قالت الكنيسة إن اليهود نقضوا ميثاقهم مع الرب حين آذوا المسيح عليه السلام وأنكروه، فصار أتباع المسيح هم شعب الله المختار الجديد. ثم حدثت تطورات تاريخية (يرويها الفصل الثالث من هذه الدراسة) جعلت فكرة الاختيار مُسخرة فى خدمة المطامع الاستعمارية بشكل أو بآخر ، ولاسيما فى تاريخ بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الأمريكية. ويمكن تفسير ذلك من خلال دراسة تاريخ تطور المفاهيم الثقافية الغربية حتى أيامنا هذه .

على أية حال، فإن الحضارة الغربية الكاثوليكية (ثم الكاثوليكية البروتستانتية فيما بعد) قد صاغت مفهوم «التسامح» لحل مشكلات ثقافية / اجتماعية أوربية فى أواخر العصور الوسطى، وفى بداية عصر النهضة، بعد أن تفاقمت أزمة الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية نتيجة الصراع بين الكنيسة الكاثوليكية (التى كانت تتحكم فى الحياة الثقافية

والفكرية منذ بداية العصور الوسطى فى القرن الخامس الميلادى، وحتى القرن الخامس عشر على الأقل) وبين الذين تمردوا على مفاهيم الكنيسة الضيقة فى كافة الجوانب العلمية والثقافية والاجتماعية . وقد أدى تزايد نجاح معارضى الكنيسة وفشل سياسة محاكم التفتيش إلى تراجع الكنيسة ورفع شعار «التسامح» لحل هذه المشكلات .

ثم خرج مفهوم «التسامح» من هذا الجلد الدينى الضيق إلى رحابة الحوار الثقافى والسياسى الذى نجم عن التطورات التاريخية الموضوعية التى جرت على بلدان أوربا الغربية (ومن المهم أن نلاحظ أن هذه التطورات لم تكن تسير على خطوط متوازية فى كل المجالات، أو بالنسبة لكل بلاد أوربا) وصار «التسامح» من شعارات الحياة الفكرية فى بعض البلاد، ولم يعد ممارسة مقبولة فى كل هذه البلاد سوى فى القرن العشرين. بيد أن أوربا مارست «التسامح» داخل بعض بلدانها فقط، ولم تمارسه تجاه «الآخر» غير الأوربى، فقد أثبتت حركة الاستعمار مدى مركزية الفكر الأوربى عامة والنظرة الاستعلائية تجاه «الآخر» فى المستعمرات بشكل خاص وكذلك فعلت الولايات المتحدة الأمريكية منذ انغماسها فى الشئون الدولية بعد الحرب العالمية الثانية.

وأخيراً ، مع بداية التسعينيات من القرن العشرين ، صار الشعار مطروحاً بقوة بعدما أثيرت مسألة «صدام الحضارات» ومسألة «حوار الحضارات» التى تشكل القطب المواجه لمفهوم التسامح . فبعد سقوط الاتحاد السوفيتى وجدت الرأسمالية العالمية نفسها بحاجة إلى «اختراع » عدو جديد بدلاً من العدو الأحمر الاتحاد السوفيتى الذى سقط . وفى فترة

ما بعد الحرب الباردة تعالت أصوات فى أمريكا وأوربا تقول زاعمة «المسلمون قادمون .. المسلمون قادمون » وتظن قطاعات بارزة فى الغرب الأوربى والأمريكى أن الإسلام خطر على الحضارة الغربية . ويبدو أحيانًا أن موقف الغرب تجاه الشيوعية قد تم استنساخه تجاه الإسلام . ووفقا لما يراه محللون غربيون كثيرون فإن الإسلام والغرب يسيران على طريق الصدام، وغالبًا ما يتم تصوير المواجهة على أنها صدام حضارات. وقد تزعم هذا التيار «برنارد لويس» الذى كتب محاضرة (نشرت منقحة سنة ١٩٩٠م) بعنوان «الأصولية الإسلامية» ، ثم عدل العنوان وجعله «جذور الهياج الإسلامى» ، وقد روجت وسائل الاعلام الغربية لهذه المقالة التى نشرت فى مجلة «اتلانتيك مونثلى Atlantic Monthly» . وكان لهذه المقالة التى كتبها هذا المؤرخ اليهودى الشهير تأثير بالغ على فهم الغرب للإسلام والمسلمين المعاصرين وقد استغل التراث المتراكم عن صورة الآخر فى الثقافة الأوربية والأمريكية ؛ مشيراً إلى الميراث التاريخى عن صورة الآخر.

وأهم ما يقوله برنارد لويس هو أن الصراع بين الإسلام والغرب استمر أربعة عشر قرنًا من الزمان منذ ظهور الإسلام حتى الآن، ويصور المسلمين على أنهم عدوانيون دائمًا ، والغرب دفاعى دائمًا . وهو موقف من «الآخر» ينطلق من أسس منحازة غير متسامحة ويبرر العدوان على هذا الآخر.

ومن ناحية أخرى، يتجاهل باحثون آخرون التراث الاستعمارى فى البلاد العربية والإسلامية ، ويختزلون التحول فى المواقف الإسلامية تجاه الغرب، من الإعجاب والتقليد إلى العداوة والرفض ، وإلى مجرد صدام بين

حضارتين منفصلتين ومختلفتين ترفض كل منهما الأخرى . وأوضح الأمثلة على هذا وأكثرها استفزازًا يرد في كتاب صمويل هنتجتون «صدام الحضارات» الذي يعلن أنه بعد انتهاء الحرب الباردة «.. **سيحكم الصدام بين الحضارات الشئون السياسية العالمية، وستكون الخطوط الفارقة بين الحضارات هي خطوط القتال في المستقبل ... والحرب العالمية القادمة ، إذا نشبت ستكون حربًا بين الحضارات...».**

هذه الآراء التي راجت مع بداية تسعينيات القرن العشرين كانت ضد فكرة «التسامح» تمامًا، وقد عبر فوكوياما عن ذلك التعصب و«عدم التسامح» عندما أعلن فكرته عن نهاية التاريخ لأن الرأسمالية انتصرت على الشيوعية ويجب أن تسود العالم. ولم يكن الحديث عن تشكيل النظام العالمي الجديد تحت قيادة الولاية المتحدة الأمريكية بعيدًا عن هذا السياق.

وجاءت أحداث الهجوم على برجي نيويورك ومبنى البنتاجون في سبتمبر ٢٠٠١م لتسهم في المزيد من «هياج» القوى المتشددة التي لاتؤمن «بالتسامح» . فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي تتوجع فيها أمريكا من ضربات عنيفة على أرضها في تاريخها القصير. وكان «العدو» جاهزًا ومعلبا ؛ أي «المسلمون» . وعكست الأحداث التي جرت على أرض الواقع كل ما هو مناقض لمفهوم «التسامح» . وصار العرب والمسلمون جميعًا ضحية للتعصب و«عدم التسامح» الأمريكي والأوربي. وقد رأى أنصار نظرية صدام الحضارات فيما جرى في ذلك اليوم من سبتمبر دليلاً على صحة رأيهم وصدق نظريتهم . وقالوا بأن حديث «الحوار» و«التسامح» حديث لامحل له . ونادوا بشن الحرب على «الآخر» وتدميره . وربما كان

حديث الرئيس الأمريكى چورج دبليو بوش عن «محور الشر» مجرد صياغة أخرى لأفكار صمويل هنتجتون عن الخطر الإسلامى/ الكونفوشيوسى الذى يتهدد الحضارة الغربية على حد زعمه . إذ إن الدول التى يضمها «محور الشر» المزعوم تضم دولتين إسلاميتين ودولة كونفوشيوسية.

على الجانب الآخر أخذ أصحاب فكرة الحوار بين الحضارات ، وعلى رأسهم چون أسبوزيتو الباحث الأمريكى الشهير، يدافعون عن وجهة نظرهم من منطلق أن فهم «الآخر»، و«التسامح» مع اختلافه وغيريته، يمكن أن يخلق نوعًا من الحوار والاعتماد المتبادل الذى يحول دون وقوع مثل هذه الأعمال العنيفة . وتقوم فكرة چون اسبوزيتو الأساسية فى كتابه «التهديد الإسلامى : خرافة أم حقيقة» على أساس أن الإسلام يمثل تحدياً أمام الغرب ولكنه لايشكل تهديداً. ولما كان العرب والمسلمون قد وجدوا أنفسهم فجأة فى موقف المتهم العاجز عن الدفاع عن نفسه دونما جريمة ارتكبها ، ولأنهم كانوا ضحايا ردود أفعال عصبية ومتعصبة من حضارة تزعم أنها تنادى بالتسامح بعدما جرى فى ذلك اليوم من سبتمبر، فإنهم استخدموا فى أدبياتهم مصطلح «التسامح» ضمن مفردات أخرى فى خطابهم الذى اتسم بالعجز والضعف .

وقد أريقت كميات هائلة من الحبر، وسودت أطنان من الورق، وعقدت ندوات وحوارات، وجرت مناظرات ومقابلات فى شتى صنوف وسائل الإعلام العربية والإسلامية حول موضوعات «الحوار» و«الآخر» ، و«التسامح» ... وما إلى ذلك فى السنوات الأخيرة . وكانت كلها تستجدى الحوار والتسامح والفهم من الغرب عامة ومن الولايات المتحدة على نحو

خاص ، وتسابقت الحكومات فى غسل أيديها من أية علاقة بجماعات الإسلام السياسى، وسادت أجهزة الإعلام الحكومية نغمة سانجة تدعو إلى «التسامح» والحوار مع الغرب الغاضب المتربص ...

بيد أن هناك مفارقة تدعو إلى الأسى بشأن التسامح والحوار الذى تسعى إليه «الحكومات» العربية والإسلامية، ذلك إن هذه الحكومات نفسها لا «تتسامح» على الإطلاق إزاء القوى السياسية «الأخرى» داخل بلادها كما أنها تنكر ببساطة وجود «الآخر» داخل بلادها ؛ سواء على المستوى السياسى أو الثقافى، وتعامله معاملة الخونة والمجرمين. ويمكن تفسير ذلك، بطبيعة الحال، من خلال الحقائق التى تحكم علاقات هذه الحكومات بشعوبها من ناحية، وعلاقاتها بالولايات المتحدة الأمريكية والغرب من ناحية أخرى.

ومن خلال ما عرضناه فى الصفحات السابقة نجد أنفسنا أمام موقف فكرى صعب . ذلك أننا وجدنا فى السطور السابقة أن معنى مصطلح «التسامح» كان عرضة لتقلبات عدة ناتجة عن السياقات التى جاء فيها عبر العصور التاريخية سواء فى الغرب أو فى البلاد الإسلامية. وهكذا ، نجد أنفسنا أمام مصطلح يصعب التعامل معه من منظور أحادى: فالتسامح ليس مصطلحًا دالاً على المفاهيم الدينية وحدها ، كما أنه ليس مصطلحًا قاصراً على الممارسة السياسية دون غيرها ، فضلاً عن أنه ليس محصوراً فى نطاق الحوار الثقافى أو التفاعل الاجتماعى فقط، إنه مصطلح محير ومربك شأنه فى ذلك شأن العلاقات الإنسانية التى يتناولها فى مستوياتها المختلفة . ولسنا هنا بصدد البحث عن تعريف «جامع مانع»

– على رأى أهل الفلسفة– وإنما نحاول رصد أهم ما يحمله هذا المصطلح من دلالات ومفاهيم . هذا الموقف من جانبنا يستمد شرعيته العلمية من حقيقتين :

أولاهما : إنه من العبث إضاعة الجهد والوقت لنحت تعريف جامع مانع لمصطلح كانت نشأته الأصلية فى سياق ثقافة مختلفة وظروف تاريخية مباينة، ولأسباب اجتماعية وثقافية لم تمر بها كل المجتمعات الإنسانية، وتم نقله إلى مناطق ثقافية مغايرة حكمتها ظروف تاريخية مختلفة، كما أن هذا المصطلح لا يحمل المعنى نفسه بالنسبة لكل المجتمعات الإنسانية . وعلى الرغم من أن المصطلح : «التسامح» قد دخل الثقافات الأخرى ، ومن بينها المناطق الثقافية العربية والإسلامية ، فإنه حمل دلالات جديدة فرضتها الممارسات الفكرية المختلفة . وهو ما يعنى ، بعبارة أخرى، أن المصطلح يحمل دلالات ومفاهيم متعددة بحسب تعدد الجماعات أو المجتمعات الإنسانية التى تستخدمه ، وبحسب تنوع الأهداف والغايات التى يتغياها من يستخدمون هذا المصطلح .

ثانيهما : إن محاولة فهم السياق الثقافي الذى يستخدم فيه مصطلح «التسامح»، بعيداً عن محاولة صياغة التعريف الجامع المانع، يمكن أن يؤدى بنا إلى فهم المزيد من حقائق العلاقات بين المناطق الثقافية المختلفة بشكل تاريخى موضوعى دون الانزلاق فى مهاوى النظريات والانحيازات المسبقة.

وهذا هو موضوع الفصل التالى

(٢)

الأنا والآخر... أو «نحن» و «هم»

«التسامح » موقف من الآخر . وهذا يستدعى بالضرورة محاولة تحديد «نحن» فى مقابل «هم» فهل يمكن الوصول إلى تحديد وتحديد «هم» ؟ إن مشكلة الوصول إلى تحديد واضح لـ «نحن» و «هم» تتجسد فى حقيقة أن فكرة «الأنا» و«نحن» ، الثقافية الاجتماعية ، أو الدينية ، أو الحرفية ، أو السياسية ، هى فى ذاتها التي تنتج فكرة «الآخر» و «هم» على نفس الأصعدة والمستويات . إذ إن الحديث عن «نحن» يستدعى بالضرورة الحديث عن «هم» لأن «نحن» توجب دائمًا وجود «هم».

إن فكرة «التسامح» ترتبط بشكل عضوى بكيفية فهمنا لـ «نحن» و«هم» ؛ للذات والآخر. كيف نرى أنفسنا ؟ وكيف نرى علاقتنا بالكون وبالبشر وبالأشياء داخل هذا الكون ؟ كيف نرى دورنا فى تاريخ البشرية ؟ وهل نرى تكليفًا إلهيًا لنا فى هذا الكون لصالح البشرية جمعاء أم أننا مختارون لنسمو فوق بقية البشر؟ هل نرى البشر سواء أم نرى فروقًا يصنعها العرق ، أو اللون، أو الدين ؟ وإذا ما نجحنا فى الإجابة على بعض هذه الأسئلة الحيوية التى تتعلق بـ «نحن» فهل يمكن أن نجيب على

الأسئلة التى تتعلق بـ «هم» ؟ ألا يتوقف هذا على نوع الإجابات المرتبطة بـ « نحن » ؟

لأن «**نحن**» حاضرون ومعروفون وموجودن (أو هكذا يظن من يطرحون هذه الأسئلة باعتبارهم «نحن» على الأقل)، فإن «**هم**» بالضرورة غائبون ومجهولون وغير مفهومين (أو هكذا يكون الافتراض الأولى على الأقل) . فهل يمكن تعريف الأنا أو «نحن» وهل يمكن بالتالى تعريف «الاخر» أو «هم» ؟

إن الإجابة على هذا التساؤل المركب مركبة أيضاً . إذ إن «نحن» يمكن أن تكون مطاطة ونسبية إلى أبعد درجة يمكن تخيلها ، كما يمكن أن تنكمش إلى حدود جماعة عرقية، أو مهنية، أو وطنية ، أو دينية . ويمكن تحديد «نحن» على أساس أن تكون «نحن» مجرد أسرة أو عائلة . كما يمكن للحقائق التاريخية والحدود الجغرافية أن تسهم فى تحديد «نحن» .

وبقدر ما يتسع نطاق «نحن» بقدر ما تتنوع وتتعدد العناصر التى تتركب فيها هذه الـ «نحن». ومن ناحية أخرى، فإن من يمكن اعتبارهم «هم» عند مستوى ما من مستويات «نحن» يدخلون بالضرورة داخل دائرة «نحن» على مستوى آخر أعلى أو أكثر اتساعاً: فهل يمكن أن نقول «نحن» المسلمين دون أن يكون هناك وجود آخر داخل هذا النطاق الأعلى لـ «نحن» المصريين و«نحن» القاهريين . وهلم جراً؟

وهل تكفى «نحن» الدالة على المسلمين للدلالة على كل الشعوب الإسلامية دون أن تضم داخلها عدداً من «نحن» و «هم» فى مستويات أدنى ؟ وبعبارة أخرى، هل تغنى «نحن» المسلمين عن وجود «نحن» العرب

و«هم» غير العرب؟ وهل تلغى «نحن العرب» وجود «نحن» المثقفين و«هم» الحرفيين أو الفلاحين مثلا ؟

هذه الأسئلة ، وما يتفرع عنها بالضرورة من أسئلة فرعية أخرى، تبدو أسئلة بلانهاية ، كما أنها تبدو نوعًا من النسبية العبثية المركزة على الذات ، ولكنها ضرورية للوصول إلى حقيقة مكونات الأنا والآخر من ناحية ويكشف علاقة هذا بموضوع التسامح من ناحية أخرى. كما أن هذه الأسئلة التى تبدو أسئلة لانهائية تصلح أيضًا لمعالجة موضوع «الآخر» أو «هم» .

إن المكونات والعناصر التى تشكل «نحن» ، أو «هم» كثيرة متعددة من جهة، كما أنها متشابكة ومتداخلة من جهة أخرى. فهناك عناصر ثقافية (اللغة والدين والتاريخ المشترك، والعادات والتقاليد) ، وهناك عناصر اجتماعية (الطبقة ، وعلاقات القربى، والجوار ، والمشاركة) ، كما أن هناك عناصر اقتصادية (الحرفة أو المهنة أو المستوى الاقتصادى أو علاقات العمل) . ويعنى هذا فى التحليل الأخير أن وجود «نحن» و «هم» نوع من الكينونة المرنة التى تضيق وتتسع بحسب ما يراد بـ «نحن» أو «هم» . وليست هذه مجرد فذلكة لفظية ، وإنما القصد منها القول بأن البشر جميعًا يمكن أن يدخلوا فى المستوى الأعلى لـ «نحن» حين يكون المقصود بـ «هم» سكان كوكب المريخ أو غيرهم من الكائنات الفضائية مثلاً.

ويستدعى هذا ، بالضرورة ، التخلى عن فكرة «نحن» المغلقة المتعصبة الاستعلائية ، وطرح الموقف المتشكك فى «هم» لمجرد اختلافهم . ويجب هنا محاولة تعميق فكرة «نحن» الإنسانية ؛ نحن البشر. وليست هذه دعوة إلى

عولمة الذات والتخلى عن الجذور والتراث والخصائص المشتركة التى تميز أى «نحن» عن أى «هم» . وإنما هى دعوة لإعلاء شأن الإنسان على مصالح دعاة الحرب والصدام خدمة للاستغلال والهيمنة. ومن ناحية أخرى. فإن التمسك بالخصوصية الثقافية، أو حتى الحضارية ، لايعنى رفض الآخر، وإنما يعنى أن قبوله والتسليم باختلافه وغيريته، يمكن أن يؤدى إلى التعاون والاعتماد المتبادل . وصيغة القبول والاعتراف والحوار هى ما يعنيه البعض بمصطلح «التسامح».

هذا الموقف الثقافى / الاجتماعى الذى يقبل «الآخر» ، ويقر بحقه فى الوجود وفى الاختلاف والتمايز، والذى يرفض الصدام مع هذا «الآخر» على أرضية الاختلاف ، نشأ عن التطورات التاريخية، والتقدم العلمى والتكنولوجى، وتحسن وسائل المواصلات والاتصال والمعلومات، بحيث صار أهل كوكب الأرض يعرفون عن بعضهم بعضًا - مهما بعدت المسافات - أكثر مما كان سكان المناطق المختلفة فى بلد بعينه يعرفونه عن بعضهم بعضاً منذ نصف قرن مضى . وهذا التقارب هو الذى خفف من حدة الفروق بين «نحن» و«هم» . هذا التواصل هو الذى جعل «الآخر» لايبدو «آخر» بالضبط لأن الناس يكتشفون بشكل مطرد أن عوامل التقارب والاشتراك بينهم أقوى كثيراً وأبقى من عوامل الفرقة والشك. وهنا يكون «التسامح» بين الأنا و «الآخر» قد تخلى عن مكانه لنوع من المشاركة الإنسانية التى تهتم بمصير الإنسانية جمعاء .

إن الانقسام الذى حدث فى الغرب الأوربى والأمريكى بشأن العدوان الأمريكى البريطانى على العراق يكشف عن أن «نحن» لم تعد فى مواجهة

«هم» بشكل حاد وقاطع . وعلى أسس جغرافية أو عرقية كما كانت دائما. فقد رأى كثيرون فى أوربا وأمريكا ممن ضمتهم تلك المظاهرات الرهيبة غير المسبوقة فى تلك البلدان أن العدوان الأمريكى- البريطانى على العراق ليس صراعًا بين «نحن» أمريكية أوربية، و «هم» عرب مسلمين بقدر ما هو عدوان من «هم» أنصار الحرب وأقطاب الرأسمالية العالمية وأصحاب الشركات عابرة الجنسيات على «نحن» البشر المدنيين الذين لايريدون سوى العيش فى سلام. إن التداخل والتواصل والاتصال بين «نحن» و «هم» جعل الموقف الأحادى المنغلق تجاه الآخر مسألة عبثية لاقيمة لها. فهل يمكن أن نسمى هذا الموقف النابع من وحدة «نحن» الإنسانية «تسامحا» ؟ وهل كانت الجماهير الغاضبة من فجاجة العدوان والكذب الحكومى تتسامح مع العراق الآخر أم كانت تضامنًا مع نحن البشر؟

فى تقديرى أن اللبس فى مفهوم مصطلح «التسامح» والدلالات التى يحملها إنما نتج أصلاً عن إساءة ترجمة اللفظ عن اللغات الأوربية ، لاسيما الإنجليزية والفرنسية . وقد أدى هذا الموقف إلى اختيار أحد معانى اللفظ الأوربى اللغوية دون الاهتمام بمدلوله الاصطلاحى الذى يكتسب قيمته من الظروف التاريخية التى ظهر فى إطارها .

ففى اللغة العربية تشتق كلمة «تسامح» من الجذ ع الثلاثى «سمح» الذى يعنى الجود والعطاء ، «والسماح» و«السماحة» هى المساهلة ، وتسامحوا بمعنى تنازلوا و«السماحة» بمعنى الكرم والتساهل ... وهكذا، فإن المعنى الأصلى يعنى الكرم والجود كما يعنى التساهل . أما الكلمة الأوربية فهى Toleration , Tolerance المشتقة من فعل Tolerate بمعنى يحتمل، أو

يقبل ، أو يصبر على، أو يجيز . والكلمة هنا تجمع بين الاحتمال على مضض والتسامح والقبول على كره، والتحمل ... وهو ما يشى بالتساهل إزاء شئ لايمكن قبوله عادة. وبذلك كان استخدام اللفظ فى السياق الثقافى/ الاجتماعى الأوربى يقصد شيئا، على حين أدت الترجمة العربية إلى شئ آخر مختلف.

بيد أن لفظ «التسامح» دخل اللغة العربية ليكتسى مفاهيم ومدلولات إضافية سرعان ما صارت هى المفاهيم والمدلولات الجوهرية بسبب السياق الثقافى/ الاجتماعى الذى تم استخدامه فيه من ناحية، وبسبب تأثيرات الموروث الثقافى العربي من ناحية أخرى. فقد تخلى اللفظ تمامًا عن معناه الأوربى وصار له معنى يكاد يكون مضاداً لمعنى الكلمة الأوربية، فقد تخلى عن معاني «التحمل» و«الصبر على» «القبول بـ » إلى معنى واحد هو القبول بالآخر، وعدم إنكار حقه فى أن يكون«مختلفًا» وأن يمارس الاختلاف . وربما يكون هذا هو السبب فى أنه استخدم كثيراً فى سياق الحديث عن الحريات الدينية– وهو المعنى الأساسى لكلمة Toleration Tolerance على أية حال – على الرغم من أنه ينبغي أن يستخدم فى مجالات التعددية السياسية والحوار الثقافى، والتنوع الاجتماعى .

على أية حال ، يبقى السؤال مطروحًا : هل يمكن أن تستمر صيغة «الأنا» و«الآخر» ، أو «نحن» و«هم» لتكون هى الصيغة الحاكمة فى حياتنا الثقافية / الاجتماعية ؟ وهل تصلح هذه الصيغة في علاقات البشر داخل المجتمع الواحد وعلى مستوى البشرية كلها ؟ إن صيغة «نحن» و «هم» هى التى تستوجب «التسامح» بالمعنى الغربى، ولكن الإدراك المتزايد لأخوة بنى

البشر فى أوساط الشعوب ، يمكن أن تقسم العالم إلى «نحن» و «هم» قسمة جديدة لاتقوم على الحدود الجغرافية، أو العرق، أو الروابط الوطنية، أو الخصائص الثقافية ، وإنما قسمة تقوم على «نحن» (الشعوب التى تريد أن تحيا فى سلام وتنبذ الحرب) و«هم» أصحاب المصالح الرأسمالية الذين يشعلون الحروب لبيع منتجات الأسلحة التى تنتجها مصانعهم ، أو الاستيلاء على موارد الطاقة اللازمة لصناعاتهم، أو السيطرة على الأسواق لحسابهم . هذه القسمة الجديدة بين «نحن» و«هم» أخذت تتشكل وتتصاعد وتعبر عن نفسها بأشكال مختلفة : فالمظاهرات ضد العولمة، واجتماعات منظمة التجارة العالمية ومنتدى دافوس ... وغيرها من أشكال عولمة السيطرة الرأسمالية ، هى الدليل الواضح على أن هذه القسمة الجديدة قد أخذت تتشكل بشكل متسارع . إذ إن هذه المظاهرات المعادية للعولمة (بمعنى سيطرة القوى الرأسمالية على العالم) قد اندلعت فى معظم أركان العالم، وحتى داخل أوربا والولايات المتحدة الأمريكية نفسها، تعبيراً عن رفض «نحن» الناس العاديين لسيطرة «هم» الذين يمثلون الاحتكارات الرأسمالية.

ومن المثير أن هذه القسمة الجديدة بين «نحن» و«هم» لا تنادى «بالتسامح» وإنما هى تطالب «بحقوق» . والناظر فى حصاد الندوات والمؤتمرات والحوارات والكتابات التى دارت فى السنوات الأخيرة من القرن العشرين ، والسنوات الأولى من القرن الحادى والعشرين ، حول موضوع «نحن » و «هم» أو حوار الحضارات ، أو صدام الحضارات ، أو «العولمة، أو مناهضة العولمة... وما إلى ذلك ، سوف يكتشف بسهولة أن

قسمة جديدة أخذت تتشكل فى العالم بين «نحن» و«هم» بين «الأنا» و «الآخر» وأن هذه القسمة الجديدة الآخذة فى التشكل لاتطلب «التسامح» بمعناه الأوربى، ولا حتى بمعناه العربى، وإنما تطالب بحق «نحن» فى مواجهة عدوانية «هم» وإذ يبدو هذا كلاماً غامضاً ، فإنه ينبغى توضيحه قدر الإمكان.

لم تعد «نحن» أو «الأنا» جزئية، محلية، إقليمية ، أو حتى ثقافية، فى مواجهة «هم» على نفس المستويات الجزئية أو المحلية والإقليمية والثقافية . ومن ناحية أخرى، لم تعد للجغرافيا والتاريخ والموروث الثقافى نفس قوتها الرادعة التى تمنع «نحن» من أن تنقسم على نفسها إزاء «هم» أجنبية . فمن الممكن أن جزءاً من «نحن» يشكل «نحن» أخرى فى مواجهة «هم» مختلفة. فقد كان جزءاً من الغرب الأوربى والأمريكى يناصر جزءاً من العالم العربى المسلم فى العراق وفلسطين أى أن جزءاً من «هم» إنضم إلى جزء من «نحن». وعلى الجانب الآخر كان هناك جزء من «نحن» يقف مع «هم» بحكم مصالحه السياسية وارتباطاته الرأسمالية.

إن قسمة «صراع الحضارات» بين «نحن» وهم» تحددت بشكل عدائى صارخ بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١م حين قال الرئيسى الأمريكى جورج دبليوبوش إن من ليس معهم سيكون عدوهم ! لكن الأمريكيين العاديين ليسوا جميعًا داخلين فى هذه القسمة، ذلك أن قطاعات يعتد بها لاترى نفسها داخلة فى نطاق «نحن» التى يتحدث عنها الرئيس الأمريكى . كما أن عدداً كبيراً من الحكام الذين وضعوا أنفسهم داخل «نحن» التى قصدها الرئيس الأمريكى، لم يكونوا يعبرون عن رأى شعوبهم، أو قطاعات كبيرة منها على الأقل. وقد أدى هذا إلى مفارقة واضحة ، إذ انبثقت

تلقائيًا عن قسمة صراع الحضارات ، والحرب ، قسمة مقابلة ترى العالم موزعًا بين الشعوب التى تريد السلام وتتعرض للحرب والعدوان من ناحية ، وبين الحكام الذين يمثلون المطامع الرأسمالية للشركات العابرة للجنسيات من ناحية أخرى .

وعلى صعيد المنطقة العربية ، وفي داخل كل بلد عربى على حدة، نجد القسمة واضحة بين «نحن» و«هم» . إذ إن إنكار التعددية السياسية على مدي السنوات التي تغطى النصف الثانى من القرن العشرين، نقول إن هذا، وكثيراً غيره ، خلق نوعًا من الثقافة السياسية المرائية المنافقة من ناحية، كما خلق نوعًا من القسمة السياسية العدائية من ناحية ثانية.

وعلى المستوى الثقافى / الاجتماعى توارت التعددية الثقافية التى تقوم أساسًا على الإيمان بالحوار ، وبحق الآخر في الوجود والاعتقاد والتعبير والممارسة . لقد اختفى «الحوار» فى العالم العربى، أو كاد، وانتقل التجريم السياسى «للآخر» المختلف والمعارض إلى الأوساط الثقافية . وزادت بشكل مخيف حوادث التلفيق والتزوير والتشهير فى الأوساط الثقافية . ونتيجة لهذا انحسر مفهوم «التسامح» فى نطاق الحديث عن الجوانب الدينية، أما فكرة وجود «نحن» و«هم» على أساس من الاعتراف والتعاون المتبادل ، فلاتزال بمثابة الأمل الغائب على الصعيد السياسى والثقافى والاجتماعى فى بلادنا العربية عامة.

فهل يمكن أن نتطلع إلى إقناع «الآخر» خارج حدودنا بأن «يتسامح» معنا على أساس فكرة الحوار والقبول بالآخر ، ونحن لانؤمن بهذه الفكرة ولانمارس الحوار والقبول بالآخر داخل بلادنا؟!!

(٣)

فى تاريخ عدم التسامح

تعود جذور «التسامح» الأوربى إلى نزعة «عدم التسامح» التى ميزت الحضارة الأوربية الكاثوليكية منذ بدايتها الأولى. ويتفق الباحثون والمؤرخون على أن حضارة أوربا فى الفترة التى تعرف باسم العصور الوسطى، والتى كانت أساساً لحضارة أوربا وثقافتها الحديثة والمعاصرة ، قد قامت على دعائم ثلاث أساسية، أولها التراث الكلاسيكى الذى احتوى على ما خلفته الحضارة الإغريقية القديمة والحضارة الرومانية. والدعامة الثانية هى المسيحية وما جاءت به من مفاهيم وأفكار، وما أنتجته من مؤسسات قادت أوربا خلال تلك الفترة ، وثالثة هذه الدعائم هى الغزوات الجرمانية التى جلبت قبائل وشعوب شبه جزيرة اسكنديناوة فى هجرات جماعية إلى كافة المناطق الأوربية لتختلط بشعوب أوربا القديمة مكونة الشعوب الأوربية المعروفة الآن .

فى تصورى أن بذور عدم التسامح تجاه «الآخر» المختلف ترجع إلى موقف الحضارة الكلاسيكية (بشقيها الإغريقى والرومانى) من «الآخر» فقد استخدم الإغريق القدماء كلمة «البرابرة» barbari ومفردها barbarus للدلالة على الأجنبى ، أى بالتحديد للدلالة على من هو مختلف باعتباره أدنى فى مستواه الحضارى من الرجل اليونانى. وقد ورث الرومان هذه

الكلمة عن الإغريق القدماء، بيد أنهم استخدموا كلمة «البرابرة» بمدلول الازدراء والتحقير للدلالة على الشعوب الأخرى، ومنهم الجرمان الذين وفدت قبائلهم لتعيش فى مناطق الحدود الرومانية على امتداد نهر الراين ونهر الدانوب .

لقد اعتبر الاغريق والرومان «الآخر» من البرابرة طالما أنه يختلف عنهم فى اللغة والعادات والتقاليد والشكل الجسدى، وهى نظرة استعلائية لاتحتمل اختلاف «الآخر» وغيريته، ولاتقبل به أيضًا ، وقد ظل أبناء كل البلاد التى غزاها الرومان وحولوها إلى ولايات تتكون منها الإمبراطورية الرومانية فى وضع اجتماعى/ سياسى أدنى من الرومان الذين احتكروا حقوق المواطنة حتى عصر الإمبراطور كاراكلا (٢١١-٢١٧م) الذى منح حقوق المواطنة الرومانية لجميع السكان الأحرار فى الإمبراطورية.

هذه النظرة التى بررتها مواد القانون الرومانى الشهير، وساندتها الفرق العسكرية الرومانية، والاستعلاء الذى ميز الممارسات الرومانية، تسببت فى أن الإمبراطورية الرومانية لم تكن سوى تجميع سطحى لمجموعات حضارية وعرقية ولغوية متباينة ، ولم تتمكن من إذابة هذه العناصر فى بوتقة واحدة بسبب الموقف الرومانى من «الآخر» . وعدم التسامح إزاء اختلافه وغيريته . وقد كان هذا السبب من أهم أسباب سقوط الإمبراطورية فيما بعد. وقد ورثت الثقافة الأوربية فى العصور الوسطى ، والعصور التى تلتها ، هذه العنصرية «غير المتسامحة» إزاء الآخر. وقد أسهمت المسيحية الكاثوليكية ، التى رأت نفسها وريثة «لشعب الله المختار» فى ترسيخ هذه النظرة. فكيف كان ذلك ؟

على الرغم من أن المسيحية نفسها فى حقيقتها ديانة محبة وسلام، على نحو ما يتضح من نصوص الأناجيل الأربعة المعتمدة ، فإن النزعة العنصرية وفكرة شعب الله المختار التى شكلت الثقافة الأوربية المسيحية كانت سبباً قوياً من أسباب ترسيخ رؤية الذات الأوربية لنفسها باعتبارها الذات التى تملك الحقيقة وتنفرد بها !!

لقد أطلق المسيحيون الأوائل على أنفسهم فى رفقة الدين الجديد اسم إكليزيا ecclesia (وهى الكلمة التى استخدمتها الترجمة السبعينية للكتاب المقدس) . وتعنى هذه الكلمة «شعب الله المختار من بنى اسرائيل» (لأن اليهود رفضوا المسيح وآمن به عدد منهم ، فصار المؤمنون هم الإكليسيا أى أنهم شعب الله المختار الجديد لأن اليهود فقدوا هذه الصفة برفضهم المسيح) . ومن هذه الكلمة اشتقت كلمة «الكنيسة» . وفيما بعد تم تفسير الكلمة على أنها تعنى جميع المسيحيين فى كل مكان : ولذلك فإن كلمة الكنيسة تحمل مستويين من المعنى ؛ المستوى المادى أى المبنى الذى يمارس فيه المسيحيون عبادتهم ، والمستوى المعنوي الذى يشير إلى كافة المؤمنين بالمسيحية.

وقد بلورت الكنيسة الغربية موقفًا متعاليًا على سائر الكنائس الأخرى انطلاقًا من هذا القدر من الوعى بالذات ، وعدم الوعى بالآخر. فقد أصرت الكنيسة الكاثوليكية الغربية على أن تكون تعاليمها كاثوليكية، أى عالمية تتسم بالاتساق والتوافق فى كل مكان . وقد أدى ذلك ، بطبيعة الحال ، إلى اعتبار الكنائس الأخرى، التى لاتسير حسب التعاليم الكاثوليكية ، كنائس هرطقية أى منشقة وخارجة عن صحيح الدين . هذا الموقف، بدوره،

أدى إلى خلافات مذهبية كثيرة من ناحية، وإلى ترسيخ نزعة العنصرية وعدم التسامح فى الثقافة والممارسات الأوربية طوال العصور الوسطى من ناحية أخرى.

وربما كانت التطورات التاريخية التى مرت بها الكنيسة المسيحية عمومًا ، والكنيسة الغربية الكاثوليكية بشكل خاص ، وراء الطابع العنصرى «غير المتسامح» الذى ميز مواقف البابوية والكنيسة الكاثوليكية طوال العصور الوسطى.

فعندما ظهرت المسيحية لم يعرها الحكام الرومان اهتمامًا كبيرًا حتى القرن الثالث الميلادى، وقد بالغت الأساطير اللاحقة كثيرًا فى أعداد الشهداء المسيحيين ، إذ كان اضطهاد المسيحيين يجرى على نطاق محلى وقليل الحدوث . وكانت الامبراطورية الرومانية «متسامحة» ولم تعترف بالمسيحية ديانة مشروعة ، كما كان المسيحيون يضايقون الدولة حين يرفضون ممارسة طقوس عبادة الإمبراطور التى كانت «ديانة دولة» تتطلب أداء يمين الولاء للإمبراطور وإقامة الشعائر الإمبراطورية، وعلى الرغم من هذا لم يتدخل الأباطرة فى الشئون المسيحية إلا قليلاً .

ولكن هذا الموقف تغير بشكل جذرى فى النصف الثانى من القرن الثالث الميلادى، ذلك أن تدهور الأحوال الاقتصادية والسياسية فى العالم الرومانى أدى إلى موجات من أعمال العنف ضد المسيحيين فى شتى أرجاء الإمبراطورية الرومانية المثقلة بالمشكلات . وحين حاول الإمبراطور دقلديانوس ترميم الإمبراطورية وإجراء إصلاحات شاملة بها حرضه أعضاء بلاطه على الكنيسة باعتبارها دولة داخل الدولة بسبب تنظيمها

الجيد ومؤسساتها القوية . وعلى مدى عشر سنوات كانت تجرى محاولات منظمة لتنفيذ مراسيم الإمبراطور دقلديانوس للقضاء على الكنيسة المسيحية. وكان ولاة الولايات الشرقية فى الإمبراطورية الرومانية ، لاسيما حكام مصر وبلاد الشام، من أشد المتحمسين لتنفيذ الإجراءات العقابية ضد المسيحيين . وكان نصيب الأقباط فى مصر كبيراً من هذه المعاناة ، إذ سقط منهم عدد كبير ضحايا أعمال القتل الجماعى كما لاقوا من العذاب صنوفًا وألوانًا ، فقد كانت تقطع أيديهم وأرجلهم ويعلقون فى جذوع النخيل حتى الموت، كما كانوا يلقون إلى الأسود الجائعة وليس بيد أحد منهم سوى إبرة طويلة لقتال الأسود. وجرت عليهم كوارث ومصائب منها: مصادرة أموالهم وممتلكاتهم ومطاردتهم . وقد بلغت الاضطهادات الرومانية ضد المسيحيين فى عهد الإمبراطور دقلديانوس حداً جعل الكنيسة القبطية تبدأ تقويمها (أى حساب السنين والشهور القبطية المعروف الآن) ، والذى عرف باسم «تقويم الشهداء» فى سنة بدء حكم الإمبراطور دقلديانوس ٢٨٤م . بيد أن كثيراً من حكام الولايات الرومانية الأخرى لم ينفذوا تعليمات الإمبراطور بنفس الدقة التى نفذها بها حكام ولايات مصر والشام على مصر والشام.

ومن ناحية أخرى ، كانت الجماعة المسيحية فى الولايات الشرقية للإمبراطورية الرومانية كبيرة، وربما وصلت إلى عشرين بالمائة من السكان فى هذه الأقاليم التى كانت أرقى حضارياً وثقافيًا ، وأكثر ثراء من الغرب الأوربى الذى كان ما يزال ريفياً فى مجمله ، ولم تكن نسبة المسيحيين فيه تزيد عن ٥ إلى ١٠ بالمائة . بل إن روما ، العاصمة التليدة. كانت ما تزال

هى معقل الوثنية، وربما كان هذا هو السبب فى عدم التوافق المذهبى بين أوربا والشرق على الرغم من أنهما آمنا بالديانة المسيحية ، وقد كشف الصراع المذهبى- فيما بعد- عن أن الموروث الثقافى لعب دورًا مهمًا فى فهم كل من الجانبين للعقيدة المسيحية.

وعلى المستوى السياسى اعتزل دقلديانوس عرش الإمبراطورية سنة ٣٠٦م لأسباب تتعلق بمفاهيمه السياسية وإجراءاته الإداية، واشتعلت حرب أهلية استمرت عدة سنوات . وفى تلك الأثناء بات كل الأطراف يدركون أنه من المستحيل اقتلاع المؤسسات المسيحية ، وأنه من الأفضل «التسامح» معها . وإذ لم تستطع الإمبراطورية القضاء على الكنيسة، تعين عليها أن تتعايش معها، وفى سنة ٣١٣م أعلن إمبراطور الشرق والغرب مبدأ «حرية العقيدة» فيما عرف باسم «مرسوم ميلانو» . فقد طلب الإمبراطور قنسطنطين الكبير وشريكه ليكينيوس من حاكم الشرق، فى خطاب مشترك ، أن يكف عن مطاردة المسيحيين ، وأن يعيد إليهم ممتلكاتهم المصادرة ... وما إلى ذلك .

وأيا كانت الأسباب التى جعلت قنسطنطين يتخذ هذا الموقف فالثابت أنه هو الذى جعل المسيحية تنتصر ثم تصبح الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية في غضون عقود قليلة (سنة ٣٩٥هـ) فى عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير.

هذه التطورات أدت إلى نتائج أخرى غاية فى الأهمية بالنسبة لموضوع الدراسة أى «التسامح» فقد عانى المسيحيون من «عدم التسامح» على نحو ما ذكرنا، ولكن هذه المعاناة لم تخلق تراثًا مشتركًا بين المسيحيين

الشرقين والمسحيين الأوربيين (الذين لم يكن أكثرهم قد دخل فى الديانة الجديدة حتى ذلك الحين) لأن وطأة الاضطهاد فى الشرق كانت أعنف منها فى الغرب، ولأن الموروث الثقافى لمناطق الحوض الشرقى للبحر المتوسط كان يختلف بالضرورة عن الموروث الثقافى للغرب الريفى الذى ظل على وثنيته حتى ذلك الحين تقريبًا (فكلمة وثنى مشتقة من كلمة ريفى -Pag anus). وحين صارت المسيحية ديانة كل الأوربيين لم يكن المسيحيون الجدد قد شاركوا المسيحيين القدامى تراث الاضطهاد . ومن ناحية أخرى ، فإن توقف الثالوث المقدس (الأب والابن والروح القدس)، وطبيعة المسيح الذى يعتقد المسيحيون أنه «إله» تجسد بشرًا بإرادته، ورضى لنفسه بالصلب لكى يخلِّص البشر من ذنوبهم وآثامهم . وبدأت الآراء المختلفة حول هذا الموضوع تثير المنازعات الدينية التى باتت تهدد بتمزيق وحدة الكنيسة . إذ لم تكن هناك سلطة كنسية عليا يمكنها أن تحدد ملامح العقيدة حتى ذلك الحين. وكان كل أسقف يقرر هذه المسائل بالشكل الذى يتوافق مع مصلحة أسقفيته . وقد أدى هذا الموقف إلى ظهور الحاجة إلى مجلس كبير يضم كل أساقفة الإمبراطورية لمناقشة هذه الأمور ووضع ما يناسبها من حلول . وكان مجمع نيقية الذى تم عقده سنة ٣٢٥م أول المجامع الكنسية العامة برئاسة الإمبراطور ، وقد نجح بشكل مؤقت فى فرض معادلة مذهبية، حول طبيعة المسيح والعلاقة بين أطراف الثالوث المقدس تخضع لها كل الفرق الدينية المذهبية .

وكان اشتراك الغرب الأوربى فى هذه المناقشات محدودًا ومحكومًا بحقائق التاريخ الأوربى آنذاك. فقد كان الغرب أميًا وجاهلاً إلى حد بعيد

بعد أن قضت الكنيسة على بقايا العلم الكلاسيكى فى غرب أوربا . ويدا الأمر فى نظر أبناء الغرب الأوربى المسيحيين كما لو أن المسيحيين الشرقيين كانوا يحاولون أن يحددوا شيئًا لايمكن تحديده ، أى ثالوث الأب والابن والروح القدس. وبدلاً من هذا ركز المسيحيون الغربيون اهتمامهم على المشكلات العملية، مثل زعامة المجتمع وإدارة الكنيسة ، ودور البابوية فى العلاقة بين الرب والإنسان .

وبينما كانت الإمبراطورية الرومانية فى الغرب تتدهور فى القرن الخامس الميلادى، بدأ اهتمام الناس فى الغرب الأوربى يتحول بالتدريج صوب المؤسسة الوحيدة التى كان يمكنها أن توفر لهم قدراً من الوحدة وتتولى القيادة فى الشئون الدينية وفى مجال التعليم، أى كنيسة روما حيث كان أسقفها يملأ الفراغ السياسى الناجم عن سقوط السلطة الإمبراطورية فى الغرب سنة ٤٧٦م. ثم تحول لقب أسقف روما إلى البابا فى أوائل العصور الوسطى. وكان البابا ليو الكبير (٤٤٠-٤٦١م) هو صاحب النظرية التى قامت عليها البابوية فى العصور الوسطى، وتقوم هذه النظرية على ما يسمى «المذهب البطرسى» نسبة إلى بطرس الذى ينسب الكاثوليك إليه تأسيس كنيسة روما، ويقوم المذهب البطرسى على أساس التفسير الكاثوليكى للكلمات المنسوبة إلى المسيح هو يخاطب حوارييه حسبما وردت فى إنجيل متى (١٦ : ١٥-١٩) :

«قال لهم، وأنتم من تقولون إنى أنا ، فأجاب سمعان بطرس وقال أنت هو المسيح، ابن الله الحى، فأجاب يسوع وقال له : طوبى لك يا سمعان بن يونا، ، إن لحمًا ودمًا لم يعلن لك لكن أبى الذى فى السموات، وأنا أقول

لك أيضا أنت بطرس، وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها، وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا فى السماء ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً فى السماء».

وتختلف تفسيرات هذا النص بين المذاهب المسيحية اختلافًا كبيرًا، لكن المذهب البطرسى ، الذى قامت عليه النظرية البابوية فى أوربا الكاثوليكية، يزعم أن المسيح كان يقصد أن يكون بطرس، ومن يخلفه على كرسى أسقفية روما، رئيسًا للكنيسة بأسرها ، أى لكل المسيحيين، وهكذا يكون أسقف روما هو الوحيد الذى يمتلك مفاتيح ملكوت السموات والأرض ، وهو وحده نائب المسيح على الأرض. وهو ما يؤدى بالضرورة إلى رفض كل المذاهب الأخرى ، وإدانة كافة الكنائس التى لاتنصاع لهذه الزعامة القسرية . وطالما أن كنيسة روما تتحدث باسم الرب، وطالما أن أسقفها (أى البابا) هو نائب المسيح على الأرض، فإن الحقيقة والحق معه. وكل من لايدين له بالطاعة مهرطق ، أى منشق وخارج على صحيح الإيمان!

ولايمكن لمثل هذه النظرية أن تفسح مجالاً للتسامح . وكان «عدم التسامح» هو الذى ميز سياسة الكنيسة الكاثوليكية وتصرفاتها طوال فترة العصور الوسطى. وإذ وجدت الكنيسة الغربية فى المذهب البطرسى والنظرية البابوية المثل الأعلى الذى يحفزها إلى أن تحل محل الإمبراطورية التى سقطت فى الغرب فإن البابوية سارعت إليسد الفراغ السياسى، وصارت هى المؤسسة التى تمركزت حولها الحضارة الغربية . وكانت روح الاستعلاء والعنصرية من أهم أسباب روح «عدم التسامح»، والاعتراف

بالآخر التى ميزت أوربا طوال العصور الوسطى. وقد أكدت ظروف أوربا التاريخية هذه الزعامة الكنسية، إذ لم يكن ممكنًا أن تأتى القيادات التى كان المجتمع الغربى، بما اتسم به من الفوضى والاضطراب فى القرن السادس ، فى أشد الحاجة إليها إلا من داخل الكنيسة . فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية هى التى تضم جميع الرجال المتعلمين فى أوربا آنذاك، كما كانت هى أقوى مؤسسات العصر. ويرى كثير من المؤرخين أن الفضل فى بقاء الكنيسة الكاثوليكية، والحضارة الغربية ، إنما يرجع إلى الرهبان والبابوية ، فمنهما خرجت قيادات المجتمع الأوربى التى تولت أمور التعليم والتنظيم والتطور الاجتماعى ، ومنهما خرجت القيادات الإدارية والسياسية التى عملت فى بلاط الملوك وفى البلاط البابوى على حد سواء.

ولايمكن أن نتوقع ، كما أنه لايجب أن نتوقع ، أن يبدى أولئك الرهبان أى قدر من «**التسامح**» إزاء من يختلف معهم فى الرأى والرؤية ، فما بالنا بموقفهم من «**الآخر**» الذى يختلف دينيًا ، أو عرقيًا، أو ينتمى لمنطقة ثقافية أخرى ؟!!

لقد تمثلت نتيجة هذا فى عدة صراعات خاضتها البابوية والكنيسة الكاثوليكية ضد الآخر، سواء خارج نطاق أوربا الكاثوليكية أو داخلها: وكان أول نزاع من هذا النوع هو النزاع الذى خاضته ضد الإمبراطورية البيزنطية بسبب مشكلة الأيقونات، فقد حرم الإمبراطور البيزنطى «ليو الأيسورى» (٧١٧-٧٤٧م) استخدام الصور وغيرها من المواد الفنية (التى تعرف بالأيقونات) باعتبارها مظاهر وثنية وعبادة أصنام فى الكنائس .

واستمر الصراع حول هذه المسألة قرابة قرنين من الزمان. وقد رفض البابا الرومانى قبول هذا الأمر، باعتباره صاحب الحق الأوحد فى هذه المسائل .

وفى القرن العاشر كان التداخل بين الكنيسة ecclesia والعالم mun-dus قد بلغ مداه، ولكن التمايز بينهما كان يدفع الأمور صوب نزاع آخر أشد ضراوة . فمنذ القرن التاسع كان هناك اتجاه متصاعد لدى الكتاب الكنسيين لاعتبار الكنيسة مؤسسة تحتضن العالم، وفى القرن الحادى عشر باتت هذه النظرية هى القاسم المشترك فى كتابات رجال الكنيسة، ومن ثم كانوا يرون أن الممالك والإمبراطوريات ليست كيانات خارج عن نطاق الكنيسة الكاثوليكية ، وإنما هى داخل فى حدودها العالمية. هذه النظرية القائلة باستيعاب المملكة الدنيوية داخل المملكة الروحية كانت استلهامًا للعلاقة القائمة بين الكنيسة والدولة فى القرن العاشر والنصف الأول من القرن الحادى عشر فعلا من ناحية، ومن ناحية أخرى كانت تأكيداً على روح الاستعلاء وعدم التسامح التى حكمت ثقافة أوربا طوال تلك العصور.

وقد أدى هذا الموقف إلى اندلاع المواجهة التى استمرت طويلاً بين الكنيسة والدولة فى أوربا ، ففى سنة ١٠٧٥م كان الإمبراطور الألماني هو أقوى حاكم فى أوربا، ومع هذا فإن البابا «جريجورى السابع» – الذى عرف باسم «الشيطان المقدس» – لم يتورع عن الصدام معه حول مسألة «السمو البابوى» ، أى أن البابا هو الذى يسمو فوق جميع الحكام. وعرف

هذا النزاع الذى استمر حوالى خمسين سنة عند المؤرخين باسم «النزاع على التقليد العلمانى». ومهما كانت نتائج هذا الصراع ، فإنه كان تعبيراً ساخناً عن روح «عدم التسامح» تجاه «الآخر» ومحاولة سحقه . ويبدو أن الحرب الطويلة والمنازعات الشرسة بين الكنيسة والدولة قد خلقت نوعاً من الكراهية ضد الآخر ، كما أنها أتاحت الفرصة لظهور تيارات ثقافية جديدة حققت قدراً هائلاً من التقدم فى الفلسفة والقانون والأدب والفن فى كل من فرنسا وإيطاليا، وكان على الكنيسة أن تواجه هذا التحدى الجديد.

وكانت الحروب الصليبية ، التى دعت إليها الكنيسة وقادتها فى أخريات القرن الحادى عشر، أكبر تعبير عن كراهية «الآخر» و«عدم التسامح» إزاءه ، فى تاريخ الحضارة الغربية الكاثوليكية (مثلما كانت حركة الاستعمار القديم، والجديد، تعبيراً عن الروح نفسها فى العصور الحديثة وفى أيامنا هذه). فقد كانت الحروب الصليبية مشروعاً كنسياً وبابوياً على الرغم من الأسباب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية الكبرى التى أدت إلى شن هذه الحروب ، إذ كانت البابوية ترى فى الحملة الصليبية أداة لتوحيد العالم المسيحى تحت راية الكنيسة الكاثوليكية ، وأنها ستزيد من هيبة البابوية والكنيسة فى مواجهة الإمبراطورية، فضلاً عن أن الحملة الصليبية يمكن أن تنهى ذلك الانشقاق بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية لصالح الأخيرة. ولكن «الحملة الصليبية» كانت أولاً وأخيراً أهم الأسلحة فى ترسانة «عدم التسامح» البابوية، إذ لم يقتصر استخدام هذا السلاح ضد المسلمين ، وإنما استخدم ضد الكاثوليك ، وضد غيرهم من المسيحيين الرافضين لسيطرة الكنيسة فى أوربا .

وقد أشرنا فى القسم الأول من هذا الكتاب إلى أن الحروب الصليبية كانت نتاجًا للهياج الهيستيرى ضد الآخر الخارجى ، كما أنها استخدمت ضد الآخر الداخلى بقدر كبير من الضراوة والوحشية مثلما ظهر فى الصليبية الألبيجنسية وغيرها .

لقد أدت قيادة الكنيسة الكاثوليكية لأوربا إلى احتكار التعليم والفكر حتى القرن الثانى عشر على أقل تقدير، كما أدت إلى سيادة المفاهيم الضيقة التى أنكرت حق الاختلاف، وحاربت كل ما لم يكن متسقًا مع كلمات الكتاب المقدس ، أو تفسيراته الضيقة التى قال بها رجال الكنيسة . ومن ناحية أخرى ، أدى تسلط البابوية وعدم تسامحها إلى تململ القوى الاجتماعية فى أوربا من سيطرة الكنيسة. وظهرت أنماط من «التدين الشعبى» الرافض لسلطة الكنيسة ورجالها ، وتجلى ذلك فى نزعة معاداة رجال الدين التى لم تلبث أن تحولت إلى تيار معاد للكنيسة نفسها، وبعد نهاية القرن الحادى عشر كان الاتجاه المتصاعد فى المجتمع الأوربى هو الاستغناء عن الخدمات التعليمية والسياسية، بل والدينية ، التى كان الرهبان يقدمونها للمجتمع. ومن ناحية أخرى، كان العداء ضد رجال الكنيسة الكاثوليكية ومعاداة السلطة الكنسية يهددان مركز الكنيسة التقليدى فى المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى خلال النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، مما أجبر الكنيسة على خوض صراع يائس فى القرن الثالث عشر لاستعادة زعامتها. ومع كل عقد كان يمضى من القرن الثانى عشر، كان النقد ينهال بضراوة على ممارسات الكنيسة. وفى أواخر

هذا القرن شاع بين الشعراء، وطلبة الجامعات الناشئة ، وكتاب البلاط الملكى، تأليف الهجائيات التى تدين رجال الكنيسة الكاثوليكية بالطمع والفساد . أما قصص بوكاشيو Boccaccio (١٣١٢- ١٣٧٥م)، التى ذاعت فى القرن الرابع عشر ، فقد صورت القسيس فى صورة الرجل العبيط، الجاهل، الشهوانى، الخليع.

كذلك، وقفت البورجوازية الناشئة فى أوربا موقفًا عدائيًا من الكنيسة؛ فقد كان التاجر ، أو الحرفى فى القرن الثانى عشر، يشعر بمهنته أو حرفته شعوراً قويًا بالضرورة . فقد كان يعرف أن عليه أن يجتهد لتحقيق ما يجنبه الفقر والتعاسة ، وهو الأمر الذى كان يجعله يشعر بالغيرة إزاء النبلاء ورجال الكنيسة الذين لم يكونوا مضطرين إلى الاعتماد على جهودهم الذاتية ويعيشون على جهد الفلاحين فى إقطاعاتهم. لقد كان هذا البورجوازى فى العصور الوسطى لايعرف «التسامح» مشاغبًا ، كما كان يميل إلى الحكم على الآخرين بمقاييس حياته هو. وكان من رأيه أنه يجل على رجل الكنيسة أن يعمل من أجل كسب عيشه، وأنه لايجب أن يتمتع القسيس بسلطة المنصب الكنسى وامتيازاته ما لم يكن جديراً حقًا بهذا المنصب من حيث صفاته الأخلاقية وسلوكه تجاه المجتمع. وكان هذا من أسباب سخط البورجوازية على الكنيسة.

وكانت غلطة البابوية فى القرن الثانى عشر أنها لم تكيف نفسها بالسرعة والحيوية اللازمة مع النتائج بعيدة المدى التى أفرزها التغير الاجتماعى. بل إنها ظلت متمسكة بموقف عدم التسامح على نحو ما ظهر

منها تجاه حركة دينية ظهرت فى جنوب شرق فرنسا وهى الحركة المعروفة باسم الألبيجسية فقد دعت البابوية إلى شن حملة صليبية ضد هذه الحركة أدت فى النهاية إلى تدمير الجنوب الفرنسى. بسبب الوحشية والضراوة التى تصرف بها الصليبيون فى هذا الإقليم الذى كان مزدهرا وراقيًا .

لقد تولت الكنيسة الكاثوليكية زمام الأمور فى أوربا الغربية منذ القرن الرابع حتى القرن الخامس عشر، وعصر النهضة الأوربية على أقل تقدير ، إذ تعين على أساقفة روما أن يملأوا الفراغ السياسى الناجم عن انهيار السلطة الدنيوية بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية فى روما سنة ٤٧٦م. وعلى الرغم من قيام عدة ممالك جرمانية على بقاع شتى فى أوربا الغربية ، فإن البابوية ظلت تمارس حق تنصيب الملوك ومسحهم بالزيت المقدس، كما ظل البابوات، على الرغم من فسادهم ، يزعمون أنهم نواب الرب على الأرض. وقد استمر هذا الوضع حتى انفجر الصراع السياسى على زعامة أوربا بين البابا جريجورى السابع والإمبراطور هنرى الرابع ، على نحو ما أشرنا فى الصفحات السابقة.

ونخلص من هذا العرض الذى اهتم بالخطوط العريضة للتطورات التاريخية التى جرت على الصعيد الاجتماعى والثقافى إلى أن «عدم التسامح» كان هو الموقف الذى ميز الصراع بين الكنيسة والدولة فى أوربا العصور الوسطى. وكان سلاح «الحرمان البابوى» الذى استخدمه البابا جريجورى السابع بنجاح فى صراع على السيادة ضد هنرى الرابع هو أقوى الأسلحة فى الترسانة البابوية . وقد رفضت الكنيسة ، باستعلاء

واضح وغطرسة ملموسة، أى اختلاف معها سواء على المستوى السياسى أو الفكرى. وقد أدى هذا الموقف - بطبيعة الحال- إلى ردود فعل معاكسة على الجانب الآخر ، فانتشرت المذاهب المعادية لسلطة رجال الكنيسة والتى تحولت بسرعة إلى معاداة للكنيسة نفسها حسبما أشرنا من قبل. وانتشرت موجات التدين الشعبى النزق الذى يهتم بالمظهر دون أن يهتم بجوهر الأمور، وصار التعصب ورفض «الآخر» أريج الحياة فى المجتمعات الأوربية.

ومن ناحية أخرى ، شهدت أوربا منذ القرن الثانى عشر فصاعداً، نوعاً من القلق الفكرى والثقافى نجم عن اكتشاف الأوربيين أنهم يعيشون فى منطقة متخلفة قياساً إلى الدولة البيزنطية التى كانت هى القوة المسيحية الكبرى فى شرق أوربا، وقياساً إلى المسلمين الذين كانوا هم الجار المتقدم، القوى المخيف لأوربا . وقد كان احتكاك أوربا بأولئك وهؤلاء عن طريق التجارة ، والحروب الصليبية ، والتفاعل الثقافى، وبدأت تتسرب إلى أوربا موجات من الفكر الأرسطى عبر الترجمات العربية والشروح والتعليقات والإضافات التى وضعها الفلاسفة المسلمون وعلى رأسهم ابن رشد . وتميزت الثقافة الأوربية منذ القرن الثانى عشر بالتفاؤل والإقدام الذى تجلى فى محاولة حل المشكلات التى يواجهها المجتمع الأوربى على أسس عقلانية، كذلك خرج التعليم والفكر الراقى فى أوربا من نطاق الاهتمام الضيق باللاهوت والآداب إلى رحابة الاهتمام بتحسين البنيان الاجتماعى والسياسى آنذاك.

وبحلول سنة ١٢٠٠م كانت زعامة الكنيسة الكاثوليكية للمجتمع الغربى فى مجالات التعليم والتدين والسلطة، تتعرض للتحدى من جانب قوى كثيرة فى المجتمع الأوربى؛ وهى المجالات التى نمت وتقدمت فيها التيارات المناهضة للكنيسة خلال القرن الثانى عشر نفسه، وتمثل هذا التحدى للزعامة الكنسية فى مجالات الفلسفة والعلم الأرسطى أكثر من غيره بيد أن الكنيسة لم تقف ساكنة إزاء هذا التحدى، كما أنها لم تحاول أن تتفهم مواقف القوى المناهضة لها إزاء الوضع الجديد فى أوربا وظلت سادرة فى موقفها القائم على «عدم التسامح».

وتمثلت النتيجة فى مزيد من التدهور فى السلطة الكنسية، فقد بدأ تطوير مؤسسات وسلطات جديدة كانت تمثل تحديا قويًا لسلطة الكنيسة الكاثوليكية، ومع نهاية السنوات العشر الأولى من القرن الخامس عشر الميلادى كانت سلطة الكنيسة قد انحسرت تمامًا فى كل من انجلترا وفرنسا بحيث وقفت البابوية عاجزة عن فعل أى شئ إزاء هذه التطورات، وأخفقت فى وقفها . كما أن الفضائح والإخفاقات التى حاقت بالقيادة الكنسية فى ذلك الحين، خلقت الفرصة لموجة جارفة من موجات العداء لرجال الكنيسة الكاثوليكية سرعان ما تحولت إلى حركة لمعاداة سلطة الكنيسة مثلما حدث فى القرن الثانى عشر قبل قرنين من الزمان ، بيد أن الانشقاق على الكنيسة (الهرطقة) فى القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر وجد أقدر من يدافع عنه من أفضل المفكرين فى الجامعات الأوربية.

وتفكك عالم العصور الوسطى فى أوربا بسبب «عدم التسامح» الذى

رسته البابوية والكنيسة الكاثوليكية إزاء «الآخر» ، وتم تشجيع الفردية الدينية بفضل ذلك المذهب الخطير القائل بأن السلطة الدينية ينبغى أن تكون داخل الضمير الفردى لكل إنسان . وكان هذا فى الواقع هدمًا للكنيسة الكاثوليكية من ناحية، وتمهيداً لظهور البروتستانت من ناحية أخرى، وكان جون ويكلف (١٣٢٠-١٣٨٤م) الذى كان أستاذاً بارزاً من أساتذة اللاهوت فى أوكسفورد من أهم من روجوا لهذه الفكرة . وقد كانت أفكار ويكلف هى الأفكار التى طرحها مارتن لوثر فى القرن السادس عشر. وقد قامت ثورة الإصلاح الدينى فى القرن السادس عشر لتنهى احتكار رجال الدين الكاوليك للزعامة الدينية، مثلما أنهت الدولة زعامتهم السياسية، وأنهت الجامعات زعامتهم الفكرية.

وعند بداية القرن السادس عشر كان هناك شعور واسع النطاق بأن النظام الاجتماعى يتطلب خضوع كافة الطبقات والطوائف ، والهيئات لسيادة القانون المطلقة. ومن ناحية أخرى سادت قيم جديدة ذات طبيعة دنيوية فى الأوساط الاجتماعية، فقد كان الفرد يقوم بواجباته الدينية دون أن يرتبط ذلك بالمؤسسة الدينية وكان معيار انتساب المرء إلى الصفوة هو تعليمه وسلوكه وأسلوبه . وكان ظهور هذه الأخلاقيات الدنيوية مؤشراً على تدهور الزعامة البابوية ، وكان هذا يعنى فى التحليل الأخير «ذبول» موقف «عدم التسامح» الذى ميز العصور الوسطى، وصار «التسامح» آلية اجتماعية / ثقافية ضرورية لبقاء المجتمعات الأوربية وتطورها منذ عصر النهضة.

(٤)

النموذج المصرى

هناك أدلة عديدة تشير إلى أن مصر، بسبب ظروفها الجغرافية وطبيعة التطورات التاريخية التى جرت عليها، كانت أرضًا للتسامح . و**«التسامح» هنا بمعنى قبول «الآخر» على الأرض المصرية واستيعابه داخل النسيج الاجتماعى والثقافى المصرى المتجانس** . إذ إن هؤلاء الزراع الذين شادوا حضارة من أقدم حضارات الإنسان ، قد أدركوا أن التعاون والاعتماد المتبادل هو الصيغة المثلى للحياة فى مجتمع ينشد لنفسه ، مكانًا متميزًا بين المجتمعات الإنسانية ؛ فد فرض نهر النيل مصدر الحياة الأساسى فى مصر، نوعًا من ضبط الناس فى صيغة تعاونية تتطلبها الحياة فى الشطر المصرى من وادى النيل الذى كانت الزراعة قوامها وأساسها . وتتسم الطبيعة المصرية بقدر كبير من الاتساق والوحدة تركت تأثيراتها الواضحة على كل من سكن هذا البلد. طوال عصوره التاريخية.

فالحياة المصرية تقوم ، بالضرورة ، على التناغم والانسجام والتوافق بين سكان وادى النيل الذى يشبه فى شطره المصرى، من أسوان إلى سواحل البحر المتوسط ، شارعًا ممتدًا تتوفر فيه أسباب الحياة من خلال نهر النيل الذى يشق هذا الشارع المتخيل بطوله من الجنوب إلى الشمال ،

ولم يكن ممكنًا أن ينفصل سكان جزء من هذا الشارع المتخيل عن بقية سكانه. ومن هنا جاءت المركزية السياسية التى تجسدت فى أقدم حكومة فى العالم ، وانعكست على المجتمع فى نوع من الوحدة الاجتماعية والثقافية لانجد لها مثيلاً فى أى بقعة أخرى من كوكب الأرض. وبهذا كان قبول «الآخر» أول درس حضارى تعلمه المصريون . وقد أدى هذا ، من ناحية أخرى ، إلى أن يذوب كل القادمين إلى مصر فى هذا المجتمع ويصيروا جزءًا من الكل المصرى بعد جيل أو جيلين .

ولم تستطع القوى الخارجية التى احتلت مصر عبر عصور تاريخها الطويل أن تفعل شيئًا أكثر من السيطرة السطحية على البلاد، ولم تتمكن من اختراق النسيج الاجتماعى والثقافى المصرى. فالهكسوس ، ثم البطالمة والرومان، ظلوا يعيشون بعيداً عن الحياة المصرية بمستوياتها المختلفة . بيد أن كل من جاء إلى مصر مهاجراً أو مقيمًا لقى هذا النوع من «التسامح» الذى اشتهر به المصريون تجاه الآخر . ومن ناحية أخرى استوعبت الثقافة المصرية كل العناصر الثقافية الصالحة الوافدة إليها من المنطقة العربية ، أو من أفريقيا ، أو من عالم البحر المتوسط فى الشمال، ومزجتها فى بوتقة الثقافة المصرية وتيارها العام.

وبعد الفتح الإسلامى لمصر فى القرن السابع الميلادى، تجلى هذا التسامح بصورة واضحة وبشكل مطرد ، إذ كان المصريون يعانون بشدة من جراء الاضطهادات المذهبية التى مارستها ضدهم السلطات البيزنطية. ومن الثابت تاريخيًا ، أن الفاتحين لم يتعرضوا لأهل مصر، الذين كانت

غالبيتهم من المسيحيين ، وكانت بينهم أقلية يهودية بشئ من القيود على حرياتهم الدينية، ولما عرف «بنيامين» بطريرك الأقباط آنذاك بقدوم المسلمين استبشر بزوال الحكم لبيزنطى وطلب من الأقباط أن يساعدوا المسلمين. وبالفعل أسهم الأقباط فى بناء الجسور والطرق وإقامة الأسواق لجيش الفتح الإسلامى، بل إن بعضهم أسهم فى عمليات القتال ضد البيزنطيين لاسيما فى المعارك النهرية التى جرت فوق مياه نهر النيل. وبعد الانتصار النهائى للمسلمين استقدم «عمرو بن العاص» الأنبا بنيامين وأمنه ، فأخذ هذا البطريرك، الذى قضى الشطر الأكبر من حياته هاربًا من اضطهاد البيزنطيين، يعيد بناء الأديرة والكنائس التى هدمها البيزنطيون ، أو كانوا قد صادروها لحساب أتباع مذهبهم .

على الجانب الآخر بدأ المصريون يتجهون تدريجيًا نحو الإسلام واللغة العربية . وقد تم تعريب مصر بصورة أسرع من انتشار الإسلام بها. إذ إن المسلمين لم يصيروا أغلبية فى مصر سوى بعد منتصف القرن الثالث للهجرة/ التاسع الميلادى ، ولكن اللغة العربية صارت لغة الإدارة والثقافة والحياة اليومية، بالنسبة لغالبية المصريين فى القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى لأسباب كثيرة ؛ أهمها أن اللغة المصرية واللغة العربية لم تكونا فى حقيقة الأمر سوى لهجتين فى شجرة اللغات السامية / الحامية تطورتا مع الزمن لتصبح كل منهما لغة مستقلة (وينبغى أن نتذكر هنا أن اللغة العربية الحالية ، والتى نزل بها القرآن كريم هى فى الأصل لهجة قريش إحدى اللهجات العربية) . ويعتبر القرن الثالث الهجرى / التاسع

الميلادى أهم القرون فى تاريخ الثقافة المصرية العربية بوجه خاص . فقد شهد هذا القرن اكتمال التفاعلات بين الموروثات الثقافية للبلاد التى دخلت تحت راية الإسلام ، وما جاء به الدين الإسلامى واللغة العربية. وفى داخل الإطار العام للثقافة العربية الإسلامية وجدت ثقافات محلية متنافسة فى مصر وبلاد الشام والعراق وبلاد المغرب العربى، وبلاد المشرق الإسلامى، وفى الأندلس وشرق آسيا . وقامت فى كل من هذه البلدان مراكز علمية وثقافية متنافسة ومتعاونة فيما بينها. وكانت حركة الترجمة المنظمة ، والتى أشرفت عليها الدولة، قد آتت أكلها وبدأ الإسهام العربى الإسلامى الخالص فى تاريخ العلوم رحلته المعروفة.

كانت أهم سمات هذه المرحلة فى تاريخ الثقافة العربية الإسلامية، أنها قبلت «الآخر» على أساس حقه فى الوجود والتعبير الفكرى والإسهام الثقافى والإفادة من إنجازات هذا «الآخر» . ولم تكن حركة الترجمة لنقل علوم القدماء من الهنود والصينيين والفرس والسوريان والمصريين واليونان والرومان سوى نوع من «التسامح» الذى يقبل «الآخر» . وكان هذا موقفًا مناقضًا تمامًا لما حدث بعد انتصار المسيحية فى أوربا حينما خاصم «آباء الكنيسة» التراث الكلاسيكى باعتباره «تراثًا وثنيًا». وتمثلت نتيجة هذا الموقف «المتسامح» فى نمو الحضارة العربية الإسلامية وازدهارها، ولمعت أسماء كثير من اليهود والمسيحيين الذين كرسوا مواهبهم وعبقريتهم فى خدمة الحضارة التى لم تنبذهم وتتبرأ منهم. لقد تعاملت الجماعة العربية المسلمة مع «الآخر» المختلف دينيًا على أنه جزء

من «الذات الثقافية» ، ولم يكن اليهود والنصارى وغيرهم ممن عاشوا فى رحاب «دار الإسلام» يعتبرون «**هم**» سوى من الناحية الدينية، ولكنهم كانوا «**نحن**» من حيث انتمائهم إلى الحضارة العربية الإسلامية .

ومن المهم أن نشير إلى أن هذا الموقف لم يكن موقفًا مبنيًا على فكرة «التسامح» إذ لم يكن ثمة خطأ ينسب إلى هؤلاء الذين يختلفون دينيًا عن المسلمين، وإنما كان هذا موقفًا قائمًا على أساس من الحقوق والواجبات التى حددها الفقهاء المسلمون فى إطار ما عرف فى الشريعة الإسلامية بعقد الذمة، وهو موضوع يخرج عن نطاق اهتمام هذه الدراسة إلى حد ما.

ولم تكن مصر استثناء فى ذلك بطبيعة الحال، إذ إن المجتمع المصرى ظل على تجانسه على الرغم من أن بعض المصريين كانوا يعتنقون ديانة تختلف عن ديانة البعض الآخر. ومن الناحية الاجتماعية تركت المسائل الداخلية فى أوساط اليهود والمسيحيين للرؤساء القانونيين لكل منهما حسب ظروف كل من هاتين الجماعتين وفيما عدا ذلك أسهم المسيحيون واليهود، بقدر أو بآخر فى المجرى العام للحياة الاجتماعية فى البلاد. وعلى الرغم من أن السلطات الحاكمة سمحت للأقباط باستخدام لغتهم القبطية لأول مرة فى الوثائق القانونية، وهو ما لم تسمح به الحكومة البيزنطية، كما تدل الشواهد سوى فى أواخر العصر البيزنطى وفى نطاق ضيق للغاية هو القانون الخاص فقط. ولاشك فى أن تعريب الإدارة الحكومية فى مصر، منذ أواخر القرن الأول للهجرة ، قد دفعت الكثيرين من المسيحيين

المصريين واليهود إلى تعلم اللغة العربية حتى يمكنهم الاحتفاظ بوظائفهم- نقول إنه على الرغم من هذا، فإن الأقباط تخلوا عن لغتهم منذ أواخر القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى).

فمنذ ذلك التاريخ بدأت تظهر مؤلفات كتبها المسيحيون المصريون باللغة العربية فى الموضوعات الدينية وفى التاريخ... وما إلى ذلك. فقد كتب «سعيد بن البطريق» كتابه المعروف فى التاريخ باللغة العربية، وهو من أقدم كتب التاريخ التى كتبها مؤرخون مسيحيون ، كما أنه ألف عدة كتب للرد على أتباع المذهب النسطورى المسيحى، وللرد على الأقباط اليعاقبة (أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة) . كذلك كتب معاصره «ساويرس بن المقفع» ، أسقف الأشمونين، تاريخه المعروف بعنوان «سير البيعة المقدسة» أو «سير الآباء البطاركة» باللغة العربية . ولهذا الرجل عدة مؤلفات أخرى باللغة العربية منها كتب فى الرد على سعيد بن البطريق دفاعًا عن مذهب الأقباط ومؤلفات دينية أخرى فضلاً عن مؤلفاته التاريخية، أما اليهود، فقد استخدموا اللغة العربية فى حياتهم اليومية وفى معظم إنتاجهم الأدبى، بل إنهم استخدموا اللغة العربية فى شروح التوراة والتعليق على التلمود . وظلت العبرية قاصرة على التراث الدينى اليهودى فقط.

ومن ناحية أخرى ، حظيت الأقليات الدينية فى مصر آنذاك بضمان حرية العقيدة بجانب حرية العمل وكسب العيش وتأمين الأرواح والأغراض والممتلكات . وتمثلت نتيجة ذلك فى أن العلاقات الاجتماعية بينهم وبين المسلمين قد اتسمت بالود و«التسامح» . وبرزت من بين اليهود والمسيحيين

المصريين أسماء أفراد تميزوا فى بعض المهن ذات المكانة الاجتماعية الراقية، مثل الطب والإدارة والمالية. .. وغيرها . وقد ظل المسيحيون واليهود المصريون يواصلون حياتهم داخل المجتمع المصرى باعتبارهم جزءًا من الكل المصرى. وكان المسلمون يشاركونهم الاحتفال بأعيادهم التى اكتسب بعضها طابعًا مصريًا عاما، كما تركت تأثيراتها على عادات المصريين وتقاليدهم ، مثل عيد الغطاس المسيحى وقد عرف العصر الفاطمى (٣٥٨- ٥٦٤هـ/ ٩٦٩-١١٧١م) فى أوساط المؤرخين عمومًا بأنه العصر الذهبى لليهود والمسيحيين المصريين. وقد وصل بعضهم إلى أرقى المناصب المالية والإدارية فى الدولة، ولعل أشهرهم قاطبة هو اليهودى يعقوب بن كلس ، الذى أعلن إسلامه فى أيام كافور الإخشيدى، ثم كان أعلى سلطة إدارية ومالية فى مصر تحت حكم الخليفة المعز لدين الله الفاطمى ، وصار أول وزير للدولة الفاطمية فى مصر فى عهد الخليفة العزيز بالله ، ولم يكن هذا الرجل استثناء فى ذلك ، فقد برزت أسماء «منشا اليهودى» ، و«ابن نسطورس المسيحى» ، و«الأفرم» المسيحى الذى استخدمه الحافظ لدين الله أميرا للدواوين .

وعلى المستوى الاجتماعى مارس اليهود والنصارى المصريون حياتهم الاجتماعية داخل السياق الاجتماعى المصرى بفضل روح «التسامح» المصرية. فقد استمرت احتفالاتهم بأعيادهم ومواسمهم وشاركهم سائر المصريين الاحتفال بعيد الغطاس، وخميس العهد (الذى كان المصريون يطلقون عليه اسم خميس العدس)، وعيد النيروز الذى كان احتفالاً مصريًا قديمًا بموسم الربيع واستمر طوال تلك العصور.

وربما يكون مفيداً أن نقتبس كلام المؤرخ ابن إياس فى وصفه للاحتفالات بعيد الغطاس الذى كان يشارك فيه المسيحيون والمسلمون على السواء، إذ كانت الخيام تقام على ضفتى نهر النيل ، وتكتسى صفحة النهر بالعديد من الزوارق والمراكب التى تتلألأ بالمشاعل والأنوار ليلاً «... **وكان يشعل على الشطوط فى تلك الليلة أكثر من ألف مشعل وفانوس .... ولايغلق فى تلك الليلة دكان، ولادرب، ولاسوق ...»** ويتبادل المسلمون والمسيحيون الهدايا من أصناف الطعام والحلوى.

ولم يشهد العصر الأيوبى- الذى اتسم بالنضال المتواصل ضد الفرنج الصليبيين الذين احتلوا القدس سنة ١٠٩٩م، وأقاموا مملكة وعدة إمارات على الأرض العربية فى فلسطين وبلاد الشام وحتى اقتلعهم المماليك وقضوا على وجودهم بعد حوالى قرنين من الزمان- أى اختلاف فى الأحوالى الاجتماعية لليهود والمسيحيين المصريين . وقد عاش اليهود والمسيحيون المصريون حياتهم العادية.

وفى عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠- ١٥١٧م) شارك اليهود والمسيحيون فى الممارسات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية مشاركة إيجابية فى معظم الأحيان باعتبارهم جزءاً عضويًا من الكل المصرى. ولم يكن الاختلاف فى الدين بينهم وبين المسلمين يحول دون قبولهم . ولم يكن هذا نابعًا من موقف «التسامح» إزاءهم باعتبارهم «الآخر»، وإنما كان إقراراً بحقوقهم وواجباتهم باعتبارهم جزءاً من الذات الحضارية المصرية . فقد كانت الثقافة المصرية، ببعدها العربى والإسلامى

، تراهم جزءا من «نحن» المصريين على مستوى البلاد المصرية، وجزءاً من «نحن» الحضارة العربية الإسلامية.

خضع المسيحيون واليهود المصريون ، بطبيعة الحال، للظواهر الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية نفسها التى خضع لها المجتمع المصرى كله والتى شكلت ملامح الحياة فى ذلك العصر من ناحية، كما أنهم تركوا بصماتهم وتأثيراتهم – مثل بقية المصريين– فى مجريات الحياة المصرية ، وفى عادات المجتمع المصرى وتقاليده من ناحية أخرى ، فقد شارك المسيحيون واليهود فى المناسبات السياسية بحسب ما جرت عليه الممارسات السياسية آنذاك . كما أنهم كانوا عنصراً مهماً لاغني عنه فى عصر لم تكن فيه مدارس أو معاهد أو جامعات تتخصص فى تدريب الهيئات المالية والإدارية اللازمة للدولة، وإنما كانت العائلات المسيحية تتوارث هذه الخبرات فى ميادين الحساب والمساحة والضرائب والإدارة المالية عموما. وقد مارس اليهود والنصارى كافة أنواع النشاط الاقتصادى فى مصر فى ذلك العصر على نحو ما تشير إليه الوثائق وتؤكده المصادر التاريخية الأخرى، كما أنهم تملكوا العقارات فى سائر أنحاء البلاد ومارسوا كافة الحرف والمهن وأسسوا الشركات فيما بينهم أو مع مواطنيهم المسلمين.

ومن الحقائق المهمة فى هذا المقام ، أن اليهود والمسيحيين المصريين أسهموا إسهاما إيجابيًا فى أنشطة المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، وقد شاركهم المسلمون الاحتفال ببعض أعيادهم بالشكل الذى

يؤكد أن هذا الموقف كان قائمًا على أرضية من الاعتراف بحق أبناء هذه الطوائف فى اختيار دينهم وحقهم فى ممارسة حياتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى سياق ثقافة لاتنفى حق الاختلاف، ولاتجعل من هذا الاختلاف ذريعة للتعالى، ومن ثم فليست هنا ضرورة «للتسامح» بالمفهوم الذى أفرزته الحضارة الأوربية الكاثوليكية على النحو الذى ناقشناه فى الفصل السابق.

وقد تميز بعض اليهود والنصارى فى مجالات الثقافة والعلم المختلفة. وذاعت شهرة كثير منهم فى ميادين الطب والأدب والحساب والفلك... وما إلى ذلك . ولو أنهم اعتبروا «آخر» – على نحو ما حدث فى أوربا العصور الوسطى – لما أمكن لهم أن يسهموا بمواهبهم فى خدمة بلادهم ومجتمعاتهم والدليل على ذلك أن أوربا العصور الوسطى لم تسمح بظهور متميز لأى من اليهود الذين عاشوا فى سائر أنحائها.

فهل كانت التجربة المصرية إزاء قبول التنوع والاختلاف والتعدد شذوذًا على مجريات الأمور فى سائر أنحاء العالم الإسلامى أثناء فترات القوة والسيادة العربية الإسلامية ؟!

إن خصوصية التجربة المصرية لاتنفى الأساس الذى قامت عليه، وهى النظرية السياسية للدولة الإسلامية التى لم تضع عقبات أمام رعاياها من غير المسلمين ، إذ أتاحت الدولة الإسلامية، بمفهومها الدينى ، لرعاياها من اليهود ومن المسيحيين قدراً كبيراً من الحرية السياسية والاجتماعية والاقتصادية يساوى ما كان متاحًا للرعايا المسلمين بحكم أن الدولة

ونظامها السياسى قائمان على أساس الشريعة الإسلامية من ناحية، وأن المسلمين كانوا هم غالبية رعايا هذه الدولة الإسلامية من ناحية أخرى. وإذا أخذنا فى اعتبارنا ظروف تلك العصور، التى كان الدين قوام الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية فيها، وإذا أخذنا فى اعتبارنا أيضًا أنه لايجب إسقاط المفاهيم السياسية المعاصرة على عصور تاريخية كانت تحكمها مفاهيم سياسية مختلفة. فإن الأمر يصبح أكثر وضوحًا وقابلية للفهم. كذلك فإن الحقيقة القائلة بأن الحضارة الأوربية الكاثوليكية فى العصور الوسطى لم تكن تقبل بوجود الآخر، أو «تتسامح» مع اختلافه وغيريته، على نحو ما تكشف عنه مواقفها ضد المسيحيين الذين يخالفونها فى المذهب ، أو اليهود الذين عاشوا فى مجتمعات الغرب الأوربى آنذاك ، أو المسلمين، هذه الحقيقة تكشف عن حقيقة مضادة تتعلق بالحضارة العربية الإسلامية.

فقد كانت الحضارة العربية الإسلامية حضارة «متسامحة» بالمعنى اللغوى والمعنى الاصطلاحى للكلمة، وكانت هى الحضارة التى «تسمح» بوجود الآخر داخل أراضيها ، وتقبل اختلافه وغيريته، وتتيح له أن يكون جزءًا عضويًا من مجتمعاتها وتمكنه من أن يستخدم مواهبه فى خدمتها ، باختصار لم تكن تعتبر «الآخر» الدينى «آخر» على المستوى الاجتماعى والثقافى والاقتصادى، وإنما كانت تعتبره جزءًا من الذات الحضارية العربية الإسلامية، ولم تكن مصر لتشذ عن هذه القاعدة الأساسية من قواعد هذه الحضارة.

بيد أن التجربة المصرية تحمل فوق هذا نوعًا من الخصوصية التى فرضتها حقائق التاريخ المصرى، وطبيعة الجغرافيا المصرية. فمنذ البداية، منذ فجر التاريخ المصرى، كان على الإنسان فى مصر أن يتفاعل مع توجهات الجغرافيا المصرية، إذ إن الناظر إلى جغرافية مصر سيكتشف بسهولة أن هذه البلاد أشبه ما تكون بالواحة الفيضية التى كونها الفيضان السنوى لنهر النيل على أبواب أفريقيا الشمالية الشرقية. ولأن النيل يكاد يكون هو مصدر الحياة الوحيد، كان على المصريين أن يعملوا سويًا منذ بداية وجودهم لتطويع النهر وتطويع الأرض . وقد أدى هذا، فى مسار التاريخ المصرى إلى اندماج كل العناصر التى تعيش على حافتى النهر فى شطره المصرى فى نسيج اجتماع واحد، يفرض وحدة الذات الحضارية ، ويشكل ثقافة المجتمع ، ويزيد من قدرته على هضم واستيعاب كل العناصر البشرية والثقافية الوافدة. وهذا هو السبب فى أن المجتمع المصرى لاينظر إلى المختلف على أنه «الآخر» ما دام يعيش فى رحاب هذا المجتمع، ويرى «الآخر» خارج الحدود . فإذا كان «الآخر» عدوًا عامله بما يستحقه ، أما إذا كان صديقًا أو جارًا قبل اختلافه وتعامل مع هذا الاختلاف على أساس من القبول والاعتماد المتبادل .

ومن الطبيعى أن يكون هذا المجتمع «المتسامح» مع الآخر عبر الحدود أكثر تسامحًا فى تعامله مع الفئات التى يتكون منها الداخل . ودليلنا على ذلك هو موقفه من المماليك، فقد كانت مشاعر المصريين، مسلمين وغير مسلمين، تجاه الحكام المماليك مزيجًا من الولاء السياسى والدينى ،

والكراهية الاجتماعية والثقافية . فقد كانت مؤسسة الحكم المملوكية حريصة على تأكيد عزلتها عن المجتمع المصرى من خلال تلك الأعداد المتزايدة من المماليك الذين يجلبهم تجار الرقيق من الخارج ، ولكن السلاطين اكتسبوا شرعية صورية بإحياء الخلافة العباسية والواجهة الدينية التى تستروا وراءها . فقد كانوا يحكمون بتفويض من الخليفة العباسى فى القاهرة، كما أعلنوا حمايتهم على المقدسات الإسلامية فى الحجاز وفلسطين . ولكن عزلتهم وممارساتهم الفظة جعلت الناس يكرهونهم، بيد أن هذا الموقف لم ينسحب على أولاد هؤلاء المماليك . وقد عرف أبناء المماليك الذين ولدوا فى مصر ، ونشأوا على ترابها، ولم يمسهم الرق، باسم «أولاد الناس» فى مصطلح ذلك العصر. وقد كانت لهم مكانة اجتماعية وسياسية أقل من مكانة المماليك. وغالبًا ما كان «أولاد الناس» هؤلاء ينصرفون عن الحياة السياسية والعسكرية التى يحيا آباؤهم فى ظلها ، ويختارون لأنفسهم حياة السلم والإنتاج الحضارى التى يعيشها سائر المصريين وربما أسهم بعضهم فى النشاط العام للمجتمع المصرى، ولاسيما الجانب الثقافى والعلمى من هذا النشاط. وقد برز عدد كبير من المؤرخين اللامعين فى تاريخ الكتابة التاريخية وفى تاريخ الثقافة العربية الإسلامية، نذكر منهم على سبيل المثال «ابن أيبك الدوادار» «وخليل بن شاهين الظاهرى» و«صارم الدين بن دقماق» ، و«ابن إياس»... وغيرهم . ويمكن تفسير ذلك فى ضوء حقيقة أن المماليك لم تكن لهم حياة أسرية بالمعنى الذى عرفه المصريون وألفوه، إذ إن وجودهم فى المجتمع المصرى

كان هامشياً ، ولم يكن قائماً على أساس الأسرة بوصفها خلية أولية فى البناء الاجتماعى، وإنما اعتمد على القوة العسكرية التى يحوزها الأمراء الكبار، ممثلة فى مماليك كل منهم الذين كانوا سنده وعدته فى الصراع المرتقب، على السلطة ، ضد غيره من الأمراء . ومن ثم ، كان السلاطين والأمراء يولون عنايتهم ورعايتهم الكاملة لمماليكهم ، وهكذا لم يكن لديهم ما يكفى لرعاية أبنائهم الذين تركوهم لكي ينشأوا فى «حجر الحريم» على حد تعبير ذلك العصر .

كان هذا هو السبب الأساسى فى اندماج «أولاد الناس» فى النشاط العام للمجتمع المصرى. وقد تقبلهم هذا المجتمع وامتصهم بحيث كانت الأجيال الثانية أو الثالثة منهم يتحولون إلى مصريين حقيقيين . وربما يكون مفيداً أن نشير إلى أنهم فقدوا امتيازاتهم الطبقية بمرور الزمن، كما تعرضوا لما تعرض له سائر المصريين لاسيما فى سنوات التدهور الذى عانت منه الدولة والمجتمع فى القرن الأخير من ذلك العصر المثير.

هكذا، كان «التسامح» بمعناه اللغوى والاصطلاحى سمة الحياة المصرية عبر التاريخ المصرى، وقد ساعد على هذا ورسخه أن عامة المصريين لم يكونوا على اتصال مباشر بالسلطات الحاكمة ، فقد كان لكل طائفة من طوائفهم من يمثلهم أمام السلطات . وكان من الممكن للفرد المصرى أن يعيش حياته كلها، من مولده إلى وفاته، دون أن يضطر إلى التعامل مع الدولة.

وقد استمر هذا الموقف طوال العصر العثمانى ، ولم يبدأ فى التغير سوى فى زمن الحملة الفرنسية التى حاولت سلطاتها التدخل فى الشئون

الخاصة للناس، ولكن وجودها القصير على الأرض المصرية حال دون ذلك. وتكرر الأمر بشكل نسبى فى عهد محمد على بسبب مشروعاته لتحديث الدولة المصرية، والتجنيد الإجبارى الذى عرفه المصريون لأول مرة فى تاريخهم، ومحاولات حصر المواليد والوفيات. بيد أن الانفصال بين الحاكم والمحكوم ظل قائمًا بشكل ما حتى بدأ العمل بنظام البطاقات الشخصية والعائلية بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م.

لقد ظل «التسامح» من خصائص المجتمع المصرى حتى جرى ما جرى فى سبعينيات القرن العشرين. وبرزت لأول مرة مشكلة «الطائفية» و «عدم التسامح» فى حياة المصريين، ولم يكن ذلك لأسباب اجتماعية وثقافية بقدر ما كان ناتجًا عن أسباب سياسية : داخلية وخارجية . ولم تتوقف حدود هذه «الطائفية» الطارئة عند الحدود الدينية، وإنما تعدتها إلى نمط من «الطائفية السياسية» ونوع من الطائفية الاجتماعية ، ثم صورة من «الطائفية الثقافية» .

ذلك أن عدم الإيمان بالتعددية السياسية فى السبعينيات أدى بالضرورة إلى انتشار عدوى التسلط، والاستعلاء، وعدم الاعتراف بالآخر «السياسى» إلى الجوانب الأخرى من جوانب الحياة المصرية. كما أن الفكر السلفى البدوى ، الذى هبت علينا رياحه الفاسدة من مناطق عربية امتلكت الثروة، وظنت أن من حقها قيادة الأمة العربية والإسلامية ، ينكر حق «الآخر» فى الاختلاف وفى الوجود، ومن ناحية أخرى ، كانت هناك أنماط أصولية مسيحية تنتشر فى العالم وتترك بصماتها على بعض

المسيحيين المصريين . وكانت نتيجة ذلك كله موجة من «عدم التسامح» إزاء الآخر المختلف.

لكن على الرغم من كل ما حدث وما يحدث فلابد أن نعترف أن «الطائفية الدينية» قد حوصرت فى مهدها بفضل التراث التاريخى الطويل لمصر والمصريين فى التسامح والاعتراف بأهمية الاعتماد المتبادل بين المصريين جميعا .

تأملات وملاحظات ختامية

يثير سؤال «التسامح» بالضرورة ، أسئلة أخرى تتعلق بحياتنا السياسية والثقافية الراهنة . فلاشك فى أننا نعيش أزمة ذات وهوية ، عنيفة فى طبيعتها، عميقة فى مداها. ولاشك أيضاً فى أن هذه الأزمة لم تهبط علينا من السماء مع المطر الذى لا يهطل كثيراً على بلادنا . قد أسهمنا بجهد غير منكور وغير مشكور فى صنع هذه الأزمة التى ازدادت وطأتها فى زمن توالت فيه ضربات الأعداء واتهاماتهم ، وتكاثرت علينا ذئاب لاتعرف «التسامح» .

فهل يمكن أن نشعر بالذات والهوية، ونحن نفتقر إلى الحوار والتسامح فى داخل مجتمعاتنا .

وهل يمكن أن نشعر بالذات والهوية وقد رضينا لأنفسنا دور التابع المهزوم سياسيًا وفكرياً، بعد أن تخلينا عن دورنا فى صناعة حاضر البشرية ومستقبلها ؟

وهل نرفض دعاوى «العولمة» خوفاً من الهيمنة؟ أم نحاول أن نكسب من العولمة التى ليست شراً كلها ؟ وهل نملك القدرة على هذه التفرقة والفرز فى ضوء ظروفنا الراهنة؟

وأخيرا هل يمكن أن نشعر بالذات والهوية، ونحن نستهلك ما ينتجه «الآخر» من إنتاج مادى ومن إنتاج فكرى على السواء؟ أم ترانا بحاجة

إلى أن ننتج ما يجعلنا شركاء «للآخر» فى صناعة حاضر البشرية ومستقبلها حتى يتسنى لنا أن نطالب «الآخر» بالحوار «والتسامح» ؟ فما الذى يدفع «الآخر» على أن يرفع قوماً ارتضوا لأنفسهم دور والتابع والمستهلك والمهزوم إلى مكانة الشريك والمنتج والند ؟

لقد فرضت التطورات التاريخية مفهوم «التسامح» على الثقافة الأوربية حين استطاعت القوى السياسية والاجتماعية والفكرية أن تقوض الزعامة الكنسية على أوربا، كما كان «التسامح» من سمات الحضارة العربية الإسلامية عندما كانت قوية ومنتجة وذات إرادة فاعلة.

إن طبيعة الإجابة على الأسئلة السابقة هى التى سوف تحدد موقفنا من الآخر، وموقف «الآخر» منا، تسامح واعتماد متبادل أم «عدم تسامح» وإنكار وعداوة !!

قائمة المصادر والمراجع

المراجع العربية :

* **ابن الأثير** ، أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد :

– الكامل فى التاريخ (القاهرة ١٢٩٠هـ) .

* **ابن الأخوة** (محمد بن محمد بن أحمد القرشى ت٧٣٧هـ) :

– معالم القربة فى أحكام الحسبة (نشرره ليفى كمبردج ١٩٣٧م).

* **أسامة بن منقذ** :

– كتاب الاعتبار ، تحقيق فيليب حتى .

* **ابن إياس** (محمد بن أحمد الحنفى المصرى، ت ٩٣٠هـ):

– بدائع الزهور فى وقائع الدهور (تحقيق د. محمد مصطفى جمعية المستشرقين الألمان القاهرة ١٩٦٠-١٩٦٣م) .

* **ابن بطريق** ، أفيتشيوس المكنى سعيد بن بطريق :

– التاريخ المجموع على التصديق والتحقيق (بيروت ١٩٠٩م) .

* **ابن تيمية**، تقى الدين أو العباس أحمد بن عبد الحليم الحرانى :

– الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح ، ٤ أجزاء (القاهرة ١٣٢٣هـ) .

* **ابن جبير** :

– رحلة ابن جبير (نشر وتحقيق د. حسين نصار) .

* **ابن الحاج** (محمد بن محمد العبدرى الفاسى - ت ٧٣٧هـ):

- المدخل إلى الشرع الشريف (٤أجزاء- القاهرة ١٣٤٨هـ).

* **ابن الراهب** ، أبوشاكر بطرس بن أبى الكرم المهذب :

- تاريخ ابن الراهب (نشره لويس شيخو ، بيروت ١٩٠٣م) .

* **رينهرت دوزى** :

- المسلمون فى الأندلس ، ج١ : المسيحيون والمولدون . (ترجمة وتعليق د. حسن حبشى ، الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٨م).

* **ابن زين** (أبو محمد عبدالله بن أحمد القاضى / ق ٩ هـ) :

- شروط النصارى (مخطوط بدار الكتب ١٢٠٩ تيمور) .

* **الطاهر أحمد مكى** :

- ملحمة السيد- دراسة مقارنة (ط. ثانية دار المعارف ١٩٧٩م).

* **ابن شداد** :

- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٤م)

* **الطبرى** ، أبو جعفر محمد بن جرير :

- تاريخ الرُسل والملوك (ط. ثانية، دار المعارف بمصر ١٩٦٩م).

* **ابن عبد الحكم**، عبد الرحمن بن عبدالله :

- فتوح مصر وأخبارها (نشره تشارلز تورى، ليدن ١٩٣٠م).

* **عبد اللطيف حمزة :**

- الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول، (دار الفكر العربى ١٩٦٨م).

* **ابن العبرى (أبو الفرج جريجوريوس بن أهارون الملطى ٦٨٥هـ) :**

- تاريخ مختصر الدول (دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٩٧م).

* **ابن العديم :**

- زبدة الحلب من تاريخ حلب. (تحقيق سامى الدهان، دمشق، ١٩٥١م).

* **العماد الكاتب الأصفهانى :**

- الفتح القسى فى الفتح القدسى (تحقيق محمد محمود صبيح، القاهرة ١٩٦٥م) .

* **ابن العميد**، المكين جرجس :

- تاريخ الأيوبيين ، (نشرة كلود كاهن C. Cahen .

Bulletin d' étude Orientales, tom . 1995-57, Damas 1958)

* **ابن فضل الله العمرى** (شهاب الدين ت ٧٤٩هـ) :

- التعريف بالمصطلح الشريف (القاهرة ١٣١٢هـ).

* **قاسم عبده قاسم:**

- الحملة الصليبية الأولى: نصوص ووثائق ، (دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ٢٠٠٣م) .

- ماهية الحروب الصليبية ، (دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ١٩٩٤م) .

- الخلفية الايديولوچية للحروب الصليبية ، (دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ١٩٩٩م) .

- أهل الذمة فى مصر من الفتح الإسلامى حتى نهاية المماليك، (دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، ٢٠٠٣م).

- «صورة المقاتل الصليبى فى المصادر التاريخية العربية» ، (المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٢٧ ، سنة ١٩٨٠م)

- الشعر والتاريخ- دراسة تطبيقية على شعر الحركة الصليبية» ، (المجلة التاريخية المصرية، ، مجلد ٢٨ ، ٢٩ سنة ١٩٨١م، وسنة ١٩٨٢م)

- «الحروب الصليبية فى ألف ليلة وليلة» ، (مجلة المأثورات الشعبية الصادرة عن مجلس التعاون لدول الخليج السنة الثانية، العدد السادس، أبريل ١٩٨٧م) .

- عصر سلاطين المماليك : التاريخ السياسى والاجتماعى ، (دار عين للدراسات).

* **ابن القلانسى** ، أبو يعلى حمزة : ذيل تاريخ دمشق ، (بيروت ١٩٠٨م) .

* **القلقشندى**، شهاب الدين أحمد بن على: صبح الأعشا فى صناعة الإنشاء ، (طبعة دار الكتاب المصرية بداية من سنة ١٩١٣م) .

* **ابن قيم الجوزية** (شمس الدين أبوعبدالله محمد بن أبى بكر ت ٧٥١هـ) :

- أحكام أهل الذمة (نشره صبحى الصالح دمشق١٩٦١م) .

* **محمد سيد كيلانى** : الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى فى مصر والشام ، (لجنة النشر للجامعيين ، مصر سنة ١٩٤٩م) .

* **المفضل بن أبى الفضائل** : النهج السديد والدُر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، (نشره وترجمه إلى الفرنسية بلوشيه

E. Blouchet Patrologia Orientalis , toms XII , XIV , XXII , Paris 1919).

* **الماوردى** ، أبو الحسن على بن محمد البصرى البغدادى: الأحكام السلطانية (القاهرة ١٢٩٨هـ) .

* **المقريزى** (تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥هـ) :

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (طبعة بولاق ١٢٧٠هـ).

- كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عاشور دار الكتب المصرية حتى سنة ١٩٧٣م) .

* **ابن المقفع** ، ساويرس أسقف الأشمونين:

- تاريخ بطاركة الاسكندرية (نشره يسى عبد المسيح وأسولد برمستد، القاهرة ١٩٤٣م) .

* **لويس شيخو** :

- شعراء النصرانية بعد الإسلام ، (بيروت ١٩٢٤).

* **ابن النقاش** (أبو إمامة محمد بن على ت ٧٧٣هـ) :

- المذمة فى استعمال أهل الذمة (مخطوط بدار الكتب المصرية- ٣٩٥٢تاريخ).

* **نورمان كانتور :**

– التاريخ الوسيط : قصة حضارة – البداية والنهاية، (دار عين للدراسات والبحوث، القاهرة).

* **النويرى** (شهاب الدين عبد الوهاب ، ت ٨٣٣هـ) :

– نهاية الأرب فى فنون الأدب (١٨ جزءا طبعة دار الكتب المصرية والباقى مخطوط ٥٤٩) .

* **الواقدى :**

– فتوح الشام .

* **يحيى بن سعيد الأنطاكى:**

– تكملة تاريخ سعيد بن بطريق (بيروت ١٩٠٩م) .

* **يوحنا النقيوسى :**

– تاريخ يوحنا النقيوسى ، (ترجمة ودراسة عمر صابر عبد الجليل، دار عين ٢٠٠٣م) .

* **أليف ليلة وليلة** (طبعة محمد صبيح ، القاهرة د.ت) .

* **سيرة الظاهر بيبرس:** تاريخ الملك العادل صاحب الفتوحات المشهورة . (نشر عبد الحميد أحمد حنفى، القاهرة د.ت).

المراجع الأجنبية

* Anna Comnena :

- The Alexiade ,(translated form the Greek by : E.R.A. Sewter , Penguin 1970).

* Anne wolff :

- How Many Miles to Babylon ? Travels and Adventures to Egypt and beyond : form 1300- 1640, (Liverpool University press, 2003)

* Anonymous :

- The Chronicle of 754 in Conquerors and Chrolicles of Early Medieval Spain, trans. K.B. Wolf (Liver pool 1995).

* Atiya , A.S. :

- The Crusades in the Later Middle Ages , (London 1938).

* Anonymous :

- Gesta Francorun : The Deeds of the Franks and Other Pilgrims to Jerusalem , (Edited by Rosalind Hill , (New York . 1962)

* Bede :

- A History of The English Church and People , (Trans-

lated with an Introduction by : Leo Sherely - Price , Penguin 1979) .

* Brundage, J.A., (ed),

- The Crusades Motives and Achievements, (Boston 1964).

* Dionisius A. Agius and Richard Hitchcook (eds.) :

- The Arab Influence in Medieval Europe , (Ithaca Press, U.K. 1997) .

* Edward Peters :

- The First Crusade , the Chronicle of Fulcher of Charter and other Source Materials , (the University of Pennsylvania press , 1971) .

* Einhard and Notker the Stammerer :

- Two Lives of Charlemagne , (Translated with an Introduction by : Levis Thorpe , Penguin , 1974) .

* Fredegar :

- The Fourth Book with its Continuation, trans. J. M. Wallace - Hadrill (London 1960) .

* Fulcher of Charter :

- a History of the Expedition to Jerusalem 1099- 1127 (translated with an introduction and edited by Harold S. Fink , Konuxville , 1969).

* Gaston Paris :

- " Un poeme latin contemporain sur Saladin ," Archives de l' Orient Latin , tom I , (Paris 1889).

* Hugh Kennedy :

- The Great Arab Conquests - How the Spread of Islam Changed the World we Live in (Weidenfeld and Nicolson , London 2007).

* Joseph Bediér et Piérre Aubry :

- les Chansons des Croisades avec leurs melodies , (Paris 1959 ; Hitkine Reprints 1974).

* Gregoire le Prêtre , RHC , Doc. Arm., I.

* Joinville and Villehardouin :

- Chronicles of the Crusades , (translated with an introduction by : M.R.B. Shaw , Penguin 1973).

* Lewis A.M. Sumberg :

- La Chanson d' Antioche : Étude Historique et Littraire , (Paris 1968).

* Matthiew d' Edesse . in RHC , Doc . Arm ., I .

* Michel le Syrien:

- Chronicle, Traduite par I.B. Chabot, 4 toms. (Paris

1899-1924).

* Michael Routledge :

- " Songs " in Jonathan Riley - Smith (ed.) , the Oxford Illustrated History of the Crusades, (Oxford University Press 1995) .

* Norman Daniel :

- The Arabs and Medieval Europe . (2 nd ed ., Longman, London and New York . 1979).

* Norman F.Cantor :

- Medieval History ; the Life and Death of a Civilization, (2nd ed . Macmillan , New York 1969).

* Ronald C. Finucane :

- Soldiers of the Faith ; Crusaders and Moslems at War , (New York , 1983) .

* R.W. Southern :

- Western Views of Islam in the Middle Ages (Harvard University Press , 1962) .

* Paul Meyer :

- " Fragment d' une Chanson d' Antioche en Provincale ", Archives de l' Orient Latin , tom . I , (Paris 1884).

* Sebeos :

- The Armenian History, trans . R.W. Thomson 2. vols. (Liverpool 1990).

* Sebeos L' évéque :

- Histoire d' Eracules , (Traduit de l' Armenien et annotée par : Frédéric Macler , Paris 1904) .

* Theophanes :

- The Chronicle of Theophanes, transl. C. Mango and R. Scott (Oxford 1997).

* Theophanis :

- Chronographia , vol . I , in : Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae , (Bonnae 1839).

* Walter E. Kaegi :

- Byzantium and Early Islamic Conquests (Combridge University Press 1992) .

* Zonaras :

- Epitomae Historiarum libri , T. 3 in : Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae , (Bonnae 1897).

محتويات الكتاب

القسم الأول

المسيحيون والفتوح الإسلامية

(بيزنطة وشرق المتوسط)

القسم الثاني

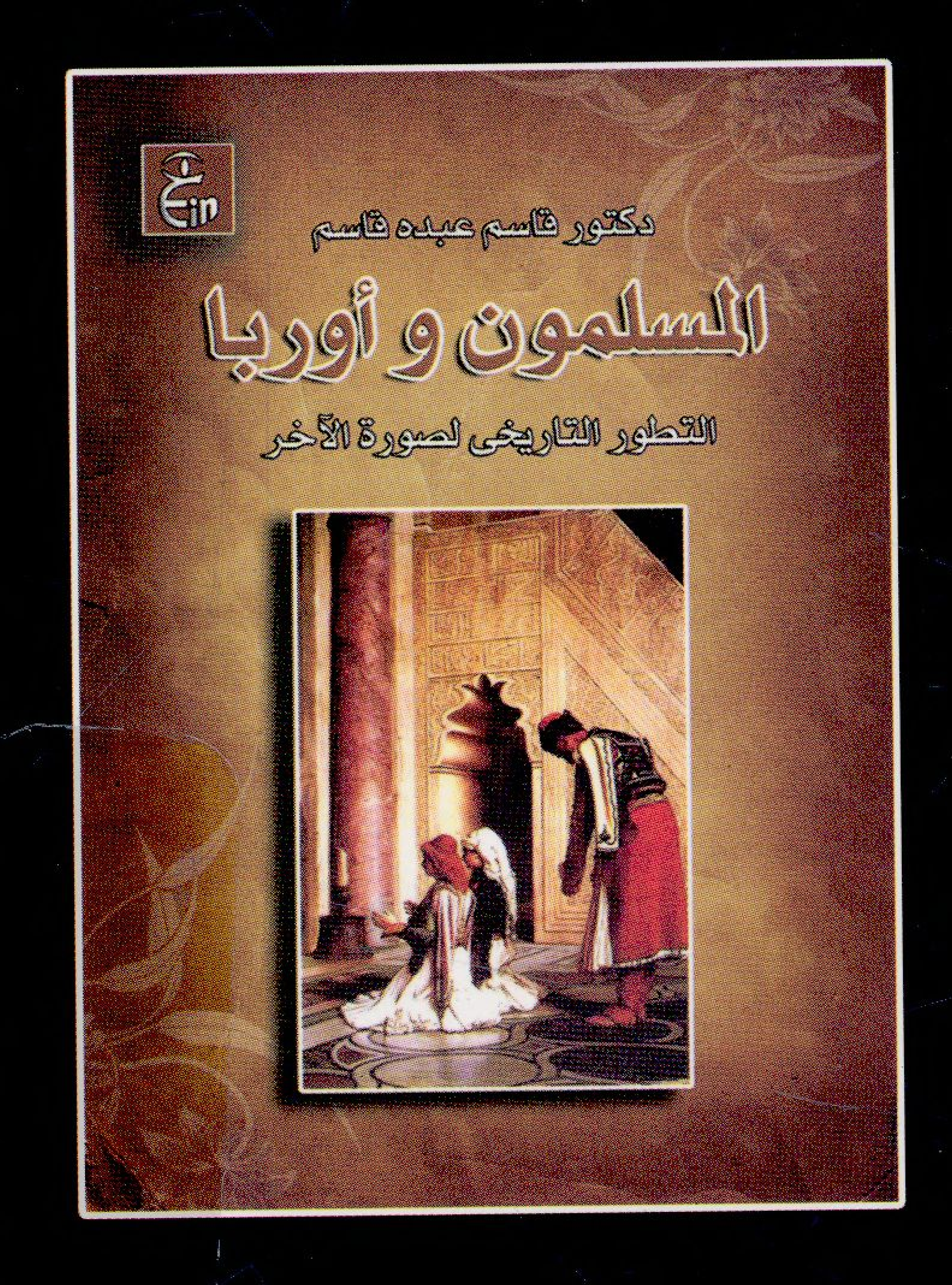
أوربا والعالم والإسلامي

القسم الثالث

مفهوم التسامح بين ثقافتين : أوربا والعالم الإسلامى

رقم الإيداع ٧١٤٣ / ٢٠٠٨
الترقيم الدولى L.S.B.N. 977 - 322 - 236 -5

مطبعة صحوة
٧ شارع اسماعيل رمضان - الكوم الأخضر - فيصل
تليفون وفاكس/ ٣٣٨٧١٦٩٣ - ٠١٠١٠٠٩٦٧٨٠





للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية

FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES